

السلسلة الأندلسية

8

هِجرةُ علماءِ الأَنْدَلُس لدى سقوط غَرْناطة

(ظُروفُها وآثارُها)

الدكتور عبد الرحمن علي الحَجِّي

أُستاذ التاريخ الإسلامي والأَندلسي


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رح هـ ج
عبد الرحمن علي الحجي.
هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة (ظروفها وآثارها) / تأليف
عبد الرحمن علي الحجي.-أبوظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٣.
٢٩٠ ص
ببليوجرافية: ص٢٦٥ - ٢٧٦.
١- الأندلس - تاريخ.
٢- الحضارة الإسلامية - الأندلس.
٣- الأندلس - تراجم.
أ- العنوان.

أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380- هاتف: 6215300
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae



هِجرةُ علماءِ الأَنْدَلُس

لـدى سقوط غَـرْناطة

(ظُـروفُها وآثـارُهـا)

الإهــداء

إلى الذينَ هاجروا إلى الله في الأَندلس وغيرها، جهاداً فيه وخدمةً لدينه، وعَضُّوا عليه بالنواجذِ، وبقوا في الميدان لأَجله، نزعُوا الخوْف والطَّمع.

وإلى كلِّ مَن حذا حذْوَهُم واقتفى أَثَرَهم من أجيال أهلها، خلال القرون المتطاولة، وهم صابرون على مطَارق ومخارق ومحارق محاكم التفتيش، أودواوين التحقيق الغاشمة الظالمة، في الأندلس الشَّهيدة، حتى أتاهُم اليقين.

وإلى أمثالهم في أيَّة بقعة من بقاع العالم الإسلامي، خلال تاريخه وأجياله في كلّ وقت وحين.



قصة هذا البحث

قُدِّم هذا البحث (هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غَرْناطة، ظروفها وآثارها) إلى مؤتمر الحضارة الأندلسية، الذي دعت إليه جامعة القاهرة، وعُقد في قاعاتها (كلية الآداب) في النصف الثاني (٢٠ ـ ٢٣) من شهر مارس (آذار) سنة ١٩٨٥م.

وبقي البحث لم يُلْقَ ولم ينشر حتى اليوم، حيث تكفل معهد الدراسات الإسلامية في مدريد بالقيام بطبع البحوث في أعداد من صحيفته السنوية : (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد : (Revista Del Instituto de Estudios Islamicos en Madrid)

ولما كانت البحوث لايسعها كلها مجلد واحد، بل اثنان، طُبعت البحوث ـ التي حضر أصحابُها المؤتمرَ وألقوها ـ في مجلد واحد هو المجلد الثالث والعشرون (مدريد، سنة ١٩٨٥ـ ١٩٨٦م). ولقد كان من المفروض أن يصدر المجلد الرابع والعشرون محتوياً الموضوعات التي لم يحضر أصحابها ولم تُلْقَ، ومنها هذا البحث، منذ أكثر من سنتين(١٩٨٨) ولكن للأسف حتى الآن (٢٠٠٠م) لم يتم ذلك. والظاهر أنّه سوف لا يتم أبداً.

والآن وبعد مضيّ كل هذه المدة وقد تواصل مثلها ومثلها، كان الأمل أن يتم طبعه من قِبَل إحدى دور النشر سنة ١٩٩٠م. ومن هنا فقد قمت بتحسينه وتزيينه وزيادته زيادة غير قليلة، تصل إلى ضعف حجمه الأول. وأقوم بذلك والمصادر والمراجع التي استعملتها ليست جاهزة لديَّ، ولعله في طبعة أُخرى يتم ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ وأتولى مراجعته وإيراد النصوص والبحث عن استكمال مافات ومتابعة الأمثال والأشكال والأحوال.

والحمد لله رب العالمين، وأرجوه السداد، فهو وحده القادر، وعليه وحدَه سبحانه وتعالى كل الاتكال والاعتماد.

الكويت: ١٤ شوال ١٤١٠هـ

١٩٩٠/٥/٩م

تنقيحات وزيادَات مُتتابعَة

وبعد التاريخ المذكور جرت أُمور أَجّلَت كلّ ذلك، وكانت محاولات لنشره في الأُردن، فلم يأْذن الله تعالى به.

وفي أواخر عام ١٩٩٢م جرى الاتفاق على نشره مع إحدى دور النشر، ثمّ رجوتهم إمهالي بمراجعته، حيث توفّرت بعض المعلومات والمصادر، مخطوطة ومطبوعة. وطال ذلك وقتاً غير منتظر، فمنذ أن تمّ الاتفاق على نشره وحتى الآن وأنا أتابع كتابته كتابة جديدة. ولقد أنفقت من أجل ذلك بضع مئات كثيرة من الساعات، حتى غدا الكتاب ـ بحجمه الحالي ـ أضعافاً مضاعفة لحجمه في الكتابة المنقّحة السابقة. وأكثر الزيادات هي التي خصّت العلماء المهاجِرين من الأندلس(موضوع البحث)، حيث زاد عددهم ومقدار الكتابة عنهم:

كيفاً: بالحصول على معلومات جديدة متسعة، أبعد خبراً وأعمق أثراً وأوعب شمولاً لماجريات (مُجريات) حياتهم وحركتهم ودَوْرهم.

وكمّاً: بزيادة مساحة الكتابة عنهم إلى مضاعفتها لعشرات المرات.

والحمد لله فقد توفرت مراجع ومصادر ومخطوطات، كانت عنّي بعيدة وأُخرى جديدة وغيرها مخطوطة، أغنت البحث وجَوَّدته وعمقته، والحمد لله رب العالمين.

بغداد المحروسة ـ العامرية المعمورة والمَضْيَفَة المشهورة.

أكتوبر(تشرين الأول) سنة ١٩٩٣م.

بقي الكتاب عندهم، ما يزيد على ست سنوات، جرى خلال ذلك كتابته على الكمبيوتر وجرى تصحيح عدّة بروفات له، كانت الضرورة أن أُعيده وأَقوم بطبعه على الكمبيوتر من جديد، لدفعه فيما بعد إلى المطبعة إن شاء الله.

والأمل ـ إن شاء الله تعالى وبعونه ـ أن لا يطول انتظار من يطلبه كتاباً مقروءاً، أن يجده متوفراً لديه ولدى المكتبات وغيرها من دور العلم والمعرفة ومؤسساتها.

صنعاء اليمن: ١٦ جمادى الآخرة ١٤٢١هـ

١٤/٩/٢٠٠٠م

توضيح وتمهيد

أَعتبر وأَعُد التاريخ الأندلسي ثلاثة أقسام، أُعِد ـ بعون الله تعالى ـ لكل منها كتاباً مستقلاً:

القسم الأول: منذ الفتح الإسلامي للأندلس (اسبانيا والبرتغال = شِبْه الجزيرة الإيبيرية = شبه الجزيرة الأندلسية) سنة ٩٢هـ = ٧١١م حتى سقوط غَرْناطة سنة ٨٩٧هـ = ١٤٩٢م، آخر مملكة إسلامية في شبه الجزيرة الأندلسية. وقد أنجزتُ هذا القسم ـ والحمد لله رب العالمين ـ في كتاب نحو ٦٠٠ صفحة، مع خرائط وقوائم وجداول بعنوان:

"التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غَرناطة". وكانت طبعته الأولى سنة ١٩٧٦م. ثمّ تكرر طبعه، وغدا مقرراً أو مرجعاً في العديد من الجامعات ولكل مهتم بالدراسات التاريخية عموماً والأندلسية خصوصاً، باحثين وأساتذة وطلاباً، لا غِنى لهم عنه، وذلك كله من فضل الله ومنته.

القسم الثاني: ويشمل كل ما يتعلّق بالأندلس وتاريخها وأحوالها، منذ السقوط: سقوط غَرْناطة، وحتى الوقت الحاضر، وما بقي في الأندلس للإسلام ومن الإسلام وبالإسلام، وما يقدمه البحث ويُقَوِّمه. ويشمل هذا القسم أيضاً كل ما لقيه المسلمون في الأندلس، منذ زوال سلطتهم السياسية وتولي الصليبيين الحكم فيهم (سلطة سياسية وكَنَسِية)، من هتك وفتك وتنكيل وتقتيل وتخريق وتحريق وتدمير لكل ما هو مسلم، بحيث أصبح المسلمون فيه موزعين بين مُدَجَّنين Los Mudejares وموريسكيين Los Moriscos، ليغدوا كلهم، فيما بعد، موريسكيين. ويشمل كذلك كل ما جرى من أحداث وثورات وإجراءات ـ شنيعة وفظيعة ومريعة ـ قامت بها محاكم التفتيش الإسبانية والبرتغالية الباغية، أو دواوين التحقيق بل التحريق، ضد المسلمين، بدعم من الصليبية الأوربية وبابويتها، المتنمرة المتجبرة المتبربرة، وما ارتكبته هذه المحاكم ضد المسلمين في الأندلس، أندلس الحضارة، لما يزيد على

ثلاثة قرون، عجفاء قرعاء نكراء.

ومنذ انتهيتُ من القسم الأول، وأنا أجمع وثائق القسم الثاني، من رسائل ومخطوطات وتقييدات وتعليقات، وأتابع مؤلفاته من بحوث وكتب بالعربية واللغات الأخرى كافة، التي كُتِب بها عن هذا الموضوع - الذي ما يزال خِصْباً - لا سيما اللغات الفِرنجية، التي سَبَقَنا أهلُها في هذا الميدان وعجلوا بالاستفادة من وثائقه وسجلات دواوين التفتيش أو التحريق، بل ومخطوطاته، وكتبوا فيه كما يريدون، حسب منهجهم وأسلوبهم وتصوراتهم، ولا نَعْدِم في كتاباتهم توفر الإنصاف والموضوعية والعلمية. ولقد جمعتُ، لهذا الموضوع، من الكتب والبحوث والمخطوطات - بذاتها وأسمائها وعناوينها - ما يمكن، والحمد لله رب العالمين، أن يُكَوِّن وحدَه بحثاً مهمّاً وكبيراً. ولقد كتبتُ وألقيتُ في هذا الموضوع عدة بحوث وأعمال علمية، وقدمتُ فيه دراسات:

١ - كتاب: " محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها " (الكويت، ١٩٨٧م).

٢ - بحث: " الموريسكيون في المصادر والمخطوطات الأندلسية"، قُدِّم إلى المؤتمر الثاني للجنة العالمية للدراسات الموريسكية (تونس، ١٩٨٣م). وللأسف لم ينشر هذا البحث - حسب علمي - حتى الآن. وسيظهر - بعون الله تعالى - في العدد التجريبي من مجلة البُذُور أو في عددها الأول.

٣ - بحث: «هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة، ظروفها وآثارها»، قدم إلى «مؤتمر الحضارة الأندلسية»، الذي دعت إليه جامعة القاهرة (٢٠ - ٢٣ / ٣ / ١٩٨٥م)، وعُقِد في قاعاتها بكلية الآداب.

وكان الأمل أن ينشر بحجمه ذاك ووضعه المقدم به للمؤتمر في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (المجلد ٢٤)، ولكن لم يتم من ذلك أيُّ شيء. ثم وسعتُه إلى نحو الضعف، فغدا زهاء ٤٢ صفحة مع الهوامش. وكان الحديث عن العلماء المهاجرين لا

يتجاوز صفحتين، ولم يتم نشره، كما جرى الإلماح إليه كذلك قبلاً (أعلاه، ٥).

لكني رغبتُ إعادة النظر فيه بعد تلك التوسعة، لتوفر بعض المصادر والمعلومات والوثائق. فقمتُ بإعادة كتابته، بحيث أصبح أضعاف حجمه الموسع السابق بكثير، لأضعه الآن في ثوبه الجديد كتاباً بين يديك، أيها القارئ الكريم، والحمد لله رب العالمين. وأَعتبر هذا الكتاب مفتاحاً مهمّاً ودليلاً كريماً ومُعْتَبَراً لهذا القسم الثاني من التاريخ الأندلسي، الذي أرجو الله تعالى أن يمكنني من إتمامه.

القسم الثالث: ويشمل الحضارة الإسلامية الأندلسية وانتقال جوانب منها إلى أوربا وأثر ذلك في الحضارة الحديثة، وما بقي في إسبانيا والبرتغال منها حتى اليوم، ومستقبل ذلك.

ولقد كتبتُ بحثاً عن هذه الحضارة، نُشر كتاباً: " الحضارة الإسلامية في الأندلس: أسسها، ميادينها، تأثيرها على الحضارة الأوربية " (بيروت، ١٣٨٩هـ= ١٩٦٩م). وكذلك نشرتُ العديد من البحوث والمقالات في مجلات متعددة وفي أكثر من بلد هنا وهناك. وألقيتُ المحاضرات، تناولتُ العديد من قضايا وجوانب الحضارة الإسلامية عموماً والأندلسية خصوصاً. كما ضَمَّنْتُ كثيراً من جوانبها المذكراتِ الدراسيةَ حين تدريسي لمادة الحضارة الإسلامية في العديد من الجامعات بشكل عام ومركز.

وأرجو من الله العون على الوفاء بهذا كله وإخراج كتاب مستقل مستوفٍ وشامل للحضارة الإسلامية في الأندلس، بجانب كتاب آخر عن الحضارة الإسلامية عموماً: " الحضارة الإسلامية، بناءً وعطاءً" . وهو جاهز بالمهم من موضوعاته ويحتاج إلى مراجعة.

فهذه الأعمال العلمية وأمثالها تعتبر بنوعيتها وتُتَوَّج صدقَها وعمقها وأمانتها، بشكل يتماشى مع صياغتها وقواعد بنائها وجهدها المتقدم، لا بكميتها فحسب، بل (الأهم) بنوعيتها. كل هذا لا يتم إلا بمحبة أصيلة لا ترتبط بسمعة أو مصلحة أو دنيويات، بل تنبع

من حب متكاثر وعمق غائر وأصالة متفتحة، تستمد دوافعها ـ بفضل الله تعالى ـ من إيمان يدفع لمثل هذا العمل، دفعاً قويًّا لا يتعثر ولا يتغير ولا يتأخر، يحتمل المصاعب والمتاعب والمقالب. إيمان بدين الله الخاتَم: دين الأنبياء والرسل كافة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وخاتمهم وسيدهم وإمامهم محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم، الذي يقول: «الأَنبياءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّت، أُمَّهَاتُهُم شَتَّى، وَدِينُهم واحد»[1].

فهي إذاً تقوم وتنبع من إيمان قوي بهذا الدِّين ـ الصِّيغة والصِّبغَة والصورة الأخيرة لدين الله، بكماله وشموله وجماله الفريد ـ وبكل ما يكون له خدمة، حسب الإمكانية والممارسة والتخصص: ﴿ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾[2]وبهذا كله يؤدي ما يستطيع بمحبة وتعلق وسرور، حسب مُكْنته وتقدمه واستعداداته و" كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ "[3]. وعند ذلك يكون متماثلاً مع دوافعه ومقوماته واستعداداته. وهذا ما يجري السّعي له دائماً والحمد لله رب العالمين.

وهو بجانب ذلك يقوم على المحبة الواضحة والتعلق الشديدوالهمّة البارّة المصرّة. وتلك من ضمانات العمل الأصيلة البَنَّاء المِعْطَاء. وهي ذاتية قوية مركوزة في النفس الإنسانية المؤمنة بأعماقها، لا تتوقف ولا تتخلف ولا تَنْفَد، لأنها تستمد كل ذلك من إيمانها القوي

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد. البخاري، كتاب: الانبياء، باب ٤٩، ٣/ ١٢٧٠ . انظر: السيرة النبوية، منهجية دراستها واستعراض احداثها، ٢٧٠ .

إخوة لعلات: أبوهم واحد وهم من عدة أمهات. وهذا يبين أن شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفقة الأصول، كما يوضح أن الإيمان بالعقيدة الربانية، هي النسب الحقيقي وبها يكون التفاضل. وهو أمر من أساسيات الإسلام وقواعده البديهية، ومؤكد بوضوح في المصدرين: القرآن الكريم ـ وحي الله المنزل بلفظه ومعناه على رسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم ـ وحديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، الذي هيأ الله له مَن يرويه بدقة وأمانة وينفق من أجل ذلك عمره، تطبيقاً لكل تعاليمه، مما لا يكاد يحتاج إلى دليل، أي: لخدمة الإسلام.

(٢) سورة البقرة، ١٣٨ .

(٣) حديث شريف، أخرجه أبو داود، رقم: ٤٧٠٩ . والترمذي رقم: ٣١١١ .

بالله تعالى ودينه القويم وسيرة رسوله الكريم (ﷺ) وبكل ما جاء به. وعلى هذا قامت الحياة الإسلامية ومجتمعها، وكل ما تقدمه من مُنجَزات ونتاجات ومُعطيات.

أَرَدتُ بذلك أن أحس وأتلمس وأستخرج نوعية وكيفية وحقيقة البناء الإسلامي وما قدمه وتفرد به وتميز، المُسْتَمَد من تفرد هذا الدين. فهو إذن طبيعي ولا يكون غيره، بالنسبة إليه ولِمَا عداه. مثلما أردتُ به إظهار حقيقة وطبيعة وصياغة المجتمع الإسلامي القائمة عليه والمرتبطة به، وتوجيه الدراسات لإظهار ذلك وتبيينه وتأكيده، لتسود الحقائق العلمية ويحتل موقعه المتناسب ويأخذ محله المتقدم ويُوضع موضعَه الجدير به.

إن كل عمل يحبه صاحبه - محضناً ومهنة وممارسة - يأتي بالنفع الوافر والخير العميم والبناء الرصين. وهذا اللون من الحب والتعلق يعطي أصالةً وصدقاً وإقامة وإدامة، جذورها غائرة وأشجارها باهرة وثمارها وافرة. تزدهي جمالاً وتتباهى دلالاً وتتوسع آمالاً، قوية مع الأيام أبية على الأحداث حامية لأهلها، تعطيهم كما أعطوها، مُحْتَمِلَة ضعفَهم وتقصيرهم بل وغفلتهم، حين تَمَسُّهم أطرافُها أو تَدْهَمُهم أحداثُها أو تُوقِعُهم غَمَراتُها.

وغير هذا اللون من الحب - مهما كانت أسبابه ودواعيه ودوافعه على تفاوتها - لا بد أن يقف عند حد، في ظروف للارتقاء ومقدار في أوقاتٍ للبناء ونوع من الإقدام للعطاء، نتيجة لأي جهد مهما بلغ وإخلاص وإن عَمُق وإصرار ولو التصق؛ ثم إنها في مستوى وحال ووقت تتوقف أو تتهاوى أو تنقلب، إن بدت - في أنظار أو منظار - أنها ثوابت غير قابلة للتغيير، ثم تذهب وتزول وتَحول وعليه تدول.

ولكن هذا اللون من الحب المُسْلِم الإيماني الأصيل الذي يقود إلى الصيغ الفضلى ويتمكن في النفس الإنسانية بالدرجات العلا، وبالتالي في الحياة بكل دروبها وأحوالها وجذبها في صور أحلى، لا تتم إلا حين تقوم على عقيدة بالله تعالى صحيحة سليمة وشريعة صادقة صالحة ومنهج أمين ركين رصين.

وهذا لا يتوفر أبداً إلاّ بهذا الدين: الإسلام، الذي بعث الله به نبيه ورسولَه محمداً صلّى الله عليه وسلّم وحمله الصحابةُ الكرام والتابعون مِن بعدهم من أهله إلى اليوم وما بعده، حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ وليس الذين يحملون اسمه وينتمون إليه جغرافيًّا أو تاريخيًّا، وفيهم شر الأعداء والعملاء الذين منهم مَن يَدُلُّ على العورات ويثير الشبهات ويبرر الافتئات. وهؤلاء لا يذكرونه إلاّ لينتسبوا إليه ويشوهوه وإلاّ ليستعملوه حين يُفْلِسون، فَيَظهرون عندها على حقيقتهم عملاءَ مأجورين عرايا، يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، فهماً وحكماً، بل وكذلك تاريخاً.

وما أكثر ما واجه دينُ الله تعالى مثلَ هذا التزوير والتلفيق والتلصيق، سواء مِن قِبَل الدخلاء والفِرَق المتنوعة خلال تاريخه أو الأعداء الآخَرين، أو على هوىً غَثٌّ لدى الكثير من غُمار المستشرقين وأتباعهم وما أكثرهم ـ طابوراً خامساً وأشد ـ ولكن كما قال الشاعر:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهِنَها فلم يَضُرْها وأوهى قرنَه الوَعِلُ

أو كمن قال:

يا ناطحاً جبلاً يوماً ليوهنَه أَشفقْ على الرأسِ لا تُشْفِقْ على الجبلِ

وكم واجه الإسلام ـ خلال تاريخه وأجياله ـ من المؤآمرات والمواجهات العسكرية والكلامية والكتابية الداخلية والخارجية، الجلية والخفية، استَعملت كُلَّ أنواع الأسلحة، وتَجَمَّع فيها الأعداءُ بعداواتهم، لكنه ـ والحمد لله وحدَه ـ بقي محفوظاً، بل ومُسْتَفيداً ومُسَلَّحاً ومُسْلِماً. ولا خوفَ من ذلك ما داموا لم ينالوا من بنيانه المسلم، فرداً وجماعة، مهما بذلوا له، وهم يبذلون، ومهما عملوا، وهم يعملون، ومهما جمعوا وهم يجمعون[1].

(١) التاريخ الأندلسي، ٣٩٩ وبعدها.

ولقد حَفِظ اللهُ تعالى دينَه نصًّا وروحاً وتاريخاً وسيرة. وهو سبحانه الذي جعله عاقبةً للمتقين ووراثة وقِوَامة في الأرض، ختم به الرسالات. والإسلام هو الدين الذي أراده الله وارتضاه لخلقه، بكل طوائفهم وأجناسهم وانتماءآتهم. والإسلام هو وحدَه الميزان وبه ـ لا بأي شيء غيره ـ يكون الفضل والحكم الفصل.

وحين يتربى الفرد والجماعة والمجتمع على ذلك يستمد دوماً غذاءه وحياته من هذا النبع ويبقى بناؤه قويًّا، به يُظهر قوة هذا الدين ونوعه وهيمنته: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾[1] . ووَعْدُ الله أن يُظْهِر هذا الدين: ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾[2].

وهذا المنهج وحدَه هو الذي يبني الإنسانَ الكريمَ ويمد حياتَه الفاضلة ويرتقي بمجتمعه المتحضر، وهو يرتبط به ويواليه ويقوم على هذه القواعد. نَبْعُه هذا الدين وميدانه حركته وبثه وصناعته الإنسان الفاضل، ليسقي الحياة بميادينها وجوانبها ونِتاجاتها. وبغير هذا لا يمكن توفير هذا الحب، مهما بدا للإنسان برونقٍ مزوق، فإنه مختلف نوعاً ودرجةً واحتمالاً، يفتقد الأصالةَ وتفضحه الضحالةُ وينكشف هزالُه، وتلك حقيقة مقررة لا محالة.

وهكذا فكل أرض دخلها الإسلام وحَلَّها كان مُنْقِذاً لأهلها مُنَوِّراً لأرضها ومحضِّراً لحياتها، به أدركت إنسانيتَها وعرفت نفسَها وبنت حضارتَها المنيرة الفاضلة.

فانظر ماذا كانت قبله وكيف غدت به بعده؟ كان للناس مَوْئلاً وللخير مرتعاً ومدخلاً ولربيع حياته منهلاً. فأَقبلوا عليه ـ وربما بعد أن حاربوه ـ فكانوا خير الأبناء، جاهدوا له وافتدوْه، وكان أسرعَ الناسِ إقبالاً عليه وأكثرَهم ولاءً له وأحسنَهم بلاءً فيه أكثرُهم تعقلاً

---

(١) سورة المائدة، ٤٨ .

(٢) سورة الصف، ٩ . سورة التوبة، ٣٣ . سورة الفتح، ٢٨ .

وأبعدُهم تَنَبُّلاً وأعمقُهم للحق تقبلاً: " تَجِدُون النَّاس مَعَادن، خِيَارُهـم في الجَاهليَّة خِيَارُهم في الإسلاَم إِذا فَقِهوا "(١). و" ما مِن نبيٌّ مِن الأنبياء إلاّ أُعطي من الآيات ما مِثْلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُتيتُه وحياً أوحاهُ الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثَرَهم تابعاً يوم القيامة"(٢). وهذا ما رأيناه في الأندلس مثلما في غيره، وحتى الوقت الحاضر وفي كل موطن وعلى أي مستوى ومكانة، وذلك أمر طبيعي تماماً.

وما دام الإسلام للحياة، كالماء للأرض، فلا بد أن يحدث ذلك. وهذا وذاك مركوز ـ في حقيقته وذاته وطبيعته ـ في النفس الإنسانية، حتى لَيَغدو من طبائع الأحياء والأشياء والحياة، إغفالها أو إهمالها أو إقلالها يُودِي بالإنسان وحياته ويحولها إلى ملهاة، تعد أيامها في معان ذاهبة وغرور يَسْتَجِرٌ وراءه خيبة، وإن عَلَتها فقاقيع خاوية، هي أقرب للغثاء (بل هي الغثاء نفسه) وألصق به مهما أَحكمت يدَها استبداداً واعتداداً. فهي كالأرض قاحلة "لا تمسك ماءً ولا تُنْبت كلأً"(٣)، أي: كالموحلة التي تنهار عند أول مواجهة وتنهزم أمام طلائع المحن، لا يغني عنها ادعاء ولا تُعافيها أزياؤها المزركشة ولا تنجيها أحابيل تعابيرها الرنانة. بل وحتى لو امتلكت، لوقت أو سيطرت في حكم أو أحصنت نفسها في درب ـ تحريفاً للحقائق وتسويفاً للوعود وتفريغاً للمعاني ـ فذلك سريعاً ما ينهار أمام حقائق الحياة وطبيعتها ومقوماتها.

وهذا ما نراه في الحضارات المتعددة والأنماط الحياتية والاجتماعية المتنوعة، التي سبقت الإسلام. وكذلك نجد مثل هذه الغثائية في كل حضارة، وإن اختلفت بأي مقدار ولون ومظهر ـ مهما ادَّعى لها أَحَدٌ فَرْضاً وحَرَّف من أجلها مجداً وزَوَّرَ تمويهاً لها حقّاً ـ بعده

---

(١) من حديث شريف أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ١، ٤/٢١٧ .

(٢) حديث شريف رواه البخاري(رقم: ٤٦٩٦)، ومسلم (رقم: ١٥٢) انظر كذلك: السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، ١٢ .

(٣) من حديث شريف أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب ٢٠، ٧٩ .

جانبته وحاربته وباينته. بل نجده كذلك في أوضاع ضَمَرت فيها معانيه، في إطار التاريخ الإسلامي والأندلسي، لها منه حظ ـ ولو بمقدار ـ وكذلك في أحواله كافة. ولا تَظهر تفاهة هذا الادعاء إلاّ أمام الحق وأهله[1]. ولذلك وعلى الرغم من قوة الدول والحكام والإمبراطوريات التي كانت أيام الفتح الإسلامي الأول، إلاّ أنها كانت أمامه هشة[2] ـ رغم قوتها وضخامتها وعُنجهيتها ـ حتى لكأنّها في النهاية والنتيجة لتبدو كالبناء المبهور المنخور أو كشجرٍ ممتلئ مشهور أو كالخشب الفخم الضخم المنشور: ﴿ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾، فتهاوت كأمس الدابر أمام جند الحق، بفضل إيمانهم بهذا الدين الرباني المتين المبين: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾[3].

فقد تقدمت أجناد الفتح المبين ـ مع قلّتها، عُدَّةً وعددا وخبرةً ـ لتواجه أكبر قوتين في العالم يومَها، اقتسمته وامتلكت طاقاته واحتجنت أزِمّة الكلمات فيه: الإمبراطورية الرومية غرباً وشَمالاً، والإمبراطورية الفارسية شرقاً. ففي الوقت نفسه الذي كانت جيوش الفتح الإيمانية تقود النصر بفضل الله تعالى على الجبهة الغربية مع الدولة الرومية، كان هؤلاء الجند جند الله في الجبهة الشرقية مع الإمبراطورية الفارسية ـ وكان نصراً حقيقيًّا عجيباً ـ حيث ركبت خيل الله وأدارت معهم معركة اليرموك (٥ رجب الخير، سنة ١٥هـ)، وفَتْحُ بيت المقدس(١٦هـ) وفَتْحُ مصر سنة (٢١هـ). وكانت معركة القادسية (آخر شوال، سنة ١٥هـ) وفَتْحُ المدائن بعدها (١٦هـ) ومعركة نِهاوند سنة (٢١هـ). وكان كذلك نصراً حقيقيًّا عظيماً، اعترف به المنهزمون، بل وأُعجبوا بذلك وأقرّوا بنوعية هؤلاء الجند، جند

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي، ٥٢ ـ ٥٣ وبعدها.

(٢) قارن في وصفها ما يقوله كاتب أوربي: في ظلال القرآن، ٦ / ٣٥٦٦.

(٣) سورة إبراهيم، ٢٤ ـ ٢٦ .

الحضارة والإنارة والجدارة. يحملون رايتها ويحررون أهلها ويحققون إنسانيتها وكرامتها، الذين لا يقف أمامهم شيء ولا توزن الأمور عندهم بالماديات - عُدَّة وعَدداً - ولا بالخبرات والتجارِب، رغم اعتمادها والأخذ بها واعتبار أهميتها لديهم(١). ثم تبع هذا الفتحَ فَتْحٌ بل وفتوحٌ أُخرى، ابتداءً من الإيمانية البِنائية الحضارية، وتلك كانت مُهِمّةُ هؤلاء الفاتحين وغاية جهادهم، ولولاه ما كانوا ولاتقدموا ولاذهبوا. فالفتوحات الإسلامية بأنواعها، فتوح النور الإيماني والحضاري يرتقي بالإنسان إلى هذه الآفاق ويحقق له إنسانيته.

فهم - مع عدم إهمال ذلك - نوع جديد، بهم جَدَّ في الميزان عاملٌ يفتقده كلُّ أَحَدٍ. وهم - المسلمون المؤمنون المجاهدون - وحدَهم الذين يملكونه. فحققوا ذلك النصر الفريد، قليل أو عديم النظير، خارج هذه الدائرة. ولم يكن انتصارُهم عسكريًّا فقط، ولا أعني ذلك وحدَه، ولكنه كان كذلك انتصاراً - وهذا هو الأهم، فهموا ذلك وعملوا له - تَحَرُّريًّا إنسانيًا وحضاريًّا(٢). وكل هذا وذاك وذياك كان بفضل هذا الدين، دين الرحمة.

ولم يتم ذلك لضعف في الدولتين - أو في غيرهما - أو قلة في إمكاناتهما أو عجز في خبرتهما. وهم أمم حرب وانتصارات، كانت بينهما سِجالاً، كما أنهم أمم علوم وحضارات، بل وكانتا أكثر تقدماً وخبرة وإنجازاً في الدنيويات المعزولة والماديات المجردة والنتاجات اليابسة. ولكن لنوع القوة الجديدة التي حملت معاني فريدةً تقوم على الإيمان بالله تعالى ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلّى الله عليه وسلّم نبيًّا ورسولاً. يحف كُلَّ ذلك صدقٌ أصيل وتزينه قوةٌ حازمة ويجلله إخلاصٌ كريم، يرتقي باتجاه مستوى الإسلام نفسه، فتظهر حقائقُه في مسالكهم وتتبين معالمُه في مواقفهم وتُنظر شرائعُه في حركتهم وتعاملهم. فهم يختلفون مأرباً ومذهباً ومطلباً عن كلّ أحد، عِفّةً وأُخوة وإنسانية، بكل أحوالها وميادينها ووجهاتها. ما عُرِف ذلك مِن قَبْلُ ولا مِن بَعْدُ إلاَّ منذئذٍ، وبعده في أحضانها، وكل ما مر

---

(١) انظر: السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، ٢٣٢ .

(٢) انظر: أندلسيات، ٢/١٥١ - ١٥٢ . التاريخ الأندلسي، ٥٧٤ .

قبله مثله، من أقوام مؤمنة مثال دين الله تعالى الحق وشرعه الذي ارتضاه.

وهذا مثله كان في فتح الأندلس وما بعده، فيه من أمجاد مُسَجَّلة وتصرفات مُحَجَّلة ومعاملات مُهَلِّلة، حتى الجيش الذي واجهوه - جيش القُوط - تعجبوا لذلك وأبانوا أن هؤلاء بشر جديد، حتى أرسل قائدُهم الذي عُرِفَ بانتصاراته وقياداته الغالبة وصَوْلاته الصائبة، حين كتب إلى قائده ووليه ومليكه (لُذْرِيق RODRIGO) يطلب النجدة، واصفاً هذا الجيش الإسلامي بالروعة النادرة وطالباً منه النجدة والإسراع بها:

"أيها الملك أنجدني فقد حَلَّ بأرضنا قومٌ لا ندري أَهُم مِن أهل الأرض أم مِن أهل السماء" !![1]. نعم إنهم من أهل الأرض بمنهج السماء، بمنهج الله تعالى المنهج الرباني الكريم، منهج أهل الأرض إلى يوم الدين. وهو دين البشرية في مستقبل حياتها، بل إنّ مِن الكُتَّاب والمؤرخين الغربيين المُحْدَثين مَن أدهشه ذلك، فاعتبر أنّ فتح الأندلس الذي استغرق نحو أربع سنوات كان مجرد نزهة عسكرية[2].

والحق كُلُّ الحق في ذلك. إذ إنّه كيف يمكن لجيش (إسلامي) محدود العَدد والعُدد والخبرة (مقارنةً) أن يحقق مثل هذا النصر الفريد أمام تلك الأعداد الهائلة من جيش القُوط والإمكانيات الضخمة والمهارة المجرَّبة، في المواجهات ومتطلباتها والتاريخ الطويل في الانتصارات والسمعة الماضية في العسكرية والثقة العالية بالنفس، إلى حد أنْ جَلب الجيشُ القُوطي معه عربات تحمل الحبال، لشد وَثاق أسرى المسلمين!!! لتأكدهم من الانتصار عليهم وأخذهم بسهولة بين قتيل وأسير.[3]

---

(١) التاريخ الأندلسي، ٥٢ .

(٢) التاريخ الأندلسي، ١٢٥ .

Historia de España Musulmana, A. PALENCIA, P.11.

(٣) التاريخ الأندلسي، ٥٣ .

كيف يمكن لمثل هذا الجيش القليل إنجاز هذا الفتح الضخم الجليل، في تفاوت مضاعف للقُوط، لولا امتيازه بالإيمان العظيم بالله تعالى ودينه ورسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم، ليقارع امتياز وتفرد الجيش القُوطي، بإمكانياته البالغة الغالبة الجالبة. فأيهما يا تُرى يكون الغالب؟ جرى ما لم يُدركوه أو يتوقعوه أو يتصوروه، فغلب تفردُه تفردَهم. ولولا هذا الدين لحدث العكس وتحققت فيهم أحلامُ القُوط.

ويتم هذا في الجزيرة الأندلسية، وهي شبه جزيرة قارَّة ضخمة، لا بمساحتها التي تبلغ نحو ٦٠٠ ألف كم٢ فحسب، بل وبوعورتها الجبلية المعروفة ووديانها المتموجة المتعرجة المخيفة ودروبها المتجردة المتهدجة. وأكبر وأكثر وأقوى من ذلك بإمكانياتها العسكرية الكثيرة الوفيرة وجيوشها العنيدة العتيدة العديدة، ثمّ بإبائها وبلائها وولائها لانتمائها وولائها ومضائها الديني والسياسي والقومي كذلك.

وكم أذهب إلى إسبانيا، فما مِن مرة ذهبتُ إلا وأدركتني الدهشةُ والإعجاب والتعجب، كيف تم للمسلمين الذي تم؟ ولكن في سفرتي هذه/ ١٠ / ٢٠٠٠ أحاطت بي رَوْعةُ ذلك بشكل أكثر وأدق وأرق وأنا أتنقل بين مدنها ووديانها وجبالها.

فأنْ يَتِمَ هذا الانتصار ـ وهذه هي الأخبار في كل الأسفار ـ انتصار تجاوَز الميادين العسكرية إلى الحياة الإنسانية وإلى اعتناق الدين الجديد، بإقبالٍ قادَهُ الاقتناعُ والاختيار الحر الأكيد والالتزام الذاتي الجديد ـ هو بشارة الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم ـ فهو أمر لا بد أن يُثيرَ العجبَ والإعجابَ والتعجيبَ، مِن قِبَل كل أحد، وليس مِن قبل الباحثين الغربيين وَحْدَهم.

ثم يحدث أن يَدْخُلوا في دين الله أفواجاً ـ وَعْدُ الله سبحانه ـ حتى ليغدو الشعب الأندلسي مُسْلِماً بكثرته الكاثرة ـ الذي أُقدر تَعْدادَه، في القرن الرابع الهجري، بنحو خمسة عشر مليون نَسَمة ـ من أهل البلاد الأصليين من النصارى واليهود والوثنيين، وبقي مَن بقي

منهم على دينه القديم، حُرًّا متمتعاً بكامل حريته وحقوقه وممارساته الدينية، بشكل لم يشهدوه حتى في مجتمعاتهم التي إليها ينتمون، مما ليس له مثيل بحال في التاريخ الإنساني كله، ولن يكون شيء من ذلك أبداً إلاّ بهذا الدين وحدَه. وهذه واحدة من متفردات الإسلام وصناعته. وهذا الحال في قوة المثال من الدخول في الإسلام أفواجاً الذي يحمل الآمال، لا يبين روعةَ هذا الدين فحسب ـ فهو بطبيعته كذلك ـ وإنما أيضاً يدل على مقدار التزام أتباعه وتمسكهم به، مما جعل الآخرين يرونه مُتَمَثِّلاً في سلوكهم حياً واقعياً متحركاً ملموساً، فأقبلوا عليه فرحين باعتناقهم له. وهذا ـ مع أمثاله أو حتى بدونها ـ يُسْقِط تماماً فِرْيَة انتشار الإسلام بالسيف ويُلْقيها بعيداً في مَهاوي الأباطيل والأوهام المهلكة وشبه المتهتكة.

الا ترى أنّ ذلك يثير أحقاد أهل الأحقاد على المسلمين، وتكمن في هذه ـ قضية فتح الأندلس وامتدادها إلى ما وراء البُرْت وقتها ووقعة بَلاط الشهداء (١١٤هـ = ٧٣٢م) ـ بدايات سجل أوليات الحروب الصليبية بأشكالها، لا سيما في الغرب، والتي استمرت إلى اليوم شرقاً وغرباً، وهي مستمرة دائمة قائمة.

بل إن مِن هؤلاء الكُتّاب والمؤرخين الغربيين المُحْدَثين مَن حاول أن يُدْرِكَ كيف تم هذا؟ فهو أعجوبة تحتاج إلى بحث عميق ونظر دقيق وتقصٍّ حقيق، في كيفيته وإتمامه وإنجازه، على هذا الوجه الفريد، الذي يمكن أن يوصف بالمعجزة أو أنّه يحمل نسماتها، استمداداً وامتداداً واجتهاداً من هذا الدين الذي أنزله الله رحمة للعالمين، فهو معجزة وبه وحده تتحقق المعجزات. لا يغير من ذلك ولا يؤثر فيه ولا يُنْقِصُه محاولاتُ بعض الموتورين، مجانَبَةً للعلم وأمانته، الإقلالَ مِن هيبته والإهمال لقوته والإغفال من طبيعته، بإثارات جانبية وتجسيم افتعالاته والإشغال بمناقشاته. بمثل هذا النوع من الإيمان والجند والنوعية الإنسانية العالية، الذي به وحده توفرت، كان الفتح الإسلامي للأندلس، وهو الفتح الذي

بَشَّر به الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم[1].

وبعد أن قام الإسلام في الجزيرة الإيبيرية أو الجزيرة الأندلسية (إسبانيا والبرتغال) ابْتُنِيَت الحياةُ على ذلك مزدهرة، كلما كان الولاء لهذا الدين أقوى وأشد وأمجد. ورأوه في الحياة مضيئاً وارتقى بإنسانية الإنسان وأعلى قدره وكَرَّم آدميتَه، مستويات ما رأوها ولا عَلِموا بها، وطُعُوماً ما تَذَوَّقُوها وأوضاعاً ما ظنوها ـ لا حُلْماً ولا خيالاً، فضلاً عن أن يكون واقعاً يمارَس وحركةً تُرى ونوعياتٍ تُشاهد ـ فلا يصلون إليها ولا يعرفونها ولا كيفيتها ولا الدرب إليها، لا هم ولا غيرهم ولا أتباعهم، إلاّ بهذا الدين. عند ذلك وحين شاهدوا كل هذا العَجَب في منهج الله متمثلاً في أتباعه، حركةً مرسومة بريشة كريمة بأحلى الألوان ولأول مرة، دخلوا في دين الله أفواجاً[2].

وظنّي أن موضوع الفتح ونوعية الفاتحين ودخول أهل البلاد في دين الله في الأندلس مازال بحاجة إلى تتبع ومتابعة واستقراء أو استنطاق، تُبْنَى وتقوم وتُقَدَّم على أساسٍ واعٍ من المعرفة العميقة الدقيقة والرغبة المتابِعة والنظرة السليمة، مضافاً إليها أُمور أخرى ومتعلقات واضحة. ولقد حاولتُ ذلك في كتابي المذكور في القسم الأول في بداية هذا التوضيح والتمهيد[3].

وهذا مما أثار الحقد عليه فكانت روح العداء ـ المتلبسة أي لبوس، ومنها العلم والبحث ـ تعمل على حربه، تشويهاً وتهويناً واتهاماً، لنبذه والتخويف منه وحربه.

لكن الحقائق لا تضيع، وإن شُوهت أو أُخفيت أو خُنقت لوقت. ولا بد أن نجد في جهتهم مَن ينصفه وينصره، بل ويتبناه. وهذا ما أُشيرَ إليه بأمثلة ممثَّلة ووقائع مدللة

---

(١) التاريخ الأندلسي، ٥٠.

(٢) انظر: أدناه، ٢٥.

(٣) أعلاه، ٩. وانظر: التاريخ الأندلسي، ١٤٣ وبعدها.

وشواهد مكللة، في ثنايا هذا البحث وخلال تقديم أحداثه وشواهده ومحامده.

ولقد زاد تفكري في هذا الأمر وورد على الخاطر اندهاش أكثر خلال رحلتي الأخيرة إلى الأندلس (/ ٩ - ١٠ / ٢٠٠٠) وأنا أتجول في أنحاء الأندلس، كيف تم هذا الفتح العظيم المعجزة وكيف استطاعوا رسم خُطط وخطوط سير الفتح بمعرفة ونجاح كامل شامل آمل، وكيف دخل هذا الشعب العنيد الشديد العتيد الإسلامَ وأصبحوا من جنوده الكرام المخلصين[١]؟ تمّ ذلك مع كل الأعمال المستميتة والأساليب المقيتة لا سيما من بعض الرهبان والقسس الذين كانوا لا يفتأون يثيرون نار العداء، أمام ما حققه المسلمون من إنجازات فريدة، تراه فيما بقي ناجياً من أيدي الغدر والعداء والخيانة. فمنه ما بقي وما صَبَر وهو غير ما عَبَر. وكثرة منها فقدناه هنا ووجدناه هناك. وهو دليل على علو وروعة ومقام ما كان في أرض الآباء والأجداد والأبناء من روائع متفردة.

ومثلما كان الارتقاءُ أعجوبةً، حين الأخذ به، وحقيقةً مشهودة وثماراً مؤكدة، كان العكس صحيحاً؛ لأن هذا التقدم الفريد لم يأت بسبب مَوْجَة بشرية ذات أسباب خاضعة لشخص أو جنس أو ظروف طارئة قادته لذلك وأخذت بيده إليه ودفعت بسراياه نحوه.

ليس الأمر كذلك، إنما كان الأمر بناءً تامًّا، على منهج رباني أنزله الله تعالى لبني الإنسان، منذ كان وحيثما كان وإلى آخرِ الزمان. قانون لا يتغير ولا يتبدل، تَرَبّى عليه جند وأتباع وأبناء - وكلهم جند وأبناء وأتباع - وتغذوا على مائدته واقتدوا متلقين من الله شريعته ومؤتسين بنبيه الكريم المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، متابعين له في سيرته وناظرين إليه في حياته. فإن الأخذ بشرع الله وبتلك الصيغ والتربية والتلقي يقود لهذا كله دوماً، والبعد عنه يُورِث التخلف والتبعثر والتشرذم، وهي سنة الله سبحانه وتعالى، في خلقه أجمعين. والتاريخ شاهد على ذلك في الأندلس وغيره، وحتى اليوم. ولا يغير من حقائقه

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي، ١٦٢ وبعدها. كذلك: أعلاه، ٢٠.

أي كلام ولا يحجب صورته كل ادعاء ولا يُخفي صوتَه طبلٌ ولا زمر. وإن أمكن أن تُؤَخَّر بعضُ الحقائق فلا بد أن تظهر، ومن حيث لا تدري بمن يؤول إليه منهم ويَستَدْرِك فيُدْرِك، وإلاَّ فالرجاء " أن يُخرج الله مِن أصلابهم مَن يعبد الله وحدَه لا يُشْرِك به شيئاً "[1].

ذلك وعد الله وتلك سنته وهي إرادته الغالبة " قاعدة وسنة لا فلتة ولا مصادفة، قاعدة وسنة أنه حيثما انطلقت العُصْبة المسلمة في الأرض لتقرير أُلوهية الله وحده، وإقامة منهج الله وحده، ثم وقف منها عدو لها موقفَ المُشاقَّة لله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، كان التثبيت والنصر للعُصبة المسلمة، وكان الرُّعب والهزيمة للذين يُشَاقُّون الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، ما استقامت العُصْبة المسلمة على الطريق، واطمأنت إلى ربها وتوكلت عليه وحدَه، وهي تقطع الطريق "[2].

***

ومعلوم أن الأندلس مرت بعهود متعددة، فبعد التكشف والتوقف والإعداد كان الفتح الذي تكمن في خُطته استمرار فتح أوربا الغربية كلها واختراق وديانها وجبالها للوصول منها إلى القُسْطَنْطِينِيَّة وفتحها!![3].

* ثم كان عهد الولاة الذي أخذ باتجاه استتمام الخُطة واستلحام المتابعة واستلهام أهدافها، امتدت فيه الفُتوحات إلى جَنوبي فرنسا حتى اقتربت من باريس[4]. وكانت الأندلس فيه تابعة للخلافة الإسلامية في دمشق.

* ثم كان عهد الإمارة التي غدت الأندلس فيه مستقلة عن الخلافة العباسية.

---

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٧، رقم ٣٠٥٩ .

(٢) في ظلال القرآن، ٣/١٤٨٦ .

(٣) التاريخ الأندلسي، ١١٣ وبعدها.

(٤) التاريخ الأندلسي، ١٩٣ ـ ١٩٥.

* تلاه عهد الخلافة .

* حتى كان عهد الطوائف في الأندلس، التي عَرَفت فيه التجزئةَ والتمزق والتشتت، الذي لم تكن يده خفية في دفع الأندلس إلى نهايته وذَهابه، ولو بعد قرون، إلا أن يتداركها الله تعالى، ولكن لله سبحانه سنن لا تحيد أبداً.

وفي عهد الطوائف هذا - وفي غيره من العهود - استجمع المسلمون في الأندلس هويتهم، وبجهود العلماء وفضلهم وبذلهم، وهم هذا موقعهم ودورهم في الحياة الإسلامية، بجانب جهود العديد من الأمراء[1]. وعَرَفت الأندلس فيه الحاجة الماسة إلى عون إخْوة العُدوة المغربية وجهادهم معهم في صدّ العاديات الصليبية عن الأندلس. العون الذي لم ينقطع حتى بدون المسئولية الإدارية. إذ هي مسئولية إيمانية، دعت أولئك الإخوة إلى الجهاد فيه ولحمايته حتى بعد قيام مملكة غَرناطة، وطوال عمرها، ما كان ذلك ممكناً. ولما ضَعُفَ هذا العَوْن وتزايد الخطر واشتد الموج عليها من قِبَل عدوها وعليها، تسارع التساقط حتى كان سقوط مملكة غَرْناطة. وكان ما كان من أمرها، ومن أمر الأندلس كلها بعد ذلك.

وهكذا مرت الأندلس - بعد دخولها دين الله - بعهود متعددة، تمتعت فيها بالفضل والخير والحضارة، بمقدار الالتزام. ولكن في العموم - وفي أحلك الظروف - لم يغب ذلك الخير عنها، بل كان يتجدد بفضل رُعاتها وأولهم العلماء الأوفياء.

وأمواج أفواج من هؤلاء العلماء وجماهيرهم، هم من أهلها وممن اعتنق الإسلام منهم - وهم الأكثرية الغالبة - أسلموا خلال العصور، وكانوا من جندها المخلصين، جاهدوا لها وحموها، وتعاونت كل الفئات فيه ولأجله، لصيانة ذلك البلد المسلم، بلد الجهاد والحضارة والنضارة والخير العميم. عمل الناس على حمايتها، ولكن خير الحماة والقادة والرُّعاة والولاة هم العلماء، فهم شيوخ المجتمع ومشيخته. وكل منهم عمل كذلك، من المشيخة إلى

---

(١) التاريخ الأندلسي، ٣٤٥ .

التلمذة ومن التلمذة إلى المشيخة، في كل العصور. فهم أهل الرِّواية والدِّراية والهداية، في فقههم وبذلهم وحمايتهم. بل ذهبوا إلى أَبْعَد من ذلك، فكم من المعارك الحربية كان العلماء فيها في المقدمة ومن أوائل الشهداء، ذهبوا إليها وهم يطلبونها ويَعْشَقونها ولأجلها خرجوا[1].

ولقد تنورت الأندلس بهذا الدين وارتفعت مناراتها واعتلت مصابيحها، وأخرجت أعلاماً في كل ميدان وعلماءَ في كل علم وشيوخاً في كل معرفة، ملأُوا الحياة بكثرة كاثرة وعجيبة بارة نادرة في كل عصورها التي مرت بها - وإن تفاوتت - مهما تنوعت ومهما ادلهمت. احتملوا الأعباء، وكانوا دوماً في المقدمة، بل كنتَ تجدهم -خلال الشدائد أكثر. يتقدمون قبل غيرهم، ومن غير أن يُطلب إليهم. وهذا هو شأنهم وذاك ديدنهم، وهم عند مسئولياتهم التي فهموها من هذا الدين، وهم شيوخه والقدوة فيه والقادة لمجتمعه. وهذا هو نوع البناء الإسلامي. فإذا كان لكل أحد مسئوليته - نساءً ورجالاً، شيوخاً وجنوداً، علماء وأمراء - فمسئولية العلماء والأعلام والقادة والأنجاد أكثر، وبوضوح تام وكامل، من خلال المواقف والوقائع والمواقع.

وظاهرة الأعلام في المجتمع المسلم - بناءً وعطاءً وكثرة - جديرة أن يستقل بها بحث رصين ودراسة أمينة وعمل جاد، فهي من الظواهر التي ينفرد بها المجتمع المسلم وتتميز بها الحضارة الإسلامية، حتى ولو من بعض الوجوه ومهما كانت نتائجه.

وعلى ذلك فلا عجب أن تمر بالمجتمع المسلم - والأندلسي كذلك - أوقات ضعف وتخلف وتشرد، حين يضعف التزام المجتمع بهذا المنهج الكريم. ولكن مع ذلك فإن آثار بناء هذا المنهج لا تزول بسرعة، يبقى يمد الأمة ويحثها على العودة ويغريها به ويقودها إليه، فتتجاوب معه وتلتف حوله وتحمل راياته من جديد، ويهيئ الله من يتولى ذلك من بينهم.

(١) التاريخ الأندلسي، ٤٠٧، ٤٢٥، ٤٩٤.

ففي أوقات ضعف الولاء والقعود عن الأداء وتَلَبُّس الارتخاء، استمر المجتمع الإسلامي - وكذلك الأندلسي - بالعطاء، ثمرة لبنائه ذاك وأثراً لقوته تلك. وفي الوقت الذي تُشغله وتُثقله أهواؤه وتُدَس أرداؤه، كانت تَهب نسائمُه فتَقْوى دعائمُه، حتى لم تلبث أن تتوفر هذه البراعم تُزْهِر في يوم بلغ الحال فيه أن يقول أحد شعراء الأندلس أيام الطوائف واصفاً تلك الأوضاع بقوله:

وتَفَرَّقوا شِيَعاً فكُلُّ مَحلَّةٍ   فيها أميرُ المؤمنين ومنبرُ

فكانت تلك الأيام شذوذاً، تلك الأيام التي استمرت لبِضْعَة عقود قاربت التسعة، بلغ الحال فيها وضعاً شاذًّا من التفرق والتّمزق والتحارب بين حكام صغار، هَمُّ أحدهم كُرْسِيُّه ولو أعطى للعدو ما يريد، مما تولاه من أرض وشعب. يتنازل عن الأرض ويدفع الأموال ويضحي بالناس ويسترخص بناء مجتمعهم، وإن ادّعى غير ذلك من شعارات أو لاكَ من العبارات تَمُتُّ ظاهراً إلى الدين، بل وباسمه يتجر، وما هو بمزدجِر. فهل ترى لذلك مثيلاً؟

وفي مثل هذه الأوقات، التي شُغل خلالها الحكّام ومن معهم بتفاهاتهم ومصلحتهم وتعلقهم بالزّعامات التي شَغَلوا لها مَن معهم وشَغَلوا أُمتَهم وأعطوا للعدو مَرامَه منهم ومن مجتمعهم. مع أن هذا العدو كان لا يرضى ولا يكتفي بغلبة سياسية عليهم، فذلك قليل مما يريد، وإن كان له مفتاحاً. فهو يريد استباحة الأمة، وخنق كل نَفْس تتنفس بالدين وتعمل له، ويقضي على كل مُتَنَفَّس يبعث الأنسام في النفس، فيخنقه ليقضي عليه ويبقوا بعد ذلك بدونه، يعطيهم ويمنيهم من أجله ممثّلين في قادة صح الوصف فيهم: [أَسَدٌ عَلَيَّ وفي الحُرُوب نَعَامَةٌ] يخدمونه ويخضعون له ويُخَدّمون أنفسهم لرغباته، بل ويُذلِّون شعوبهم، لو استطاعوا أن يفعلوه.

وهكذا مرت بالعالم الإسلامي خلال تاريخه، وكذلك في الأندلس - في مواقع منه وأوقات - مثل هذه الأحوال. ولدينا في الأندلس أمثلة، أوضحها: عصر الطوائف. وتَوَفَّر

ذلك وتكرر منها مثيل ولها شبيه، ما سبق قيام مملكة غَرْناطة ورافق نهايتها وقليل خلالها.

ولكن في مثل هذه الأوقات كان الناس يَؤُولون إلى الدين ويستخرجون صحفه وصوره ومعانيه، يندفع لذلك موكبُهم يحمل العلماءُ راياتِه، فتظهر حتى في الأيام الحوالك الراياتُ البيض بضيائها وأنوارها متلألئة بأي مقدار، تُقَدِّم الصيغَ التي ما تزال تحمل القوة والحقيقة والخير، تُلَمْلِم ما أمكن في نفسها من معاني الإسلام.

وكانت مملكة غَرْناطة تقارع وتصارع - خلال أيامها - بكثير من مجتمعها بقيادة أعلامها مرات كثيرة أو كلّ مرّة، وبمرات متعددة من حكامها تلتقي مع الموكب الجماهيري المؤمن. ومَرَّتْ بمملكة غَرْناطة أوقاتٌ عصيبة لكنها استمرت تقارع الأعداء وتبنى الحياة وتجتهد في تنقية مواطن السوء، لكن الظروف تكاثفت وتكاثرت وتلاقت عليها فأزهقت روحها فذهبت مملكتها - سلطةً وحكاماً - وبقي شعبها يواجه صعاباً، ما كان يَرِد على بال أحد أنّه كائن، واستمر على ذلك قروناً وأنفاسه تتردد. وهذا الموضوع يحتاج إلى كثير من الجهد المتعاون الذي تلتقي عليه الطاقات المتعددة للخروج بحقائقه ووثائقه وسير حوادثه، بفهم ثاقب ونظرة صافية ورؤية منصفة. وفي مملكة غرناطة وما تلاها عِبَرٌ كثيرة. وحين تناول التاريخ الأندلسي، في أي موقع منه وقضية، أشعر كأني أحكّ حائطا لأزيل ما به من أصباغ، لعلي أجد تحتها حقائق مختفية محجوبة منهوبة، تلقي الضوء الكاشف الذي يجلي الأمور التي أراها من بعيد خيالا أو من خلف الستار ظلا أو وراء الغيم سرا أو أمرا مهما. كلما أقدم عليه لا تقوى أحيانا سلالمه ولا تحتمل الوقوف عليها والصعود إليها، فترتد خاوية أو راغمة وليست خاوية. فأبقى أشمها من بعيد أو أتملاها ناظرا إليها من وراء غيمات مجتمعة أو مشتتة، وإلا فاذهب معها بحال جموح يجنح إلى الفتوح. وغير قليل من هذا يواجه البحثُ مملكة غرناطة، لا سيما أواخرها وما تلاها، لعقود بل لقرون حالكة شديدة السواد، سوّدت هي بدورها طرق البحث ودروبه.

ولقد كان الوضع شديداً أيام مملكة غَرْناطة التي كاد عمرها أن يطول، أكثر مما استقر عليه، ليبلغ أقل قليلاً من ثلاثة قرون. بل وفي أحلك الظروف التي تشهدها، لا سيما في أحوال أيام مملكة غرناطة الأخيرة. وبعد السقوط كيف وقف المجتمع الإسلامي في الأندلس - مع كل ذلك - يقاوم ويورِّث قِيَمَه ويسجل ويدلل. وحتى حين زوال المجتمع المسلم، بعد سلطته السياسية، فقد هبت آثاره.

ورغم تعمد اقتلاع آثارها وتدمير ثمارها وقتل أزهارها، بشراهة وشراسة متقنة فقد تفلّت الكثير. وما تركته الحضارة الإسلامية في الأندلس - وفي غيرها - كانت هي الأساس الكامل الشامل لكلّ ما في الحضارة الحديثة من خير، آثرت الإهمال - ولمقوماتها ومبناها ومعناها - فأُصيبت بمقداره بالمتاعب، رغم توفر أسباب المعاش الهنيء، ومهددة بسببه بالزوال غير بعيد. وتلك سنة جارية من سنن الله تعالى في كونه، مشهودة في الأمم السابقة.

إذاً فأيّة جريمة شنعاء ارتكبتها هذه القوى الباغية حين حاربت الإسلام وصدته عن شعوبها - منذ أيام بَلاط الشهداء، إن لم يكن قبلها - برمي ثِقْلها إليهم دون جنده ورميها بعيداً لِرِفْده وصدها لِمَدّه، ثمّ وقفت تقاوم انتقاله إليهم بنفسه، ثم لاحقت أهله في ديارهم لتقتلهم، وحتى اليوم نشهد بعض فصول الحقد الصليبي من استعمال الأساليب والأسلحة كافة. وأخيراً وليس آخراً ما جرى في البوسنة وكوسوفو وهذه الشيشان وكذلك أخيَراً وليس بآخر فلسطين والسودان والعراق من فتك وهتك واستعمال الأسلحة الكيماوية وأساليبهم، لكن خابوا، مهما فعلوا. فلن يُبطلوا أو يلغوا مَقْدَمهم أو يمنعوا وإن أَخَّروا. ولعل هذا التأخير لصالحه لِيَقْوى عودُه ويشتدَّ جنودُه وتعلو بنودُه.

وهذا البحث الذي يعالج قضية في إهاب أيام غَرْناطة، تَطْرُق أبوابَ دِراسَةِ هذه القضايا والموضوعات المهمة، تفتح دروباً لسلوكها ومواقع لتيسير سبل البحث عنها. تَعْرِف حقائقَه وتنظر مدارجَه وتعتبر أحداثَه، لِتَنْزِع الهالة الشّوهاء والمزاعم البَلْهاء عن كل هؤلاء، ويَعْرِف

أولئك الخَيِّرين الذين ظُلموا كيف صبروا واحتملوا هذا الاحتمال - بهذا البناء - حماية وولاية. فيلتفت الناس إليه ويعتبرون حقيقتهم ويسود منهجهم، ويكونون قد خدموا الحق وحققوا نصره، رغم قهرهم وقبرهم، ولو بعد طول الزمان. ويعاد النظر فيُدان الظالم ويُنْصَف المظلوم ويُحاكم الحاكم، ولو بعد حين. فيُجَرَّم ويُحْرَم، حتى يكون ذلك عبرة، فلا يتكرر في الإنسان مثله في قابل أعوامه، حين يُنْشَر الزهر وينثر بذره ويفوح عِطْره: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1]. وليس الإسلامُ والقيام به وإقامة مجتمعه حَكْراً على قوم أو بلد أو جيل، هو لهم إِرْث أو عليهم وَقْف أو معهم عُرْف، بل هو مَن يقوم به ويتولاه ويُقبل عليه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[2].

ولا بد من أخذ العِبَر من خلال التاريخ كله واستقراء أحداثه والنظر في ماجرياته (مُجرياته)، ولا يُغنيه عن ذلك قوته وماديته. وهو قانون عام يجري في سالف الأيام وفي حاضرها ومستقبلها، ولا تُغَيِّر من ذلك عصرياتُ الحياة وتقنياتُها وفضائياتُها، لأنّه قانون ثابت لا بد أن يُنْظر فيه ويُعْتَبر. وقد بيّنه الله تعالى في القرآن الكريم من ضمن ما بيَّن من عرض قضايا التاريخ وقوانينه التي تحكمه وتُسَيِّره، وهو سنة الله في أرضه. وعلى هذا النهج يجب أن يُدرس التاريخ ويُقَدَّم ويُؤخذ به. وهو موضوع بحاجة إلى مؤلَّف مستقل، لا يستعرض الأحداث فحسب، بل يدرسها بمقوماتها وأسسها ومسوقاتها ومُسَوِّغاتها، تَرِد أحداثُها شواهدَ عليها، وهو موضوع مهم جداً. فيقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز والتنزيل الحكيم والوحي الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِم وَمَاكَانَ لَهُمْ

---

(١) سورة الأنبياء، ١٠٥.

(٢) سورة محمد، ٣٨.

مِّنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾[١].

وإن إقامة المجتمع المسلم والحفاظ عليه وحمايته بحاجة إلى بناء رصين لمجتمعه أصيل في فهمه متقدم في بذله، يعي أموره ويفهم عصره ويتولى أمره، حريص على تجديد معانيه ومُبادِر للأخذ بمراميه، مُلتف حول قادته المخلصين الذين يُقتدى بهم في أداء المسئولية الإسلامية، وفي الوقت نفسه يُقَوِّمُهم ويُسَدِّدُهم ويُقَدِّم النصيحة لهم، وقليل ما هم، بل أين هم؟

ولذلك كان العلماء هم الحصن الحصين والبناء الرصين والموئل الأمين لهذه الأمة. ويلتحق بهم مَن كان كذلك من الأمراء، وهو موفور في المجتمع الإسلامي خلال تاريخه وفي الأندلس خلال عهوده وفي كل المواقع الإسلامية خلال أحداثه. ولذلك من هنا رأينا مكانة العلماء في المجتمع المسلم الذين أدوا دورهم في رعايته وحمايته وقيادته، في كل الأحوال والعصور مهما اشتدت الأحداث وادلهمت الأجواء واسودت الأنواء. ومن هنا فإنّ النظر إليهم بهذه المكانة والاعتبار والمنظار يجعل مسئوليتَهم أكبرَ وموقعَهم أشهرَ وهروعَهم لواجبهم أنضرَ وأظهرَ. فما قد يكون مسموحاً لغيرهم قد يكون مطلوباً منهم أو مفروضاً عليهم. وهم قد عَرَفوا ذلك وارتضوه وقَبِلُوه، بل أحبوه. وعرفت الأمة ذلك فيهم فوَثقت بهم واقتدت بفعلهم وامتطت سفائنهم، بل قد خضع لهم الكثير من الأمراء رغبةً أو رهبة[٢]. وهكذا كانوا في كل الميادين والمواقع والأجيال في التاريخ الإسلامي والأندلسي، بكل وضوح. ولم تَخْلُ قضية في المجتمع المسلم، إلاّ وهم فيها قائمون، وعليها ولغيرها متابعون، ولها على عواتقهم آخذون. ولعلّ هذا كان من العوامل المهمّة في الحفاظ على

---

(١) سورة غافر، ٢١ .

انظر كذلك آيات كريمة أخرى في هذا المعنى القرآني: سورة التوبة، الآية ٦٩، والقصص، ٧٨، والروم، ٩، وفاطر، ٤٣ - ٤٤، وغافر، ٨٢، ومحمد، ١٣ وغيرها.

(٢) انظر: نفح الطيب، المَقَّري، ٢/ ٧٧، ١٢٥ وبعدها. كذلك: التاريخ الأندلسي، ٣٣٩ .

المجتمع المسلم الذي هم حفظته ومناراته وسفاراته، رغم كل المؤامرات التي لم يخل منها زمان أو مكان أو إنسان، خلال التاريخ الإسلامي كله، وحتى اللحظة الحاضرة، مع أنّه أعزل. وعلى ذلك وبهذا الميزان وعلى هذا الاعتبار يكون النظر إليهم والمنتظر منهم والمعتبر في الحديث عنهم.

***

وعلى ذلك ممكن أن يُفهم أثر تخليهم عن هذه المسئولية أو تأخرهم عنها أو رحيلهم منها. وهو أمر لم يحدث أبداً في التاريخ الإسلامي وفي الأندلس كذلك، وإن اختلفت أحياناً اجتهاداتهم وبعض مواقفهم التي كان لكل منها أساس وفيها ميزان وقادها اعتبار، فما قد يُسمح لغيرهم هو غير مسموح لهم، كما أشير إليه قريباً.

وفي المُدْلَهِمَّات ما هاجر ولا هَجَر ولا رحل أحد من ميدانه، وإذاً فكانت على ذلك هجرة العلماء من الأندلس إلى خارجها ظاهرة شاذّة، أعني هجرتهم لدى سقوط غَرْناطة. ولكن مع ذلك لم يكن هذا شأن العلماء، وإذاً وحتى في أحلك الظروف والتي ليس لها مثيل في التاريخ الإسلامي إلاّ ما ندر وبأقلّ شَبَه، لا سيما بهذه الدرجة، كتلك التي تمت في الأندلس. وهي تجربة فريدة، من ناحية نوعيتها وقسوة أحداثها وتوفر هذه الظاهرة في ماجرياتها، ظاهرة هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غَرْناطة، ظروفها وآثارها. فهي ظاهرة شاذة في ظروف شاذة تجعلها أكثر شذوذاً. ولكن وإن هاجر العديد من العلماء والقادة والأنجاد إلاّ أنّهم لم يهاجِروا جميعاً، ومنهم من أصر على البقاء ـ وهو يستطيع الهجرة ـ إصراراً ثابتاً، مع معرفته بالمصير وهو الاستشهاد. ويتقدم في هذا البحث أمثلة ظاهرة بارة باهرة على ذلك، وهم بحاجة إلى بحث مستقل كما أشير إليه.

وهذا البحث تناولَ ظاهرةَ (هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غَرْناطة، ظروفها وآثارها)

وتولى متابعة أحداثها وأحوالها وقضاياها. وتتبع كلّ ما يتعلق بذلك وتدقيقه والتنقيب في المصادر والوثائق والمخطوطات والتنقير عنها وملاحقة ما هنالك من كتابات في هذا الشأن ودراسة ذلك كله والتوقف عندها وتدقيق محتوياتها، لاستخراج تصور أجود وثمار أدق وأحكام أحق. ولم تكن مجرّد سرد ورواية، بل اختبار وغور درايه، في تحليل الأمور وربطها وتعليلها لتكون دراسة تاريخية اجتماعية حضارية. وهي أيضاً دراسة نقدية علمية موضوعية، وهي كذلك تحليلية متأنية ومحايدة متروية وشمولية منصفة.

ففي هذا التوضيح والتمهيد اجتهدتُ وعملت لأُقَدِّم أفكاره ومضامينه ومعانيه، مُعَبِّراً عنه بوضوح ـ بعد الممارسة ـ حتى لو احتاج إلى تفصيل. لكنه مفهوم مُدْرَك، وبشكل أكثر لمن له اشتغال بقضايا الحياة والدراسات الإنسانية، لا سيما التاريخ الإسلامي بالذات، وعلى الخصوص التاريخ الأندلسي، بجانب أنّه لا يخلو من نوع من الدراسة المقارنة للقضايا الحياتية والحضارية والإنسانية، بتاريخها وأحداثها وحركتها المتتابعة المتداخلة المتلاحمة.

فكل تعبير فيه يحمل معنىً مقصوداً محدداً ومجنداً، وكل معنى يحمل فكرة متبلورة متحررة ومُخْتَبَرة، بلغت حدًّا من النضوج، ثمرة الممارسة والتجربة والمتابعة القائمة على الاهتمام الجاد والعناية المركزة والتحري الدقيق والخبرة المتأنية. وكل ذلك في إطار البناء العلمي الأصيل النبيل الذي حمل جمالات هذا التاريخ وأحماله وأعباءه، الذي حدد مساره وحركته وهدفه بصدق وأمانة وصيانة. وكله يدور في مضمون مقوماته الحياتية المبتنية على حقائق هذا الدين المستمدة منه حيويته وفعاليته بل وحياته، متأهلة الولاء في التزامها ممثلة الأداء، متخلفة عن ركبه في تهاونه نازلة عن خطه الكريم.

والأمل أن يتوسع الاهتمام بهذا الجانب ويكون هذا البحث مدخلاً لما بعده ومشجعاً للبحث عن مصادره وإعادة النظر في أحكامه وإخراج صورة كاملة شاملة متوازنة مستقلة متحررة متفتحة. كما أنّ الأمل يلوح قويًّا ـ إن شاء الله تعالى ـ في التوسع العلمي لهذا

الأسلوب العميق الغائر الدقيق في تناول الدراسات التاريخية وربطها بالعوامل الأُخرى، لا على أنّها أُمور منفصلة مبثوثة مبتوتة كأنها أجسام ميتة، بل حيّة متفاعلة متعانقة متأثرة ـ متبادلة التأثير والارتباط ـ يؤدي بعضها لبعض، جسماً متكاملاً متواصلاً، يسير بحركة واحدة متفحصاً دوافعه وارتباطاته وولاءآته مسبراً غوره.

فليست هي دراسة آلية جامدة هامدة، بل إنسانية حيّة متفاعلة، لا بد لها من دوافع قوية معتبرة حاضرة في تفسير سلوكه. هذه الدوافع التي أنشأها الإسلام بعقيدته وشريعته ومنهجه، وبه كان وقام وتحرّك. وبذلك يكون البحث أدنى إلى الحقيقة وأولى بالاهتمام وأجدر بالاحترام. وعند ذاك تمتلك حقًّا الأُسلوبَ العلمي والدراسة الموضوعية المنصفة والصِّيغة الحقيقية لماجريات الأحداث وواقعيتها ومصداقيتها. فيكون حقّاً علماً تاريخيًّا وتاريخاً علمياً، به يكون عِلْماً قائماً على أُسس كريمة سليمة وعميقة، وبه تكون الخدمة الحقّة لهذا التاريخ الفريد المجيد القديم الجديد، يمكن الانتفاع به والوفاء بمتطلباته، ونؤَسِس بذلك الاتجاه العلمي سَمْتاً واضحاً للدراسات الإنسانية والحضَارية والتاريخية، بقيمه الفاضلة.

ولو أمكن استخراج الصِّيَغ السُّنَنِيَّة والنواميس الحياتية والقوانين المجتمعية من خلال هذا التاريخ ـ لا سيما التاريخ الإسلامي، ومنه التاريخ الأندلسي ـ وهو ما يجب أن يكون، كما هو من مهمات دراسة التاريخ، وهذا التاريخ بالذات، لأمكن الاستعانة بها في حياتنا المستقبلية، والتعرف لما يجب تجنبه وما يلزم الأخذ به، للنهوض والتقدم والارتقاء.

كما يمكن ـ بأي مقدار ـ قراءة المستقبل، اهتداءً بهذا التاريخ واقتداءً بالخير الكثير فيه وبناءً على سنن الله تعالى التي لا تحول ولا تزول بل إليها تؤول، في بقاء الأمور على حالها سائرة على منوالها جارية في قنواتها ومساراتها المرئية. وكلما يمكن أن تتم معرفة أسباب النهوض واستيعاب مستلزماتها واستلهام موجباتها، آخذين بكل ما يؤدي إلى التقدم

والازدهار والانتصار، مستفيدين من مرآة (مرايا) تاريخنا الإسلامي، معتبرين عوامل القوّة والنهوض والانطلاق، لإنجاز الفتوحات البارعة المتنوعة المهام - كما أنجزوا حين أخذوا بهذا الدين - عارفين مقومات ذلك الذي يقود إليها ويجنب السقوط في المهاوي، ومقيمين مجتمعنا الأمين على أحسن الأسس، لاسيما في الحاضر الذي يَلْتَمِس المنقذ، فلا يجده، إلاّ في منهج هذا الدين وحده وسيرة جنده، لا سيما جيل الصحابة الكرام، الجيل القرآني الفريد الذي رباه الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم(١)، وهم كلهم الجند الأبرار الأخيار الأحرار وتحت رايته الخفاقة الوارفة العالية المقدار تلك التي لا يُلْحق أبداً لها غبار.

وهكذا نصل بهذا التوضيح والتمهيد إلى نهايته، حيث تمّ استعراض مضامين مهمّة جادة سَنِيَّة في مسيرة التاريخ الإسلامي، والأندلسي منه بالذات، في أحواله المتنوعة وتموجاته المُحْدَثة وَمَدِّه وَجَزْره. عرفنا بها طبيعة مكوناته وحقيقة بنائه ونوعية حركته وارتباطه، وأن ذلك كله كان حسب مقدار التزامه وانجذابه واعتذابه الإسلام، شدة وارتخاءً ومسئولية أهله فيه، لا سيما أعلامه وبالذات علماؤه وأمراؤه وأنجاده. ولكن يبقى دوماً العلماء في كل الظروف والأحوال والعصور، أَدَّوْا واجبهم بوضوح وشموخ وفتوح، وما هجروا الميدان. ومن هنا كانت هجرة العلماء من الأندلس ظاهرة غريبة. تمت دراسة ذلك كله في هذا البحث الذي بين يديك مجتهداً فيه وباذلاً الوقت لأجله ومُنْفِقاً الطّاقة الحقيقية لتحقيقه " هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غَرْناطة، ظروفها وآثارها".

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

بغداد المحروسة - العامرية المعمورة والمَضْيَفة المشهورة.

الخميس ٢٧ / ١٠ / ١٩٩٣م

---

(١) السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، ٥٠ - ٥١، ٧٩ - ٨٤، ٩١ - ١٠٨، ١١٣ - ١٣٢، ١٤١، ١٤٦، ١٥٠، ٢٠٤ - ٢٣٣.



تقديم وترقيم

بالإمكان أن يُعتبر هذا " التقديم والترقيم " مفتاحاً ومدخلاً مباشراً للموضوع: " هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غَرْناطة، ظروفها وآثارها " . كما أنه قاعدة عريضة تقوم عليها حقائق الأحداث ودواخل البناء، وترتبط بها ثمار الأجيال وجلائل الأعمال، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. وتَمُرُّ أمامها نِتاجات الأفهام وهمم ومواقف الأعلام ـ نوعاً وكمًّا ـ مسجلة مسطورة ومصورة منظورة. ذلك بما سطعت به وأغدقت عليه التزاماً، وما تأخرت عنه وتخلفت فيه ارتطاماً، ولكلٍّ سوابقُه وأسبابه ومنتهاه. تُقَدِّمه منادية واضحة مجربة، تدعوها إلى الرفعة على دربه والسير في ضوئه، كَرَّة وكرات. فهماً تراه وبذلاً تهواه وغَرساً تَحبه وترعاه، أمانةً وديانة والتزاماً وغراماً. تَعْشَقه وتتذوقه، تموت ولا تفارقه.

هذا ما أردتُه بالتقديم، ليُعلم ويُفهم؛ وبالترقيم، لوضع الأُمور في نصابها، وبكل ما يحتويه ويتسع له من إهابها، ولتقف الحقائق أمام بابها. فَسِرْ متأنياً واصبر متنوراً واعتبر متبيناً.

قاعدةٌ وأرضيّةٌ صُلْبَة

أتم الله تعالى على الأمة المسلمة ـ وعلى الإنسانية جمعاء ـ نعمته الكبرى، بجانب نعمه الكثيرة، التي لا تُعد ولا تُحصى، فأكمل لهم دينهم وارتضى لهم الإسلام ديناً. أُمّة تأخذ بشريعته وتطبق منهجه، مقتدية بالرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، الذي حمل شرع الله وجاهد في سبيله، مع صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين. مَثَّلُوه خيرَ تمثيل وحَمَلُوه بأمانة وأَدَّوْه بحب وإقدام وفداء، لا يمكن أن يكون له مزيد، بل ليس مثله ومقداره يكون إلاّ بهذا الدين.

بذلوا من أجله كل شيء واسترخصوا نفوسَهم، يتسابقون في تقديمها، وقد استقلوها. وإن كانت هي أعزّ ما يملكون ـ وهي عزيزة بهذا الدين ـ لكنهم رأوها قليلة في جنب الله، دليلاً على مقدار إيمانهم بهذه الدعوة المباركة وحبّهم لله تعالى ولرسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم. والحمد لله أن جعلنا منهم، ونرجوه أن يعيننا على القيام بواجبنا نحو هذه الرسالة المباركة: رسالة الله إلى أهل الأرض أجمعين. سعوا بكل ما لديهم لنشرها وإيصالها إلى كل أحد ـ شرقاً وغرباً ـ ما توفرت لهم الإمكانية وَوَسِعَهم ذلك، مشوا نحوه. ففتحوا بها النفوس وأقروها في القلوب، وبنوا بها الحياة، رائعة مشرقة غنية. ملأوا ميادينها بِرًّا عميقاً ونِتاجاً كريماً، وأقاموا عُمرانها حضارة بارّة وسعادة نَضِرَة.

رَوَوْا بها كل أرض وصلوها، بَلُّوا صداها وأخْضروا رَبعها ومرعاها، وأعلَوْا عمائرها ومبناها. فآوى الناسُ إليها واستظلّوا وارف أفيائها وتمتعوا بخيراتها، تنوعت ثمارُها وازدهرت مرابعُها وتكاثرت نِتاجاتها، في كل علم ومعرفة أصيلة، مؤهَّلة بإنسانية عالية. وسارت في هذا الركب وهي على الدرب المنير في الموكب الخَيِّر. وهي كذلك ما دامت ملتزمة بشرع الله، تَبني وتَشيد، مثلما تدفع وترد. وكلما كانت قوية في ذلك، سارت فيه أمينة عالية. لكن قوى الشّر تناوبت وتنادت وتداعت عليها فتجاوبت لإبادتها[1]، في فصول ملحمية شديدة الأسى، مأساتها مُرْعِبة، حتى نالها الضّعف وتهاوت مِن علِّها.

---

(١) أخرج الإمام أحمد وأبو داود حديث الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم ـ واللفظ لأبي داود ـ: " يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا " . فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: " بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ " فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: " حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ " .

عُلَماؤنا والتّجرِبة الأندلُسية

وفي الأندلس تجربة ذات وجوه متنوعة وجوانب مُوَسَّعة، للأحوال الكثيرة التي مرت بها مناطق العالم الإسلامي، ولكن نهايتها كانت غريبة جديدة فريدة لم تألفها من قبل وربما من بعد. ذلك لأن الأندلس لها ظروفها الشديدة الخاصة، وقعت أو أوقعتها تحت وطأتها وطَمَسَت قوتَها. فبجانب العوامل الداخلية المختلة المختلفة كانت العوامل الخارجية الأشد، حيث تجمعت أوربا كلها - متعاونة، في صليبية كالحة - أطبقت عليها فأَرْدَتْها. مع أنّ الأندلس لم تَخْلُ مِن راية الجهاد ويدٍ لم تفارق الزِّناد.

ولقد كانت الأندلس دوماً أرضَ جهاد مثلما كانت موطنَ حضارة وإرفاد.

لكن عند السقوط احتملت جرائم وجرائر محاكم التفتيش (INQUISICION,INQUISITION) أو دواوين التحقيق بل مواقد التحريق. زاد من حدتها وشَدَّ مِن وطأتها هجرةُ علماء الأندلس. ولم تَذْكُر - هذه الطُّغَمُ الصليبية - أيَّ فضل للإسلام وأهله على تلك الأرض، التي عاشت بسعادة وأنبتت من الخير بالإسلام ما لم تعرفه ولن تعرفه - ولا غيرها - بغير هذا الدين. وكأنها تحقد على الحق والخير والنعم، التي زُرِعت في تلك الديار. فهي لا تقتلعها فقط، بل تُبيد الغروس والغارسين، وكلّ مَن يرعاها. فعملت على إبادة الإسلام وأهله، بحقد أسود كريه وإصرار أعمى لئيم.

والأمر هنا يتعلق بهذه التجرِبة المأساوية التي شاهَدَتْها الأمةُ المسلمة وتجرعتها على أرض الأندلس، بدواهي محاكم التفتيش المُبيرة، التي استمرت قروناً سوداء، كانت طويلة وثقيلة.

ويجري التركيز هنا على موقف العلماء، منذ بدت بوادر ونُذُر سقوط آخر مَعْقِل أو موئل أو ملجأ للمسلمين في الأندلس، وذَهاب آخر دولة لهم. وهو سقوط مملكة غَرْناطة GRANADA سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م). حيث استدعى أو جر واستتبع هذا الأمرُ هجرةَ علماء الأندلس، مجموعة متقدمة منهم، وتفضيلهم النزوح عنها. فأخذوا بالرحيل متتابعين - في

أكثرهم وأشهرهم ـ مما زاد الظلم وشدد العَتَمة وأَكْثَرَ البلاءَ وعجل بالمصير وجرَّأَ العدوَّ على الاستهانة بالأهل والمِلَّة.

ولا يغير من هذا أو يخفف منه الفتاوى ـ التي أصدرها أحد العلماء خارج الأندلس ـ بوجوب رحيل أهل الأندلس عنها، بعد سقوط غَرْناطة. وآخرون حمّلوا أهل الأندلس الكثير من إدانة مَن لم يفعل ذلك منهم[١]. ولقد كانت تلك ذاتَ أثر فعال، لا سيما أشهرها: فتوى الفقيه أبي العباس أحمد بن يحيى الوَنْشَرَيسي[٢] " أو أحياناً الوَنْشَرَيشي " (٩١٤هـ = ١٥٠٨م) التِّلِمْساني أصلاً ومولداً ومنشأً، ونزيل فاس إقامةً وتدريساً ووفاة. وهو عالم المغرب وصاحب المؤلفات الكثيرة، وأشهرها " المِعيار المُعْرِب والجامع المُغْرِب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمَغْرِب " ـ في اثني عشر جزءاً ـ الذي أفتى فيه بتلك الهجرة المعكوسة برسالته "أسنى المتاجر في بيان أحكام مَن غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر"[٣]. وكان الأَوْلَى أن تكون الهجرة إليه لتقوية أهله، سواء هجرة البشر أو الإمكانيات المطلوبة أو القوى المسلحة.

ولم تتوفر معرفة عالم أندلسي أَفْتَى بمثل هذا الحكم، حتى أولئك الذين هجروا الأندلس أو هاجروا منها، في كل الأحوال والأوقات والظروف وهذا أقلّ الأقلّ، وإن كان غير مرغوب بل مدان ومعيوب. بل لدينا آخَر أو آخرون أفتوا بعدم الهجرة والبقاء في ساحةٍ، هي واحدة من سوح الجهاد. وسيرد شيء من التفصيل عن هذا الأمر[٤].

وللعلماء في التاريخ الإسلامي ـ مع المجتمع المسلم ـ دور الريادة والقيادة في رعايته

---

(١) انظر: الأنوار النبوية في آباء خير البرية، ابن عبد الرفيع.

(٢) عنه انظر: مقدمة تحقيق كتابه: المعيار، الجزء الأول. جذوة الاقتباس، ابن القاضي، ١/١٥٦. الأعلام، ١/٢٦٩.

(٣) المعيار المعرب، ٢/١١٩ وبعدها. انظر: صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ٥/١٢٩ ـ ١٩١.

(٤) انظر: أدناه، ٤٥ وبعدها.

وهدايته، وحفظ الأمة والوراثة الأمينة لهذه الدعوة المباركة. كانت مواقفهم ـ خلال الحياة الإسلامية، وفي الأندلس بالذات ـ معروفة. فكم ردوها إلى دينها وأنهضوا ضعيفها ورمموا قديمها وبعثوا فيها الهمّة، وأماطوا عن الأسباب، عالجوها وأَصْحَوْها وأَعْلَوْا مراتبَ الإيمان فيها وفَجَّروا ينابيعَ الحق في ذاتها، فانطلقت من جديد ترفع الرايات وتحقق الانتصارات(١).

ولكن الذي حدث في هذه التجرِبة ـ أيام غَرْناطة الأخيرة ـ كانت شذوذاً. اجتهاداً غير مسدد واختياراً غير مرجح، أتى بنتائج لم تكن تخطر على بال هؤلاء العلماء الذين هجروها، وكذلك الذين أفتوا بها سواء بسواء. ولعلهم لو أدركوا ذلك أو توقعوه لما فعلوه. وإن بقي منهم القليل، كان جهدهم وطاقتهم أقلّ بكثير من إمكانيات العدوّ وأساليبه بعد أن جردوهم، ليس فقط من سلاح القتال لكن حاصروهم لتجريدهم من سلاح الإيمان الذي دافعوا عنه واحتملوا من أجله محارق محاكم التفتيش وعَرامة طغيانها المتدلق. احتملوا كُلَّ ذلك لِمَا يزيد على ثلاثة قرون، أذابت ـ جيلاً إِثْرَ جيل ـ كُلَّ إِمكانية للوقوف صفًّا قويًّا. فلم يبقَ من الناس غير عواطف وآثار في حياتهم أو في تلك الأرض، ما زالت تشهد ـ رغم ما أصابها، من تفتيت وتبديد ـ على روعة هذا الدين وما قدمه أهلُه للحياة، بشكل بدا اليوم مُدْرَكاً مِن قِبَل خَلَفِ أولئك الطغاة، ظهر في بعض دراسات حَملت شيئاً من الإنصاف، وهو في توسع وازدياد.

وقد أمكن اليوم الاطلاع على ما يتعلق بهذا الموضوع من مخلفات محاكم التفتيش وقراءة سجلاتها المشحونة بالأباطيل المضللة القامعة، لفها الظلم وأحاط بها الافتئات. لكنها ـ مع ذلك كله ـ تبين شدةَ سواد تلك النفوس وقَتامة أولئك المتوحشين وأخلاقهم المتدنية المتبربرة، تُخْرجهم من دائرة الإنسانية، في حق أيادٍ مؤمنة بَنَت وسالمت وأحيت مَوات الأرض وأنارت درباً شديد الظلام، ماعَرف قبلها ولا بعدها نوراً. فاحتملت تلك المحاكم ـ

---

(١) التاريخ الأندلسي، ٣٣٦ وبعدها.

ومَن وراءها ـ جرائم وجرائر مَن تابعها في حق الأبرياء، داهمتهم يد مُنْكِرَة وعين غَشُوم. وهو دليل على أنّ الإنسان بدون هداية الحق ـ المتمثل في شريعة الإسلام، قرآناً وسُنَّة وسيرة ـ يَسقط إلى ما دون الحيوان، توحشاً وظلاماً وضراوة، في كل زمان ومكان، أي شكل أخذت وأيَّ زِيٍّ ارتدت وأي أدوات من العصر امتلكت.

ولنعد الآن إلى مواكبة المسيرة الأندلسية لنقف ـ عن قرب وشهود ـ على هذه الحالة التي رافقت سقوط مملكة غَرْناطة وما تبعها وتجرِبة العلماء إزاءها.

الفَتحُ الإسلَامي .. مَعَالِمُ خَيْرٍ ومَكارمُ بِرِ

سارت الفتوحات الإسلامية ـ عِبْرَ المناطق والبلدان ـ ترفع رايةَ الإسلام وتنشره بين الأنام. أمر لا يتم إلاّ ببيع النفس خالصاً لله تعالى، وبالارتقاء بها، بهذا الدين، في ميادين الحياة كافة، وفي مجتمعه الرباني المجيد.

الفَتحُ الإسلَاميَ للأندلُس حقَائب وأطَايب

وبذا وصل المسلمون الأندلسَ، فاتحين ناشرين دين الله الحق، سنة ٩٢هـ (٧١١م). وسرعان ما فُتحت الجزيرة الأندلسية، خلال أربع سنوات، وأَخَذ أهلُها ـ وأغلبهم نصارى ـ يدخلون في دين الله أفواجاً، كلما فهموه ورأوا مُثُلَه في حامليه، من خلال التعامل الكريم والخلق الرفيع، مرتقين إلى أعلاها وأنقاها، مترفعين عن سفاسف الأمور ودناياها.

وكان المجتمع المسلم في الأندلس ثمرة لذلك، في كل اتجاه كريم، خلال القرون الثمانية، عَرفت فيها تلك الأرض خيره، وقد طابت بالإسلام وحده وحسبها، فأثمرت وأينعت أبرك الثمار وأفضل نِتاج وأروع حياة وأعطر زهرات. كانت بعضُ مآثرها وجوانبها، التي وصلت ـ عِبْر الأندلس ـ إلى أوربا، فأقامت حضارتها، علامة على روعة هذا الدين وفضله، حتى لمن لم يدخله، خارج مجتمعه وداخله. حيث تمتع هؤلاء بالحرية والتسامح، وحصلوا على ما فيه من خير وبِر وعلم ـ وكله كذلك ـ ولكل مَن استظل أروقته أو امتدت إليه يَدُه الدافئة الرؤوم. فاحتقبت أوربا من علوم المسلمين وحملت من جهودهم ونقلت من مؤلفاتهم، ما كان أساساً وحيداً فريداً لكل تقنياتها ومبتدعاتها ومآثرها، لابديل لها غيره.

بين الانتصار والانحسار

مرت الأندلس - خلال حياتها الإسلامية - بألوان من الظروف وتنوع من النِّتاج وأطوار من المواجهات وأشكال من الالتزام، عَرَفت فيه مرارة الضعف والتخلف عن الالتزام، وعن الأخذ بمنهج الإسلام، والانحراف عن خطه الأخلاقي الكريم، الذي كان مددَها دواما.

وانتهى الأمر - لأسباب داخلية وخارجية - إلى الانهيار. وتكاد تنفرد الأندلس ببعض هذه الأسباب والنتائج، التي قادت إلى ذَهاب دول الإسلام وزوال سلطته سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م).

لكن لم تكن تلك نهاية النهاية، بل التقت نهايات ببدايات. وقد انفردت الأندلس ببعض ظروف قادت لسقوطها، بل انفردت تماماً بشكل متسع وحزين لِمَا لقيته، في إنسانها وعُمرانها وحضارتها ونضارتها، مكافأة غير كريمة، عاقة ومتوحشة، على ما قدمته من إنجازات وحققته من مُثُل وأرسته من أعراف، لا يمكن أن تتوفر إلاَّ بهذا الدين. فوفرته لكل أحد، حيث سعت الكنيسة - بسلطانها - للقضاء على كل ذلك، ما دام إسلاميًّا ويتصل بالإسلام.

قيَادةُ العُلَماءِ وشُهُودُهم

ومن ظواهر الحياة الإسلامية المألوفة الطبيعية الأصيلة، موقف العلماء في قيادة المجتمع الإسلامي وحمايته. وكانت هذه الظاهرة الفاضلة الكريمة المضيئة - في الأندلس - بداية هادية. ولعله أكثر ظهوراً، أيام الملمات والشدائد، يخوضون المعارك ويقودون المعامع، يتقدمون ويبذلون، تقوىً لله تعالى وقربى، والأمثلةُ على ذلك هادية وفيرة وجديرة.

والعلماء، بادئ ذي بَدء، هم علماء الشريعة - بكل مستوياتهم وتخصصاتهم وإسهاماتهم - الذين رعوها، في حفظ أُمتها وأُمتهم، وخافوا الله في حياتهم، وبذلوا

اجتهادهم وجهدهم وجهادهم، طلباً لرضا الله سبحانه وتعالى. فهم أكثرُ الناس مسئوليةً وأوّلهم واجباً وأسبقُهم استجابة. ولكن المسئولية ـ لكل أحد من المسلمين ـ بقدر علمه وطاقته وإمكانياته «كُلُّكُم رَاعٍ وكُلُّكُم مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه»[1].

لكن عند ظهور علامات السقوط الأخير ـ في الأندلس العزيز ـ الذي توقّعه العديد، منذ بضعة عقود أو قرون قبله ـ مُبَكِّراً ومُذَكِّراً ـ جدت ظاهرة أخرى مهمة، لها أثرها، مثلما لها أسبابها[2]. هو أن العديد من العلماء الأعلام هاجروا من الأندلس ـ قبيل السقوط وحوله ـ حين لاحت في الأفق بوادرُه، وبعده حين حلت على أرضه خيلُه ورَجِلُه.

ويقدر عدد مَن هاجر منهم بالعشرات، بعضهم ترك أعمالاً مكتوبة [خارج حياته الأندلسية]، كانت مصدراً مهمًّا وأصيلاً، وبعضهم قاد جهاداً مشهوداً، كان واضحاً ومستميتاً، قياماً بواجبهم نحو إخوتهم الذين بقوا ـ في مقرّهم الأندلسي ـ لأي سبب، في أرض الإسلام.

ولكن قيادةَ مثل هذا الجهاد ـ خارج الأندلس، وربما بدون تنسيق ـ يجعله قليل الأثر ضعيف التأثير خفيف الوزن، بعد أن تركوا ما هو أوجب ـ في داخل الأندلس ـ ومع أهلها.

وهذه التجربة ـ العمل من الخارج ـ مختلفة عن أختها أيام الطوائف، في القرن الخامس الهجري، التي كانت للعلماء مجاهدتهم وجهادهم ومواجهتهم ـ في الأندلس ذاتها ـ مع حكامها ومعايشتهم مع أهلها، لبنائهم وردهم إلى الحق والارتقاء بهم، حتى أصبح ذلك تياراً قويًّا متدفقاً ومنطلقاً، امتد ـ بطبيعته وأصالته ونظرته ـ لاستدعاء المرابطين إخْوَة العُدْوة في المغرب، لنصرتهم ومعاونتهم في رد الخطر وطيه وتبديده، مما أطال عمر الأندلس قروناً،

---

(١) حديث شريف رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب (١٠) الجمعة في أوّل صحيحه، ٢/٦ القرى والمدن، رقم: ٨٥٣.

(٢) التاريخ الأندلسي، ٣٩٩.

على رأي بعض مؤرخينا[١].

ولقد جرى إحصاءُ أسماء ثلاثة عشر من هؤلاء العلماء الذين هاجروا - من الأندلس، تفْضيلاً، بعد سقوط غَرْناطة - وقاموا بجهاد مأثور، أو تقدموا بنتاج أَرَّخوا فيه الأحداث، كان واحدهم فيها شاهدَ عِيان.

ويمكن تقدير عدد المسلمين في الأندلس - بعد سقوط غَرْناطة - بما يزيد على ستة ملايين، أكثرهم كانوا متركزين في مملكة غرناطة ذاتها، ومتناثرين في أنحاء أخرى من مدن الأندلس وقراها ومعاقلها.

كيف إذاً يمكن ترك هؤلاء - مِن قِبَل العلماء - لُقْمةً سائغة للأعداء. ولكن بعض هؤلاء العلماء قد بَقِي وأبى الهجرة إلى الخارج واحتملوا واجبهم وتحملوا تكاليفه وأحسنوا الأداء.

كما أن هذه الأوضاع لا تَعْدِم أن تُقَدِّم قيادات جديدة، لكنها - وإن كانت سديدة - فلا يمكن أن تستغني عن خبرة وأثر وجهد أولئك الذين هاجروها أو هجروها. وإن كان بقاؤهم لازماً وضروريًّا ومُغَيِّراً لمجرى الأحداث ومسار الوقائع وضَعف المواجَهة المواجِهة لأمتنا.

العُلَماء كَهْفٌ للأَبناء وَهدَفٌ للأَعداءِ

وإذا كان بعض الهجرات قد تمّ حول السقوط، فكأنّه كان للبعض سُنّةً سابقة أو تجرِبة ممارَسَة - مهما كانت ضيقة - استمرت حتى بعده بقرون أو يزيد. لكن فيما سبق كان مَن هاجر وسلك هذا الطريق وأسس هذا الاتجاه قلة قليلة، ربما ليس عامتهم من أقوى العلماء ولا أرقاهم ولا أعلاهم، بجانب قلتهم القليلة لم يكن له أثر، لوجود مَن يقوم مقامَهم وأكثر، ومِن غير أن يؤثر. ومع ذلك فقد انغمر أولئك المهاجرون - في كثرة منهم - وانزووا

(١) التاريخ الأندلسي، ٤٠٩.

واختفوا، زد على ذلك أنّ مَن هاجر أو رحل كان عدداً قليلاً جداً، في وقت كانت الأندلس مملوءة بالعلماء الأعلام وسلطتُه قائمة حامية. علماً أنّ هجرتهم ما كانت بالضروري فراراً أو هروباً بل اختياراً، ولم تكن درباً ولا حلاً ولا أملاً. ومن هنا اختلف الوضع والأثر والثمر.

ولكن من ناحية أخرى، فإنّ هذه الهجرة ـ التي رافقت سقوط غَرْناطة، آخر مَعْقِل أو مَوْئِل أو مَحْضَن للمسلمين في الأندلس ـ قد أُجبر بعضُهم عليها فيما بعد، في كل طَرْد (إخراج) تفرضه السلطات الإسبانية ـ رسمية وكَنَسيّة ـ حتى كان الطرد الأخير أو الكبير سنة ١٠١٨هـ (١٦٠٩م)، الذي شَمِلَ العلماءَ وغيرهم. وإن كان في الحقيقة ليس الأخير الأخير، إلاّ أن يكون الأخير الكثير الكبير الذي اتُّخِذَ فيه قرار رسمي بشمول واهتمام وإجلاء. ولم تكن هذه الأطراد (الإخراجات) حظ الناجين منها بأسلم من حظ الذاهبين بها، كما أنّه لم يكن حال المطرودين فيها بأحسن من الذين تخلفوا عنها وصُدوا وأُبقوا.

لا تَعْجَبَنْ مِن هالكٍ كيف هَوى ... بل فاعجبنْ مِن سالمٍ كيف نجا[1]

والذي بقي ـ اختياراً أو قهراً ـ لقي مع المسلمين الموركسيين كُلَّ ألوان العذاب. جَرَت على أهلها تحت سطوة محاكم التفتيش الغاشمة الظالمة الجاثمة، التي كان القتل، حرقاً وجماعيًّا وعلنيًّا في احتفال ديني إيماني كبير منتصر!!! مألوفاً، ولكل مَن يُشَكّ فيه أنّه ما يزال على الإسلام، بممارسته أيَّ شيء من مناسكه وأخلاقياته وأعرافه. ومنهم (العلماء)

---

(١) من مقصورة ابن دُرَيْد (أبو بكر محمد بن الحسن، ٣٢١هـ). وهناك بيتان آخران (لغيره، كل منهما لشاعر)، ممكن الاستشهاد بهما في هذا المعنى نفسه أو قريب منه:

يقول أبو الطَّيِّب المتنبي (أحمد بن الحسين، ٣٥٤هـ):

فإن أَسْلَمْ فما أبقى ولكن ... سَلِمْتُ مِن الحِمام إلى الحِمامِ.

ويقول الصحابي الشاعر، الأسود بن سريع:

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ مِن ذي عظيمةٍ ... وإلاّ فإنّي لا إخالُك ناجياً

مَن اختار البقاء وصمم عليه، رعايةً للمسلمين وتوريثاً للدينِ الحق وتثبيتاً لأعلامه من جيل إلى جيل.

ويُقصد بالموركسيين (كلمة إسبانية: LOS MORISCOS) المسلمون الذين بقوا في الأندلس، تحت السلطة النصرانية بعد سقوط غَرْناطة، واحتملوا مخارق ومآزق ومحارق محاكم التفتيش الإسبانية التي صُبَّت عليهم طوال ثلاثة قرون ونصف أو يزيد[١].

وحين بدت بوارق السقوط أو مآزقه أو مؤشراته، ظهر للعديد من العلماء أنّ الرحيل - عندهم لأيّ سبب - أفضل. إذ لم تعد هنالك فائدة من البقاء أو المواجهة أو الوقوف أمام قُوى الفتك والهتك والتنكيل، طابَع القوى النصرانية الصليبية في إسبانيا (والبرتغال)، التي واجهت مملكة غرناطة الصغيرة، بمدّها الصليبي الذي ساندته أوربا وبابويتها، بإمكانيات لا تستطيع المجموعة الإسلامية الوقوف بها أمام ذلك الاكتساح الهائج الذي ينوي الشر ويغدر ويدمر. فما هي إلاّ سنوات وتقع غَرْناطة تحت وطأة تلك القوى المتجبرة المتبربرة.

الأُمَّةُ تَتقَوَى بعُلَمائها

وهجرة هؤلاء العلماء، مثلما مهدت الطريق لهجرة الآخرين إلى المغرب والشَّمال الإفريقي عموماً وبقية العالم الإسلامي، وكذا بعض البلدان الأوربية، مثلما هَوَّن ذلك وأتاح - بمجال أكبر وأوسع وأشد - اضطهاد السلطة الرسمية والكنسية للمسلمين الذين تبعثروا وتناثروا وتضرروا.

---

(١) وقد عُرضت - مُدَّة (أواخر سنة ١٩٨٩م)، وربما لأول مرة، وبأهمية كبيرة - أدوات التعذيب لمحاكم التفتيش الإسبانية في مدينة بلنسية VALENCIA وغيرها في الأندلس على البحر المتوسط، وفاتني حضورها المهم، فرصة ذهبية ضاعت، ويا ليتها تعود غير بعيد.

وإذا كانت قد توفرت قيادات ودعاة، حافظت ـ بشكل ما، وإلى حين، بأي مقدار ـ على هوية المسلمين وعلى وقوفهم، في أشكال من المواجهات، إلى حد ثورات، وَفَّرَتْها المجموعات المتبقية في المدن المتعددة، فهي مفيدة جداً، لكنها لم تكن كافية ولا شافية.

إذ إن بقاء أولئك العلماء والتصاقهم بالمجتمع الإسلامي ـ أُبُوَّة إيمانية ومسئولية ربانية وتبعة دينية ـ كان سيكون له ثماره البعيدة، التي لعلها تُغَيِّر وَجْهَ تاريخ تلك المنطقة ويقدم معطيات أخرى، وحفر مسار عميق ومستمر في الحفاظ على تلك المجموعة ومدها بالمعرفة والثبات والتثبيت.

هُرُوب شَنُوم وعَجْزٌ مَلوم

وقد تكون هنالك ظروف تستدعي هجرتهم، لكن يبدو أن هنالك موجباتٍ أكبرَ تستدعي بقاءَ هم. مع أنّ هؤلاء العلماء لم يهاجروا هروباً، بل اجتهاداً واتجاهاً كان. فهم وإن قاموا، بعد هجرتهم، بمهمات جهادية، أو دعوة إليه، أو تحضيراً ما لصالح المسلمين، أو مهدوا طريقهم إلى المناطق، وسجلوا نمط حياتهم الجديدة، حيث حلوا لكنهم في الوقت نفسه فتحوا باب الرحيل ـ دون حرج ـ بشكل فيه الكثير من التشتت والتوزع، جعل السلطات الجديدة في إسبانيا تكون أكثر جرأة وأمضى قمعاً في تنفيذ مخططها الرهيب. وهذا ما كانت تريده وتسعى إليه حثيثاً، ولو ببذل كبير.

ولعل ظاهرةَ المورسكيين وأسلوبَهم في الحفاظ على دينهم ـ بإظهار النصرانية وإبطان الإسلام ـ كان ثمرة ـ وبأي مقدار ـ لتلك الهجرة، أمام أساليب التحريق والتمزيق والتفريق، التي اتبعتها السلطات الكنسية والرسمية في إسبانيا، بعد السقوط الأخير، وهي تجرِبة فريدة تماماً في غرابتها.

ومهما تكن من موجبات ـ لتلك الهجرة ـ إلاّ أنّه ليبدو أنّ بقاء أولئك العلماء أَدْعَى وأجدى وأبعد أثراً، لا سيما قي ذلك التوقيت، في بدايات المواجهات الحارة الحادة المدمرة. وربما يكون بقاؤهم ـ بجانب قيادتهم وجهادهم ـ مَحَثًّا في تماسك الجماعة المسلمة واستطاعتها الوقوف ضد محاكم التفتيش ومحارقها وعمليات الإذابة والإبادة ـ فردية أو جماعية ـ بالحرق أو القتل، التي جرت بكل جرأة ووحشية، استهانة وعداوة وحقداً وصليبية. تلك التي استمرت ما يزيد على ثلاثة قرون، شَمَلت كُلَّ ما يتعلق بالإسلام، ما يحمله أهله في النفس وما بقي في الحياة من نِتاج ومتاع وإبداع، وكل ما تخلف في الأرض ظاهراً وباطناً.

العُلَمَاءُ احتفاء واختفاء

وهذه القوى الغاشمة ـ كعادتها على الدوام ـ تود هي نفسها أن يختفي العلماء من المجتمع المسلم، ليسهل عليها القيام بإجراءآتها التعسفية. فوجودهم يصد ويبدد تلك القوى الباغية، دوماً ووضوحاً. فالذي يشد ذلك ويقويه ويحفظ الجماعة ويمسكها هم العلماء. وتلك ظاهرة متفردة في التاريخ الإسلامي ـ أو هي أظهر ـ ماضيه وحاضره، وكذا مستقبله، إن شاء الله ، يحتفي بها ويشتهي توفرها ويدعو لبقائها؛ لأنّها تلك طبيعة التكوين الإسلامي وبنائه لأتباعه. وإن كانت المسئولية عامة، لكن العلماء يحملون القسط الأوفى منها وفي كلّ الأحوال.

قيَادَةُ العُلَماءِ إبلاَلٌ أو إذلاَل

وذلك واضح جدًّا، فإنّ وجود العلماء في قيادة الأمة المسلمة إنعاش وإبلال وذَهابهم

تمزق وإذلال، يحتفي بوجودهم المسلمون، وتختفي وحدتها وربما بوجودها، بذهابهم منها وانزوائهم عنها. وفيما سبق من تاريخ الأندلس كان العلماء هم الذين صانوه من حالة الضَّياع الأولى، أيام الطوائف. وكان العلماء هم حصنه وحصانته وصيانته. وإنّ مجيء المرابطين إلى الأندلس وحدوث معركة الزَّلاّقة SAGRAJAS (٤٧٩هـ= ١٠٨٦م) كانت ثمرة جهود العلماء، وهم الرعاة الدعاة الهداة، ابتداءً من أبي الوليد الباجي[1] (٤٧٤هـ) وأمثاله، إلى كل الجهود الأخرى المباركة الكريمة.

فهجرة علماء الأندلس ـ لدى سقوط غَرْناطة ـ كانت أُسلوباً تتمناه السلطة الإسبانية ـ الرسمية والكنسية ـ أزاح مِن أمامها الجدار الرصين وقت الصدمة الأولى. وهيّأت النفوس لسلوك طريقها الذي مهدته الهجرة، منذ ما قبل سقوط غرناطة، مثل هجرة ابن الأزرق (٨٩٦هـ = ١٤٩١م) .وهجرات آخرين ورحيلهم ـ والتي بعدها أكدته ـ مثل هجرة أسرة الحسن الوزان (٩٥٧هـ = ١٥٥٠م).

وكل ذلك أعطى تجرِبة ذات أهمية، لم يستجب لها جميع العلماء. ومنهم مَن أباحها، ومنهم مَن رفضها وأصرّ على البقاء، رغم الموت الزؤام ـ المتوقع مقدماً واضحاً ـ وعلى كل المستويات. فهل نعتبر هؤلاء العلماء كانوا في ظروف أباحت لهم ذلك أم اجتهدوا فوجدوا ذلك أفضل، أم نعتبر رحيلهم نوعاً من الفرار يوم الزحف أو به شبيه ؟ وهذا الموضوع ما يزال بحاجة إلى إغناء ـ متابعةً وبحثاً ـ لمعرفة ملابساته وأمثلته كافة والانتفاع بدرسه وخبرته وعِبرته ومعرفة ثماره، لأخذ الحَيْطة والانتفاع، ويؤكد مكانة العلماء ويحدد مسئولياتهم الكبرى. أولاً، وقبل كلّ شيء، أمام الله جل جلاله، ليكون ذلك عبرة نافعة للعصور والأجيال والأحداث.

---

(١) التاريخ الأندلسي، ٣٣٨ وبعدها.

وإننا ندعو الله تعالى أن يقي الأمة المسلمة ويحميها من نفسها ويحفظها من أعدائها، ونرجو الله الرشاد ونسأله العون، والحمد والشكر لله رب العالمين.

***



هِجْرَةُ عُلَمَاءِ الأَنْدلُس لدَى سقُوط غَرْناطة

ظُروفُها وآثارُها

عاش الإسلام في الأندلس - إسبانيا والبرتغال - سلطةً وأفراداً ومجتمعاً وحضارة، ثمانية قرون، متفاوتة في أحوالها، مَدًّا وجزراً، قوة وضعفاً. كان خلالها دارَ جهاد ومحضن علم ونضارة وموطنَ ابتكار وسبق وحضارة. معروفة بإنسانيتها الكريمة النشيطة الحية الثرة الثرية، وإن تخللها - غير قليل - من المشكلات والانحسارات والارتطامات والمعوقات الداخلية والخارجية، دافَعَها وعالجها - بمقدار التزامه واستقامته وتلاحمه، للبذل والتضحية والإقدام - في أثناء مسيرتها وفي عطائها الكريم.

وكان دوماً يجد العون والنجدة من إخوة العُدْوَة في المغرب، الذي بقي مساعداً ومنجداً لأهل الأندلس، منذ الفتح الإسلامي له سنة ٩٢هـ (٧١١م) وحتى السقوط - سقوط غَرْناطة سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) - وذَهاب آخر سلطان للمسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية[١]. كما كان المغرب موئلاً ومنزلاً له بعد السقوط، مثلما كان الأندلس كذلك للمغرب سدًّا ورِفْداً وعَضُداً. وهكذا التكافل والتعاون بين العالَم الإسلامي وأهله، مجتمعاتٍ وأفراداً، طبيعةً ووظيفة.

الرِّحلةُ الجَديدة البعيدة

لكن زوال سلطان المسلمين في الأندلس لا يعني خاتمة الحياة الإسلامية فيه، ولا زوال مجتمعه ولا ذَهاب إنسانه وإيمانه، بل به ابتدأت رحلة جديدة من حياته، كانت مأساة ملحمية فريدة لغرابتها في التاريخ الإنساني إطلاقاً[٢]، تَحْمل في تضاعيفها أخباراً وأسراراً

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي، ٥١ - ٥٧، ٥٥٢ وبعدها

(٢) يسّر لي الله تعالى أن أكتب ملحمة سقوط غرناطة، بعنوان: الملحمة الأندلسية المُؤْسية (مملكة غرناطة وحمراؤُها).

ومعلومات مرعبة مخيفة ودامية حزينة. وهذا بقدر المعلومات المتوفرة التي لم تستوعب إلاّ القليل من العمق والكثير من الضيق من آفاقه أو دهاليزه المظلمة المدلهمّة المتجهمة. وهي بحاجة إلى الكثير من الجهود العلمية الأمينة الرصينة، لتقديم البحوث والدراسات وتقوم بالتنقيبات والتحقيقات التي سَبَق ببعضها ـ وبأي أُسلوب ـ الدارسون الأوربيون، وبينهم المنصف والمجحف. وحسناً كان تكوين اللجنة العالمية للدراسات الموركسية[1] التي عَقدت مؤتمرها الأول (فرنسا، ١٩٨١م)، ومؤتمرها الثاني(تونس، ١٩٨٣م)، والذي هيّأ الله تعالى لي المشاركة فيه ببحث عن " المورسكيون في المصادر والمخطوطات الأندلسية " .

ذاقت الأندلس مرارة الهبوط والانحسار، بفعل عوامل متنوعة، مثلما ذاقت ـ أكثر ـ حلاوة النصر والازدهار. وقِوامه ـ في هذا كلّه ـ الإيمان بدين الله تعالى الباعث على البناء والعطاء، المتنوع الأصيل، الذي لم يفارقها ـ بأي شكل ومقدار ومساحة ـ حتى وقت الضعف والتخلف والتعثر والتأثر. وكانت بهذا الرصيد الإيماني ـ مهما ضعف ـ تقوم، كلما وقعت، به قامت وانطلقت، صانها إيمانها بالإسلام وشرعه، وحماها علماؤها. مثلما شارك في ذلك كثرة من أمرائها الذين عُرفوا بمزاياهم الكريمة، حرسوا وسهِروا وأمروا.

أدَاءُ أَمانة أو إدانَة

ومن شذ وتردى ـ من هؤلاء ـ أدانتهم الأمةُ، بعدما نصحتهم ووقفت وقفاتها تجاههم. فمنهم من استجاب واستقام، ومنهم مَن تمادى في غَيِّهِ مشاركاً في النكبة، سلوكاً كان سبباً في السقوط الكبير سقوط مملكة غرناطة ومدينتها.

---

(١) الكلمة LOS MORISCOS إسبانية، أُطلقت على المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ومعناها: المسلمون الضعاف أو الصغار أو الذليلون. وهي تصغير للكلمة الإسبانية LOS MOROS، أي: المسلمون الأندلسيون. انظر: التاريخ الأندلسي، ٥٦٩ .

أما العلماء ـ عموماً، وكل الأعلام، لا سيما علماء الشريعة ـ فقلَّ منهم مَن هَمَد أو بَرَد في مهمة الحماية والرعاية التي أوكلها الله سبحانه وتعالى إليهم. وقد رأيناهم دوماً للأمة حصناً أميناً وراعياً كريماً، يهرعون لها وإليها. وهم وقت الشدة أكثر حضوراً في المجتمع، يركبون المعامع ويمتطون المصاعب، تعليماً وقيادة وحثّاً وريادة، تعالوا على كل أنانية وارتفعوا فوق المصالح الشخصية، لا يَرفع فوقها إلاّ الإيمانُ بالله تعالى عميقاً وبيعة خالصة لدينه الكريم، تبذل المال وتقدم الأشراف، طالبة رضا الله سبحانه وجنته.

بالعُلَماء والأُمراء يَعلو خَير البنَاء

فالعلماءُ قادةُ الأمةِ والمجتمعِ وحماتُه، إذا تفلّت بعضُ أفراده حكاماً ومحكومين، ينصحونهم ويردونهم للخير وللدرب المنير، مع القافلة المباركة، يمدون الركب في الطريق المنير للمسير على هديه المبارك. وهذه سيرة مشهودة خلال التاريخ الإسلامي والأندلسي، خصوصاً وعموماً.

والوضع الأمثل يوم يتولى مهمة الأمة بصدق وإخلاص، أمراؤها وعلماؤها، تناصحاً وتعاوناً، حماية ورعاية. مثلما حدث مرات ومرات، فيما مضى من سجلات التاريخ الإسلامي ومحفوظاته عموماً والأندلسي[1].

وكلما تولى وأَعْرَض حاكم عن الأمانة أو تخلف عن أداء مهمته، كان العالِم بطلاً جبلاً، يقوم في المجتمع ويقويه، يقوده ويعليه. وإذا كان قد حدث ذلك ـ وهو غير قليل ـ فمن النادر أن يتحول الحاكم حفار قبور للعلماء، وبالطبع ولا لغيرهم.

---

(١) أمثال: الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٥٠هـ= ٩٦١م)، ومواقف القاضي منذر بن سعيد البلوطي (٣٥٥هـ) معه.

عُلَماءُ شَوَاهد وقت الشَّدَائد

وفي كل الأحوال بقي الأعلام والعلماء ـ علماء الشريعة وكل من تربّوا عليها منهم، وهو شيء عام وشامل ـ في مقدمة الأمناء، كهوفاً يأوى إليها الناس دوماً، لا سيما وقت الملمات والنوازل والشدائد. وتلك صفة هذه الأمة المسلمة، وحتى في عصرنا الماثل. وإذا أَغرق أو جرف أو أغطس الماءُ واحداً منهم وأخذه بعيداً، تمخض المجتمع الإسلامي وجيلُه وأهلُه عن جديد من الأعلام، قاموا بالمهمة. وهذا واضح عبر التاريخ الإسلامي والأندلسي، حتى بعد سقوط غرناطة وتحت المظلّة السوداء محاكم دواوين التحقيق ـ أو محاكم التفتيش، كما عُرفت به ـ الدموية في إسبانيا والبرتغال.

وبقي هؤلاء العلماء والأعلام أوفياء أمناء على مهمتهم، وحتى في أحداث سقوط غرناطة، خلالها وبعدها، ولكن بصورة خالطتها عناصر فهم جديد ـ لدى بعضهم ـ لمثول تجربة وفكرة وتَوَجُّه، دعت إليه ظروف وأحوال واجتهادات، أخذتهم إليه آمال. وهم وإن كانوا على المهمة نفسها، لكن الصدمة كانت قوية والصورة شديدة قاسية مُؤْسِية: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»[1]. فصبروا وتصرفوا، منهم بالهجرة لائذاً ومنهم بالإقامة متشبثاً، رغم سوء النهاية.

هِجرةٌ وهَجْر

وفي الأندلس اعتاد العلماء الهجرة المؤقتة إلى المشرق والمغرب، طلباً للعلم وأداءً للحج أو مشاركة في الجهاد أو استقداماً لنجدة أو غير ذلك. يفعلون ذلك حماية ويعودون إليه

---

(١) حديث شريف، أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

متوجهين لصالحه[1]. كما ألفنا الهجرة، منذ وقت مبكر ـ قبل السقوط الكبير، بنحو أربعة قرون ـ من مناطق أندلسية، سقطت تحت الحكم النصراني وسلطته الكنسية، إلى مواقع ما زالت تستظلّ بسلطانها الإسلامي في الأندلس.

ولكن هذا كله غير الهجرة، هجرة العلماء بعد سقوط غَرْناطة، حيث حلّت الكارثة التي تَخَوَّف البعضُ منها مبكراً وتوقعها العديد من أعلامنا الأندلسيين وأنذروا ببؤس العاقبة وسوء المصير[2]، بيد عدوٍ خَبَروه وعَرَفوا غَدره وبُطلان وعوده، مما عَرَّفهم بحقيقته.

---

(١) انظر الجزء الثاني من نفح الطيب للمَقَّري، فقد خُصص لبعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق. وفيه ترجمة للكثير من هؤلاء العلماء والأعلام الراحلين، منذ وقت مبكر، ابتداءً من القرون الأندلسية الأولى. وقد استقر بعضهم هناك بقية حياتهم، في أي من بلاد المشرق الإسلامي ومنهم من عاد إلى الأندلس.

والحق أنّه قلّ من علماء الأندلس وأعلامه وتجاره وسُفّاره وحجاجه وغيرهم إلأوله هجرة أو أكثر إلى المشرق الإسلامي. وقد تُسفر عن عودته بعد سنوات طويلة قد تزيد على العشر وربما العشرات أو عن استقراره هناك. لكنه ندر أو انعدم مَن هاجر من أمراء الأندلس إلى خارج الأندلس، بل ربما انعدم مَن سافر أو غادر، إلاّ رحليهم المعروف عندما حلّ السقوط!!؟

كما نجد في آخر الجزء ترجمة لبعض من هاجر من علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة ـ وهم موضوع هذا البحث ـ من أمثال أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البَسْطي القَلْصادي(٨٩١هـ). نفح الطيب، ٢ / ٦٩٢ ـ ٦٩٤، وأبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الأزرق (٨٩٦هـ). نفح الطيب، ٢ / ٦٩٩ ـ ٧٠٤ وسيرد عنهم وعن غيرهم بعض التفاصيل. انظر: أدناه، ١٢٢، ١٦٣ .

(٢) من أمثال: ابن حَيّان القرطبي (٤٦٩هـ)، وابن الخطيب (٧٧٦هـ)، وابن خلدون (٨٠٨هـ). انظر: نهاية الأندلس، ١٤٦ ـ ١٤٧، ١٨٩ ـ ١٩١ .

يقول ابن حَيّان القرطبي(٤٦٩هـ): " طالما حَذَّر عليها أسلافنا لحاقها بما احتملوه عَمّن قبلهم من أثارة/ ولا شك عند ذوي الألباب أنّ ذلك مما دهانا من داء التقاطع وقد أمرنا بالتواصل والألفة، وأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه على شَفَا جُرُفٍ يؤدي إلى الهلكة لا محالة، إذ قَدَّر الله زمانها، هذا بالإضافة إلى ما عهدناه في القرن الذي سلخناه من آخر أمر الجماعة على إدراك من لحق الذي قبله ". الذخيرة، ٣ / ١ / ١٨٨ ؛(العلمية)، ٣ / ١٢١ ـ ١٢٢ . كذلك: نفح الطيب، ٤ / ٤٥٢ .

ويقول ابن الخطيب: " أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده ". نفح الطيب، ٦ / ١٦٦ . أزهار الرياض ١ / ٦٥ . كذلك يقول: " ولا شك عند عاقل أنّكم إن حُلَّت عروة تأميلكم، وأعرضتم عن ذلك الوطن، استولت عليه يد عدوه ". نفح الطيب، ٦ / ٢٠، ٢٢ . أزهار الرياض، ١ / ٦٥ ـ ٦٦ .

ويُبدي ابن خلدون مثل ذلك في توجسه وخوفه من مصير الأندلس. نهاية الأندلس، ١٩٠ ـ ١٩١ . انظر كذلك: الذخيرة، ٢ / ١ / ٢٥٠ . نفح الطيب، ٤ / ٣٥٢ . أزهار الرياض، ١ / ٤٦ .

الكَنَسِيُّون المُفْلِسُون لماذا ؟

وهؤلاء الكنسيون إذا تمكنوا من مسلم ينالون منه كل نيل، وهم من أقسى الناس. وهم الذين أَورثوا قومَهم العداوة والعنف والكراهية السوداء للمسلمين، وهم وراء ذلك دوماً للأسف الشديد، والله سبحانه وتعالى قال في أمثالهم ما يشملهم: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[١].

وذلك مُجَرَّب معروف، غدا أسلوباً واضحاً[٢]. عُرِف تماماً عندهم بالأمثلة الواقعية خلال تعاملهم معه، لا سيما حين بدأت تسقط مدن أندلسية، يُنْكَب أهلُها ويُفتك بهم ويُهتك منها الاعتزاز، يهاجرون ويَهجرون. فكلما سقطت مدينة أندلسية، هاجرت طائفة من أهلها إلى غيرها من ديار الأندلس الحبيب العزيز الكريم.

الانحسار المُحْزِن المَرير

وهكذا كان الانحسار مضاعفاً، انحساراً في المكان وانحساراً في الإنسان. لكنهم كانوا يتماسكون في كل انحسار إلى بقعة جديدة، أملاً وعملاً، للإبقاء على سلطة إسلامية في الموطن ذاته، دولة تحمي بعضها على أرض يقام فيها للمسلمين سلطان، بعد أن يبذل الشجعان والفرسان والعلماء والنبلاء ـ وكلهم فرسان وعلماء ونبلاء، بدرجات ومقادير كريمة ـ جهدَهم ويُفرِغوا طاقاتهم.

وربما كانت هذه الهجرة هي الصورة المصغرة المخففة لِمَا تمّ بعد سقوط غَرْناطة، حين لم

---

(١) سورة التوبة، ٨ .

(٢) انظر: نفح الطيب، ٤ / ٥٢١ .

يكن هناك أَرض لسلطة إسلامية في الأندلس. فهم بذلك قد انحسروا إلى أرض أُخرى مسلمة، فراراً بدينهم وحفاظاً على عقيدتهم وإبقاءً على أنفسهم وصَوْناً لأهليهم وأتباعهم.

بَشَاعَةُ التّعامُل الكنسي

وكانت بدايات هذا الانحسار وسقوط مدن أندلسية منذ القرن الخامس الهجري. ولئن كان هذا أخف وقعاً، لكنه ما كان يخلو من خطر. وبقيت جاليات كبيرة أحياناً. وربما أكثرية من بعض المدن الأندلسية الساقطة منذ الشَّمال الإسباني، كلها هُجِّرت واضطُهِدت ونالها الفتك والهتك، لكنه ـ رغم بشاعته ووحشيته ـ لم يأخذ طابع التفاخر بالوحشية[1]، لتجري مع طبيعتها التي قَصُرت قبل السقوط لأسباب، وانطلقت بعنانها بعده. وهذه المجموعة ـ التي بقيت في مدن أندلسية سقطت ـ عُرفت: بالمُدَجَّنين LOS MUDEJARES[2]، ما دامت في الأندلس قوة إسلامية[3] تروع المعتدين وتخفف أو تكف من اعتدائهم أو توقفه. ولذلك لا بدّ دوماً للمسلمين من قوة تحميهم وترعاهم وترد كيد الأعداء عنهم.

اتسعت ظاهرة هجرة الأعلام والعلماء، وكذا الأنجاد والزعماء وغيرهم، اتساعاً مرعباً ـ لوقتٍ حول سقوط غَرْناطة ـ منذرة بكوارث جديدة قد لا تقل عن سقوط الدولة الإسلامية، التي كانت ـ كعادتها ـ الحلقة الأولى في سلسلة المأساة البربرية الدموية التي واجهت مُسْلِمَةَ الأندلس في إيمانه وعُمرانه، سعت إلى قتله وقتلها بعنف ووحشية. اعتبرت ذلك رسالتها

(١) قارن: التاريخ الأندلسي، ٣٥٩ـ ٣٦٦.

(٢) نهاية الأندلس، ٥٦.

(٣) التاريخ الأندلسي، ٥٣١.

وحياتها، شَغَلت نفسها ومجتمعها وبذلت وسعها وجهدها لقرون سوداء مُرْبَدَّة، مما آذاها، وجنت بذلك على نفسها[1].

كان الزحف الصليبي على الأندلس طوفاناً أعمى. ولم يأت من إسبانيا والبرتغال فحسب لكنه من عموم أوربا، تنادت سلطاتها وجمعياتها الكنسية ـ بصوت البابوية ـ قادمة إلى الأندلس، مستبيحة كل ما هو إسلامي فيها، منذرة بالويل والثبور اللئيم[2].

مَأْسَاةٌ مُبَكِّرَة مُعَبِّرَة

كانت المأساة البَرْبَشْتْرُيَّة سنة (٤٥٦هـ)[3] من مقدماتها وشاهداً مقدَّماً لها ومنذراً على نوعية هؤلاء في التعامل مع المسلمين. فقد ظهرت فيها كل خيوط وخطوط أساليبهم ونفسياتهم ومقدار إنسانيتهم المقهورة التي يرفضها كلّ دين. وهم أبعد ما يكونون عن حقيقة النصرانية. يجري ذلك إلى حدّ قد يُفصح عن عداء مسبق يسوقهم ـ سوطاً مُلْهِباً ظهورَهم ـ للانتقام من المسلمين، الذي تَحَوَّل إلى حقد دفين بفضل الكنيسة ومن يقبع فيها.

(١) انظر: قصة العرب في إسبانيا، ٢٢٦ر نهاية الأندلس، ٤١١ وبعدها. مواقف حاسمة، ٣٢٣.

(٢) ولقد بلغ ذلك حدًّا نادراً غادراً سادراً. ففي معركة العِقاب سنة ٦٠٩هـ (١٢١٢م) التي جرت بين المسلمين (الأندلسيين والموحدين) وبين الصليبيين من نصارى الإسبان والأوربيين والتي انتهت بخسارة المسلمين، انفصلت الجيوش الأوربية عن الاستمرار، لَمّا مَنع الفونسو الثامن قتل المسلمين. (المُعْجِب، ٤٠١. التاريخ الأندلسي، ٤٩١ ـ ٤٩٧) ولم يكن ذلك منه رحمة وخلقاً وإنسانية، ولكن حسابات مستقبلية.

(٣) الذخيرة، ٣/١/١٧٩. نفح الطيب، ٤/٤٤٩. التاريخ الأندلسي، ٣٥٩ ـ ٣٦٦.

مآثر الهِداية ومدَاثر الغِواية

وكأنهم وكأنها تكافئ المسلمين على ما جلبوا من هُدَى رب العالمين إلى هذه الأرض، أنعشوها مخضرة مثمرة، ثمار الخير الطيبة، وعلى ما أسلفوها وقَدَّموه لها، ابتداء[1] من حسن المعاملة والحفاظ على المهمة الفاضلة بالهداية الإنسانية الكريمة إلى أهل الجزيرة الإيبيرية. حافظوا عليهم وأَمَّنوهم فيها، فأنتج مجتمعهم المسلم ـ بأجناسه المتنوعة المتعددة ـ الحضارة الفاضلة، حتى غدت مَعْبَراً للخير في جوانب منه إلى أوربا. كانت آثارها عليها وعلى العالَمِين مستمرة حتى عصرنا الحاضر، ينعَم بها كل أحد. وذلك علامة على مفاخر الإسلام وأياديه البيضاء، حتى لمن حاربوه واضطهدوا أهله، ونداءً قويًّا على إنسانيته وروعة حضارته التي لا عيش للإنسان بدونه، دليلاً ناطقاً ـ مَهما غُمط الحق وحُجب النور ـ سيبقى صوته عالياً لا يُكتم. واليوم بهذا نطق بعض المنصفين مشيدين بهذه المعاني،[2] مُجَرِّمين مَن قاومه وشَهَرَ العداء ضده[3].

حاصرت تلك الصليبية المسلمين، أواخر أيام غَرْناطة ووقت الشدّة حولها، ضاربة نطاقاً، ولاحقتهم وقطعت عنهم عون الإخْوة في العُدوة المغربية ونجدتَهم من بقية الشمال الإفريقي، طريق النجدة التاريخي المألوف. وهي تزيد كل يوم إحاطةً معتصِرة وضيقاً قاتلاً، أخذت المدن من حولها وقطعت عنها كل مَدد من العُدَّة والمِيرة. دمرت مُرُوجَها وبُرُوجَها، وأهلكت حرثها وزرعها، لتضطرها للاستسلام[4]. فلم يبقَ غير مدينة غرناطة ـ التي جاهدت لسنوات ـ حتى وهي منهكة أحياناً، بالفتنة والفرقة وضيق العيش وخنق

---

(١) خُلُق الإسلام الأصيل في التعامل مع الآخرين، في كل الظروف، لا ينفكون عنها ولا ينحرفون. أمر اشتهر في التاريخ الإسلامي وحضارته، حتى اعترف به الأعداء. انظر كذلك: التاريخ الأندلسي، ٥٧٤ ـ ٥٧٨ .

(٢) التاريخ الأندلسي، ١٩٩ .

(٣) التاريخ الأندلسي، ١٩٩ .

(٤) قارن: التاريخ الأندلسي، ٥٧٤ ـ ٥٧٨ .

الضرورات، فتَّتْ في عضدها، ثمّ حاصرتها وخنقتها وقاتلتها في مثل هذه الظروف المنهكة لنحو سبعة أشهر، أجاعتها وروضتها[١].

الفروسيّة الشّهيدة والشّهَادَة المجيدة

ومع كل ذلك، بدت الفروسية الإسلامية ببطولاتها[٢]، وإن انتهى الأمر باستسلام غرناطة على شروط عُدَّت سبعة وستين[٣]، بددها الغدر. فلم ترث منه إلا الاضطهاد، خرقاً وحرقاً.

ومن هؤلاء الأبطال من قضى في الساحة، رأى الموت شهيداً أفضل من أي أسلوب آخر، غيب طبيعة الغدر، مؤملاً ومدافعاً في حياة يُمارَس فيها الإسلام في مجتمع مسلم وفي ظل سلطة نصرانية صليبية.

ومن أبرز هؤلاء الفرسان الأنجاد موسى بن أبي الغسان[٤]، الذي فضل الموت على الاستكانة والعيش في ظل سلطة نصرانية، الموت في مدافعتها وصيانة المجتمع المسلم، مثالاً حيّاً على أنّ الموت شهيداً يورث الحياة الكريمة في الدنيا والسعيدة في الآخرة. وبقي موسى هذا مثال الفروسية الإيمانية التي لا تعرف الاستسلام، بل تَعْرِف جيداً كيف تخدم مجتمعها المسلم وتبقى على وفائها، تموت من أجل ما آمنت به واعتبرت نفسها ـ بدون صفة رسمية ـ مسئولة عن رعايته ومستعدة للموت من أجل الحفاظ عليه. وتلك هي المسئولية الحقة التي تقيم وتقوم بما يراد منها وما يجب عليها. ونحن ـ وإن كنا لا نعرف عنه الكثير ـ نبحث

---

(١) نفح الطيب، ٤/ ٥٢٤، ٥٢٥ .

(٢) نهاية الأندلس، ٢٣٧ .

(٣) انظر خلاصتها في: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٥ وبعدها. نهاية الأندلس، ٢٤٤ ـ ٢٥٠ .

(٤) نهاية الأندلس، ٢٣٧ . مواقف حاسمة، ٢٩٥ وبعدها.

عن مثلها، ولعل مثلها غير قليل ضاعت أخبارها. وأن ذَهاب هؤلاء الفرسان الأنجاد في هذه الأحداث أَنْقَصَ ـ مرةً أخرى ـ عدد الرعاة والحماة، وإن كان هنالك فَرْق في السبب، لكن زاد من مشكلة تَوَفُّر الأعلام ووقوفهم إلى جنب المجتمع المسلم ورعاية أهله، ولكن جهودهم تحددت وكانت ستؤثر وتمنع، بوقوف العلماء إلى جنبهم.

وتُلاحَظ قضية أخرى أنّ العلماء الذين تداولتهم هذه الأحداث وتداولوها هم الذين سُجلت أخبارهم بشكل أكبر وعَرفوا واعتركوا الحياة وعُرفوا بها حسب مواقفهم. ومن كان غير ذلك، قل أثره وتَخَفَّى خبره، وربما جُهِل أمره. وهكذا تتحدد مكانة الناس ـ لا سيما العلماء ـ في مواقفهم تشهد عليهم، تقدماً أو تخلفاً. وبقدر نوع الموقف وحقيقته يتربعون على أي مرتقى أو يتدلون في مهوى.

وعَلَّمنا علماؤنا ـ خلال الحياة الإسلامية ـ أنهم أهل ارتقاء وامتطاء للمعامع والمواقع، لا يخافون ولا يرتجون غير رضا الله، ففازوا بذلك وأخذوا بركاب الحياة، وغيرهم تدهور وانزوى وفازوا من التمر بالنوى وذهبوا مع النوى

غموض أحوال وغيبة رجال

ولعله لم يتضح لمن هاجر من هؤلاء العلماء أو هجر، بأن إغفال الملايين المسلمة يقدمها إلى إمكانية مرعبة، حيث تجعلها تفنى وتموت تحت سطوة هذه السلطة الغاشمة، بشكل ما كان يخطر على بال أحد، وحتى ممن توقع ذَهاب السلطة الأندلسية، من هؤلاء العلماء والأدباء والنبلاء أنفسهم ـ ولا من الذين عاشوا قبل هذا الخطب الفادح والمأساة الهائلة، في أي وقت مضى ـ بل ربما حتى مِن بعض النصارى أنفسهم. هذا الهول الذي سعى إليه وأجج ناره من كان عليهم تهوينه وتركينه وتحجيمه من رجال الكنيسة وكهنتها.

والذي يبدو أنّ العلماء، الذين بقوا بعد سقوط غَرْناطة وعاشوا مرارة الهول وواجهوا معاملة الكنيسة الدموية الوحشية، قلما هاجر منهم بعد ذلك، الأمر الذي قد لا يخلو من إشارة أيضاً أنّهم راغبون ابتداءً في البقاء، وكان عندهم الاستعداد لذلك. ورؤية الكارثة ومعايشتها ومواجهتها جعلتهم يحسون أكثر بمسئوليتهم ووجوب تولي أمر رعاية المسلمين في ردها، مهما كانت الظروف والصعوبات والمتاعب. وهذا دليل مهم يشير إلى أنّ نمو الفضائل لا يكفيها الاستعداد، بل لا بد من ممارسة ومعايشة وتربية في الميدان وترقية في المعترك، مما يجعلها تتفاعل وتتلاقح وتتبصر، وذلك يجعلها تنمو وتتضح وتقوى، مثلما يقود الوجه الآخر إلى عكسه.

وهؤلاء العلماء الذين ثبتوا في مواقعهم أنعشوا النفوس، رغم الشدّة المحيطة. والذي يظهر من مجمل الأخبار - وإن قَلَّت - التي تصف الأحداث أيام غرناطة الأخيرة وبعد السقوط أنّ عموم المجتمع الإسلامي وقف وتصدى وواجه ورد وأبى، بشكل قاد إلى أن يتقدم أهل البلاء ويَخرج - كل ذي مُكْنَة مختف، بأقل الغيرة والولاء - إلى الحياة ومشاركة الجماهير المسلمة في تلك الكارثة المدلهمة.

والويل لقادة هم أقل ولاءً لانتمائهم الإسلامي من عموم الجماهير التي تولوا أمرها وأخذوا المسئولية فيها وقبضوا على الزمام في حياتها. وويل لأمة هي في مجملها أفضل من قادتها ومتولِّي أمرها، وهي لا تتحرك لإنجاز مسئوليتها، كما جرى أحياناً لبعض أمراء الأندلس وحكامه، لا سيما في عصر الطوائف وأواخر أيام غرناطة بالذات. فالسكوت على هؤلاء يجعلهم فراعين وطواغيت تكون كالأصنام لا تغني عن عُبَّادها شيئاً، بل تُوهِمُهم وتخدعهم وتذلهم من أجل إمارتهم وأموالهم وأحوالهم. مثلما رأينا ذلك واضحاً في مسلك المتأخرين من أمراء غرناطة لا سيما أصغرهم وأذلهم وأجبنهم آخر أمرائهم أبو عبد الله الصغير .BOABDIL وكان الأَوْلى بأهل الأندلس أن يبايعوا فارسهم ومجاهدهم، بل وقائد فرسانهم موسى بن أبي الغسان ويخلعوا هذا الأمير الصغير الذي تقدم لِيُسَلِّم غَرْناطة

إلى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيل بذلة وخور وهوج، بحيث قدم نفسه إليهم يريد تقبيل أيديهم ذليلاً خاضعاً لهما وجاعلاً نفسه خديماً[1]، ومُسَلِّماً إياه بذلة مفاتيحَ غرناطة الحبيبة.

وهذا قد يعني - مما يعني - أن خلع أبي عبد الله الصغير ضرورة لازمة ملزمة، وبفتوى من العلماء أنفسهم، غَيْرَة ووجوباً واقتداءً، ويتولى الأمر مكانه القائد المقدام والفارس الهمام وزعيم الفروسية المسلمة موسى بن أبي الغسان - أو من يماثله، وهو متوافر - لا سيما وقد ذُكر أنّه من الأسرة المالكة، ومحبوب من الجماهير المسلمة في غرناطة وما حولها ومثار إعجاب حتى الأعداء، والهيبة له منهم ومسموع الكلمة في أهل الأندلس وذو رأي بينهم. وقد كان لديه ما لا يقل عن عشرين ألف فارس مجاهد، مهيأ للجهاد والجلاد والاستشهاد، من صفوة مختارة من أهل الفروسية الأندلسية. وعموم الشعب الأندلسي المسلم لم يكن مهيأً للاستسلام، بل رُوِّض عليه. والأمة مستعدة لمجاهدة الأعداء، استماتةً وتضحيةً وبذلاً. ولعله كان عليه ألا يطيع، بل يتولى الأمر بنفسه ويخلع هذا الصغير!! فهل كان سيطاع؟

وحتى لو كانت إجادته تنحصر في الحرب والفروسية ونجداتها - وهي تبدو أوسع - فإنّ الحاجة الآن - وقتها - إلى هذا اللون من الإمارة، إمارة ومدافعة ونجدة، وهذا كان سيتم بسهولة ويسر وترحيب. ولا يبدو أنّ ظروفاً ستحول دونه، بل نفوساً كانت مهيّأة لذلك مرحبة به ومندفعة له ومقبلة عليه مشتاقة.

وحتى لو كان الأمر سينتهي إلى المصير نفسه - سقوط غرناطة - لكن ذلك سيكون أداءً للواجب وتثبيتاً للمعاني ورفعاً للمسئولية أمام الأمة والتاريخ - وقبلها وأهم منها كلها - أمام الله تعالى. وهذا - في الوقت نفسه - يجعل الأعداء يحسبون الحسابات، وقد يخففون من الشناعات والبشاعات والعذابات التي ارتكبوها وارتكسوا في مستنقعها وغَرِقوا في

---

(١) نهاية الأندلس، ٢٧٧. كذلك: ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٤، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٧٨.

حمأتها. وربما كان ذلك سيجعل للعلماء ميداناً يتعاملون به، يسمعهم الناس ويثمر موقفهم شجاعة في الداخل وقياماً ضد الظلم واستجلاباً لعون الإخوة في المغرب، لا سيما بني وَطَّاس الذين ورثوا بني مَرِين في العُدوة، أو العثمانيين وبقية المسلمين في العالم الإسلامي، لا سيما وقد أُرسلت سفارات استغاثة واستنجاد[1] إلى جهات متعددة في العالم الإسلامي، وإنّ إرسال معونة تساعد أهل الأندلس ـ كما حصل في أوقات سابقة، مثل أيام الطوائف ـ أهون وأقبل وأعقل من القيام بها كلها من المعاونين وحدهم.

آثار هذه الهِجْرة: تهوينها وتأليفها وترويضها

وقد لا يجعل من حق هؤلاء العلماء أن يكونوا هاجروا مثلما فعلوا. زد على ذلك أنّ المسلم ـ لا سيما القادة والعلماء والأمراء وأمثالهم ـ لا يَتركون الميدان ناجين ومنهزمين ومحافظين على أنفسهم، مهما فعلوا بعد ذلك، بل حتى لو انسحبوا من الميدان لحظة ـ في وقت ما وظروف ما ـ فإنّه لا بد من إثخان العدو والنيل منه والفتك به. وتلك قاعدة معروفة وملاحَظة ومنظورة في التاريخ الإسلامي، تَعَلّمها المسلمون وراثة من دين الله تعالى الذي ارتضوه وافتدوه واقتدوا فيه برسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ولكن الأعجب من كل ذلك أنّ عدداً من العلماء الذين هاجروا من الأندلس في أحلك الظروف وفي أشدّ أوقات الحاجة إليهم داخل المجتمع الأندلسي هاجروا قبل السقوط (٨٩٧هـ) ببضع سنوات وكأنّهم أفتوا لأنفسهم بذلك، وهذا هوّن على مفتي المغرب الونشريسي (٩١٤هـ) أن يتقدّم بمثل تلك الفتوى (٨٩٦هـ) التي سبق ذكرها وكما سيرد نصّها حديثها[2].

---

(١) يصلح هذا بحثاً مستقلاً جيداً وغنيًّا بالمادة العلمية المتناثرة.

(٢) انظر: الكشاف العام تحت: فتوى.

وعن هجرة بعض هؤلاء العلماء الذين اختاروا الرحيل النهائي عن الأندلس، فارِّين غير مضطرين أو مجتهدين غير داعين أو مؤملين النجاة غير متخلين. يقول المقَّري في أزهاره ذاكراً أمثلة منهم مع إشارات إلى تضاعيف وملابسات وتحركات جرت معهم، بعضها مجهول، بل وبعضها الآخر غامض، بل ومُحَيِّر:

"وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تِلِمْسان، منهم القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرق، صاحب (الشرح العجيب على مختصر خليل)، وكتاب (السياسة المُلَخَّص من مقدمة تاريخ ابن خلدون)، وفيه زيادات بديعات، وكتاب (روضة الإعلام، بمنزلة العربية من علوم الإسلام)، وغير ذلك. وارتحل من تلمسان إلى المشرق، وسنُلِمُّ بذكره. ومنهم بنو داود المذكورون في فَهْرَسَة الشيخ بن غازي[١]، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غرناطة، ولكن لما رأوا استطالة العدوّ عليها، وأنّه آخذها لا محالة، قَوَّضُوا رِحالهم عنها، فنزلوا بتلمسان المحروسة، وأُخِذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقريب، رحمهم الله. ومنهم الفقيه الأديب، حائز قصب السبق في كثرة النَّسْخ والكتابة، أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي، وسنذكره إن شاء الله، رحم الله الجميع. وممن خرج بفاس من العلماء، الفقيه أبو العباس البَقَنِّي، ثمّ رجع إلى غرناطة، وقضيته معروفة "[٢].

بل وربما كانت هجرة العلماء هذه أضعفت الموقف في مواجهة الاستسلام الذليل لأبي عبد الله الصغير ووفد مفاوضته مع الملكين الكاثوليكيين[٣] ـ برئاسة أو ممارسة القائد أبي القاسم عبد الملك والوزير يوسف بن كُماشة، وزَيَّنَت له ومهدت وجَرَّأته على ذلك، ثمّ التفاوض على معاهدة الاستسلام[٤] التي اعتبرها نصراً مؤزراً ـ تخاذلاً أو غفلة أو إعذاراً ـ وتمّ

---

(١) فهرسة ابن غازي، ٢٩، ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) أزهار الرياض، ١ / ٧١ ـ ٧٢ .

(٣) فرناندو أو فردناند FERNANDO V, FERDINAND (٩٢١هـ = ١٥١٦م) ملك أرغون ARAGON وزوجته إزابيل القشتالية ISABEL, ISABELLA (٩١٠هـ = ١٥٠٤م) ملكة قَشْتالة CASTILE, CASTILLA وليون LEON انظر: التاريخ الأندلسي، ٢٧٠، ٥٢٤ ـ ٥٢٩ .

(٤) نبذة العصر، ٤١ . نفح الطيب، ٤ / ٥٢٥ . أزهار الرياض، ١ / ٦٧ .

التوقيع عليها بتاريخ ٢١ محرم ٨٩٧هـ (٢٥ نوفمبر ١٤٩١م)[١]. وقد بذل له الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيلا كل الوعود والإغراءات والتوثيقات[٢]، كي يستريح الناس ويطمئنوا ويتوقوا إليه، ثم ينفذ ما يريد. وهم من الأصل لم يقصدوا الوفاء بأي شيء، بل ديدنهم الغدر وشيمتهم الخُلْف. وكان لديهم الاستعداد أن يعطوا أي شروط ووعود لأنّهم لا ينوون إلاّ الخلف والغدر، ويعطونها فقط لكي يتم لهم ذلك " وأظهر للمسلمين العناية والاحترام، حتى كان النصارى يحسدونهم في ذلك، ويقولون لهم: أنتم عند ملكنا أعز وأكرم منا. ووضع عنهم المغارم، حيلة منه وكَيْداً، ليغرهم بذلك ويثبطهم عن الجواز. فوقع الطمع لكثير من الناس، وظنّوا أنّ ذلك البَرْق ليس بخُلَّب، فاشترى كثير من المقيمين الرِّباع العظيمة، ممن أراد الذهاب للعُدوة، بأرخص الأثمان "[٣].

وتمّ التوقيع بالتاريخ المذكور على معاهدة الاستسلام الخانع الذليل الهزيل، على أن يكون تسليم غرناطة بعد ذلك بشهرين[٤]. ولكن الملك الصغير ومؤيديه سلموها قبل الموعد بـ ٢١ يوماً بإلحاح الملك الصغير نفسه الذي أرسل وزيره يوسف بن كُماشة ومعه هدية إلى الملك الكاثوليكي مع خمسمائة من الرهائن حسب المعاهدة وإعراباً عن الرغبة وسلامة الوجهة. وكانت الهدية مؤلفة من سيف ملوكي وجوادين عربيين مُسْرَجين بعُدَدٍ ثمينة!!! وتم الاتفاق مع الملك فرناندو ملك أراغون ARAGON وزوجته إيزابيلا ملكة قشتالة وليون اللذين بزواجهما (٨٧٤هـ = ١٤٦٩م) اتحدت تلك الممالك في مملكة واحدة ـ لتسلم غَرْناطة في الثاني من ربيع الأول ٨٩٧هـ (الثاني من يناير = كانون الثاني، ١٤٩٢م) أي لتسعةٍ وثلاثين يوماً من توقيع معاهدة الاستسلام[٥]. وتم ذلك فعلاً، دخول غرناطة

(١) أزهار الرياض، ١/ ٦٦. نفح الطيب، ٤/ ٥٢٥، نبذة العصر، ٣٩ ـ ٤٢. نهاية الأندلس، ٢٤٤.
(٢) التاريخ الأندلسي، ٥٥٢ وبعدها.
(٣) أزهار الرياض، ١/ ٦٧.
(٤) نهاية الأندلس، ٢٥٧.
(٥) نهاية الأندلس، ٢٥٧.

بتاريخ: ٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ[١].

وكان إلى جانب ذلك كله - وفي الوقت نفسه - يتم الاتفاق على معاهدة سرية تخص الملك الصغير وحاشيته[٢]، الذي ترك غرناطة بعياله وحشمه وأمواله وأتباعه إلى أَنْدَرَش ANDARAX من قرى البُشَرَّة أو البُشَرّات ALPUJARRAS،[٣] في يوم التسليم نفسه أو بعده. ثم بعد عام في أكتوبر = تشرين الأول، ١٤٩٣م ارتحل إلى المغرب مصطحباً معه من أتباعه نحو سبعمائة[٤] أو يزيد، إلى مليلية، ثم فاس[٥] ليستقر هناك ذليلاً يتكفف أولادُه - بعده - الناس[٦].

يقول المَقَّري في " أزهار الرياض ": " وأمر [فرناندو] - لعنه الله - بانتقال سلطان غرناطة أبي عبد الله إلى قرية أَنْدَرَش، من قرى البُشَرّة، فارتحل أبو عبد الله بعياله وحشمه، وأقام بها ينتظر ما يُؤْمَر به، ثم ظهر للطاغية أن يجيزه إلى العُدوة، فأمره بالجواز، وأَعَدَّ له المراكب العظيمة، وركب معه كثير من المسلمين، ممن أراد الجواز، حتى نزلوا بمليلية من ريف المغرب، ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس - حرسها الله - وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السؤال، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعزّ المذلّ المانح المانع، لا إلهَ إلاَّ هو "[٧].

ثمّ يذكر المَقَّري كذلك في " نفح الطيب " هذا الأمر فيقول: "وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلية إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه، متلهفاً على ما خلفه،

---

(١) نبذة العصر، ٤٢، أزهار الرياض، ١/ ٦٥، نهاية الأندلس، ٢٦٣ .

(٢) نهاية الأندلس، ٢٥١ .

(٣) نبذة العصر، ٤٣، ٤٧ . أزهار الرياض، ١/ ٦٧ .

(٤) نبذة العصر، ٤٧ .

(٥) نفح الطيب، ٤/ ٥٢٧ .

(٦) نفح الطيب، ٤/ ٥٢٩ . أزهار الرياض، ١/ ٦٧ .

(٧) أزهار الرياض، ١/ ٦٧ . انظر كذلك: نبذة العصر، ٤٣ .

وبنى بفاس بعض قصور على طريقة بنيان الأندلس، رأيتُها ودخلتُها، وتُوفّي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة، ودُفِن بإزاء المصلّى خارج باب الشريعة، وخَلَّف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد. وعَقِب هذا السلطان بفاس إلى الآن، وعهدي بذريته بفاس سنة [١٠٢٧هـ]، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ويُعَدّون من جملة الشحاذين، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم "[١].

ولا يغني أو يغير أو يخفف ذِلَّة الملك المخلوع وشناعة فعله، وبشاعة موقفه في حق دينه وأمته وبلده الكتابُ البليغ المليء صناعة وتكلفاً رائداً واضحاً مبنىً ومعنىً. ويورده المَقَّري في " أزهار الرياض" و" نفح الطيب " : " الذي بعث به لصاحب فاس في ذلك العهد، تمهيداً لعذره وتوطئة لمقصده، وتطارحاً على تلك الأبواب وتملّقاً، وتمسكاً بذلك الجناب وتعلقاً. وهو في الغاية من الفصاحة والبلاغة، من إنشاء الفقيه الأديب الشاعر الناظم الناثر الكاتب المُجيد البارع البليغ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العُقَيلي رحمه الله، وسماه: "الروض العاطر الأنفاس في التوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس"[٢].

حَاكمٌ هَزيل وعَدُوّ لا يُشْفَى لهُ غَليل

وهذه الأحوال المتردية التي نالت من البناء وصدعته، بسبب ضعف المعاني الإسلامية، سرى في بعض جهات المجتمع المسلم وبعض أفراده من ملوك هُزَّل تخاصموا فيما بينهم واستعانوا بالعدو على أهوائهم وكان هذا العدو متربصاً، والبطانة السيئة المحيطة بهم ودخول

---

(١) نفح الطيب، ٤ / ٥٢٩ .

(٢) أزهار الرياض، ١ / ٧٢ وبعدها. نفح الطيب، ٤ / ٥٢٩ وبعدها.

وكم كان من المهم لو استوفى المقري الحديث ـ أو ألف كتاباً مستقلاً ـ عن مُسْلِمة الأندلس بعد سقوط غرناطة، فلديه معلومات وفيرة، وضمنه كل ما يعرف عن هذا الموضوع.

بعضهم الإسلام ونصرته لغيرة وهم على غير قوة والزواج بالنصرانيات لم يَحْسُن إسلامهن لمجرد نزوة الجمال، من أمثال زواج أبي الحسن علي بن سعد (والد أبو عبد الله الصغير) من ثُريّا الرومية زوجةً ثانية[١]، وغدت حَظِيَّتَه، ومن أفراد حول ذلك لا نصرة لهم لهذا المجتمع المسلم الذي حملهم، وتوفرت مداخلات مختلفة، وأمور غير ذلك. ومن الخارج عدوّ صليبي متربص يَقْوى كل يوم ويتحد ويتوحد ـ عداوة للإسلام وأهله ـ ويهتم وتترسخ لديه فكرة إزالة الإسلام من الجزيرة الأندلسية، فيندفع نحو ذلك الهدف ويتجهز له ويُجَنِّد، ترعاه الصليبية وبابويتها، وَضَعُف العونُ من الإخوة في العالم الإسلامي، لا سيما في العُدوة المغربية، الذي اعتادته الأندلس وفقدته الآن. ومتابعة المواجهة شيئاً فشيئاً، كلما تسقط مدينة أندلسية يلجأون للتي بعدها وقطع المدد عن المسلمين بذَهاب المَداخل إليه من المغرب وتَوَقُّف أيُّ مدد وقوة تأتيهم، حيث سقط جبل طارق بيد النصارى إذ " استولى النصارى على جبل الفتح سنة ست وستين وثمان مئة، وعلى الحَمَّة تاسع المحرم يوم الخميس عام سبعة وثمانين، وفي عام خمسة وتسعين وثمان مئة استولى العدو على جميع بلاد الأندلس ما عدا غرناطة وبُشَّرَّتها"[٢]. وإن بعض هذه العوامل ربما لا تظهر أو قليلة الأثر أوقات القوة. ثم أتت هجرة العلماء أيضاً التي فتَّت في العضد.

وإن عوامل الضعف كان بعضها ماثلاً نوعاً مّا، لكن قوة البناء كانت تقاومه وجعلت أمر الأندلس يطول، ولم تنقطع طوال العهود سُنَّةُ الجهاد في الأندلس أبداً خلال القرون الثمانية التي عاشتها. ولكن تراكمات توفرت بعيدة وقريبة قديمة وجديدة داخلية وخارجية، كلها تجمعت لتأخذ بالأندلس إلى هذا المصير المأساوي والأحداث الكثيرة المُبيرة التي تلته، التي كان علاجها ممكناً وإيقاف تزايدها مُمَهَّداً، لحدٍ.

---

(١) نفح الطيب، ٤ / ٥١٢، ٥١٤، نبذة العصر، ١٠ .

(٢) أزهار الرياض، ١ / ٦٦ .

ومع كل ذلك فإنّ النصيب الأكبر في هذا كله كان للعوامل الخارجية، وهو المواجهة الصليبية برعاية البابوية وكنائسها التي كانت تهدد بالحرمان مَلِكاً ـ خَلْعاً ـ وشعباً، لمن لا يسهم في حرب المسلمين في الأندلس. وهي نفسها ـ لا سيما بعد أن قويت واتحدت واغتنت ـ أسهمت في زيادة الضعف الداخلي، سواء في إثارة الفتن أو توفير الدخلاء والعملاء والهزلاء، عن أي طريق، أو إنهاكها بالحرب وأخذ الأموال ومعاونة وتحريض ضد بعضهم بعضاً والعمل على تجريد المجتمع الأندلسي من كل أسباب القوة المادية والمعنوية. فكان لها نصيب واضح في نشر تلك المتاعب الداخلية والعمل على بث المشاكل والمشاغل، وما أكثرها. فكان لِكِلا العاملَيْن من هذه العوامل أثره: الداخلية والخارجية، متشابكين يزيد بعضها في بعض، يتنافسان في الإثقال ويترابطان في الأثر. وربما لولا العامل الداخلي لما فت الخارجي فيها ولولا الخارجي لما تهاوى الداخلي ولَمَا جرى النيل منه وبهذا الشكل المؤثر المدمر. فلكل منهما نصيبه في هذا المصير.

وقد بيّن بعض مؤرخينا الأندلسيين أسباباً لسقوط الأندلس. فيذكر أبو يحيى محمد بن عاصم (٨٥٧هـ) قاضي الجماعة بغرناطة ومؤلف كتاب " جنة الرضا في التسليم لما قدر اللهُ وقضى " في كتابه هذا: " من استقرأ التواريخ المنصوصة، وأخبار الملوك المقصوصة، علم أنّ النصارى ـ دمّرهم الله ـ لم يدركوا في المسلمين ثأراً، ولم يدحضوا]أو: يَرْحَضوا = يغسلوا[طعن أنفسهم عاراً، ولم يحرقوا]أو: يُخَرِّبوا [من الجزيرة منازل ودياراً، ولم يستولُوا عليها بلاداً جامعة وأمصاراً، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتَضْريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة، وتحريشهم بالكيد، والخِلابة بين حُماتها، في الفتن المبيرة"[١]. وهكذا فقد اتسع الخرق على الراقع، كما أشار

(١) جنّة الرضا، ٢/ ٢٩٦، ونقلها المقّري في نفح الطيب، ٤/ ٥٠٨، أزهار الرياض، ١/ ٥٠ . ويورد المقري في نفحه تعليلاً شبيهاً بذلك. نفح الطيب، ٤/ ٥٠٧ .

تلميذ ابن عاصم أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي (بعد ٩١٤هـ)[١].

ويضيف المقّري في وصف هذه الفتن الداخلية، فيقول: " وكان خلع أبيه أبي الحسن يوم الأحد ثالث جمادى الأخرى من عام تسعين وثمان مئة، خلع أخوه [وكان أبوه أبو الحسن خلع سنة تسعين وثمان مئة، خلعه أخوه يوم الأحد ثالث جمادى الآخر من العام]، ودخل أبو عبد الله المذكور، ابن أبي الحسن، ربض البيازين سادس عشر شوال عام واحد وتسعين، وافتكّ ملك أبيه من يد عمّه، وتوفي رحمه الله بفاس عام أربعة وعشرين وتسع مئة، ودفن بإزاء المصلّى، خارج باب الشريعة، وخلّف ولدين، اسم أحدهما يوسف، والآخر محمد، وعقبه الآن بها كما ذكرناه، والله وارث الأرض ومن عليها، والله خير الوارثين"[٢].

فسارت الأندلس إلى نهايتها وتلتها مآسٍ من نوع جديد، عاناها المسلمون تحت سلطة الكنيسة ومحاكم تفتيشها، برعاية البابوية التي تتمسَّح بالدين وهي تخوض في مستنقع آسن. وباسمه ارتكبت من الشنائع والفظائع والوقائع ما ندر مثيله في تاريخ الحياة الإنسانية، صبته ضد المسلمين في الأندلس التي أَحْيَوْها بهذا الدين وأناروها بتعاليمه وأَخْضَرُوها بشريعته، فكأن هذا كان عامل انتقام تتلذذ به وتفخر وتعتبره من أعمال الإيمان AUTO DE FE. وهي أنشأت ورعت وتابعت محاكم التفتيش قبل الأندلس في أنحاء متعددة من البلدان الأوربية بقسوة مُوغِلة للنصارى أنفسهم.

تَضْحية الوجهاء وحمايتُهم

وهؤلاء الذين بقوا في الأندلس من العلماء والوجهاء والأنجاد، فعلوا ذلك حمايةً لأمتهم

---

(١) أزهار الرياض، ٣/٣٢٢ .

(٢) أزهار الرياض، ١/٦٨ .

ورعاية لمسئوليتهم، وليس حماية لأنفسهم - ولم يكن من الصعب عليهم الهجرة - بل هم قد استمروا في رعاية الأمة وحماية العقيدة بالقدوة والتعليم والالتزام.

لكن رؤية البعض - ومنهم العلماء، حتى الذين اضطروا لأسباب إضافية إلى الرحيل أمثال الفقيه الأديب أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العُقَيْلي[1]، الذي رحل إلى المغرب برفقة سلطانها المخلوع أبي عبد الله الصغير - أن العيش مُسْلماً في ظل السلطة النصرانية بعد سقوط غرناطة غير ممكن، ولا قوة لهم على ردها، ويريد توفر مكان آمن لدينه وعقيدته ونفسه وأهله[2]، لعله يستطيع أن يعمل أيضاً للأندلس شيئاً، يكون به قد هوّن عليهم الهجرة، ولعله لولا ذلك لم يفعل. ولكن ليس هذا أفضل اختيار ولا أحسن قرار،

---

(١) نفح الطيب، ٤ / ٥٢٩ . أزهار الرياض، ١ / ٧٢ . نهاية الأندلس، ٤٩٢ .

(٢) نهاية الأندلس، ٤٩٣ . رحلة القلصادي، ٢٦ .

وكان الأولى بهذا الصغير المخلوع وحاشيته البقاء في الأندلس، لو كانت الأمة لديه مهمة، فإنّ بقاءه دليل على إخلاصه والحرص على أمته والتعويض عن تقصيره - وسوء مصير الأندلس ومصيره، الذي أسهم فيه إسهاماً كبيراً - يفوق كل دفاع. فما كان أغناه عنهم وعن أمثاله في الاعتذار مهما كان بليغاً، عن استسلامه الخانع الذليل الذي سطره له كاتبه الفقيه المذكور في نحو ثلاثين صفحة. (نفح الطيب، ٤ / ٥٢٩ - ٥٤٨ . أزهار الرياض، ١ / ٧٢ - ١٠٢)، مفلسفاً ومبرراً تركه للأندلس بعد تلك الخيانات والأنانيات ومواقف الجبن التي عَبَّرت عنه أمه عائشة بصوت المرأة المؤمنة المدركة القوي، حين بكى على تل الوداع الأخير بغرناطة المسمّى: تل البَذُول : PADUL

ابكِ مثلَ النساء مُلْكاً مُضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجالِ

وتسميه الإسبان حسرة (نظرة) الأندلسي الأخير (Sp. EL ULTIMO SUSPIRO DEL MORO, ENG. THE LAST SIGH OF THE MOOR).

نجا بنفسه وترك الأمة المسلمة بملايينها لأسوأ مصير، كان واضحاً من البداية. فهل يصلح مثل هذا الذي لا يهمه مصير الأمة، أن يتولى شئونها، بل أية مسئولية فيها.

ولقد فضحت هذه المرأة الواعية حقيقة ابنها. وهي إشارة إلى دور المرأة في المجتمع المسلم، وكذلك في أحداث الأندلس هذه بعد السقوط، حيث نالتها سياط محاكم التفتيش، إذ كانت تقوم بدورها مثل الرجال في توريث الإسلام وتعليمه للنساء والرجال. ولدينا الأمثلة الوفيرة في ذلك، سواء في نيلها هضم وظلم المحاكم أو ألوان الإساءات، بل كان ما نالته أشد في احتمالها، ثابتة أمام أنواع الموت. انظر: نهاية الأندلس، ٤٩٦ .

مهما كانت مبرراته ومسبباته وتأويلاته.

والعُقَيْلي هذا برر الذي جرى على يد أبي عبد الله الصغير مِن الذي ارتكبه في حق الإسلام وأهله في الأندلس مما يعد أنانية واستهانة وتضحية بالأندلس، هو ووزيره الذي يُجَمِّل لمليكه الخانع الهزيل مثل هذه التصرفات، ويتحمل من الإثم عِدْلَه والذم مِثْلَه والمسئولية قَدْرَه. وقد عُرِف بدفاعه عن مليكه المخلوع في رسالته المشار إليها سابقاً، وقد أوردها كاملة المَقَّري في كلٍّ من " نفحه "، و" أزهاره ". وكونه فقيهاً وأديباً وذا مهمات يجعله أشد إدانة حيث كان يُحَسِّنُ لمليكه المهزوم ما حدث له وما ارتكبه ويزوّق شناعاته. ومثل هؤلاء يتحملون عبء هذه النتائج، وإثمها الثقيل الواضح وذمها من الأجيال.

علما أنّه لم يهاجر جميع العلماء ولا جميع الناس، والذين بقوا ـ من الناس طبعاً ـ هم الكثرة الغالبة بملايينها، والكثرة من العلماء والأنجاد والشعراء ـ على ما يبدو ـ لم يهاجروا منها. وكان بإمكانهم وبكل سهولة لو أرادوا الرحيل والهجرة من الأندلس إلى المغرب أو غيره أن يفعلوا ذلك، بل كانت أمامهم في هذا الاتجاه المغريات والنجاة وسهولة الحياة، لكنهم فضلوا البقاء وقبول الابتلاء والصبر على اللأواء، تقرباً إلى الله وتضحية من أجل شريعته وحماية لدينه.

فمنهم من مات خلال أحداث السقوط أو بعده أمثال العلامة أبي عبد الله الحضرمي الشدَّالي (ذو القعدة ٨٩٦هـ = سبتمبر ١٤٩١م)[١]، والعلامة أبي عبد الله اللخمي الفخّار (أوائل شعبان ٨٩٧هـ = مايو ١٤٩٢م)[٢]، والشيخ الفقيه اللوطوري الذي ذكره ابن عبد الرفيع (الاثنين ٣ رجب ١٠٥٢هـ = ١٦٤٢م) في كتابه" الأنوار النبوية في آباء خير البرية"[٣].

(١) ثَبْت أبي جعفر البلوي الوادي آشي، ٢١٢ . من الآن يشار إليه ولو أحيانا بـ" ثبت".

(٢) ثبت، ٢١٣ ـ ٢١٤ .

(٣) المخطوطة، صفحة ٣٢٤ . نهاية الأندلس، ٤٠٤ . حاضر العالم الإسلامي، ١ /٢/ ٢٩ ـ ٣٠ .

ويبدو أنّ هذا الشيخ الصالح المجاهد (اللوطوري) عاش عمره تحت مقامع محاكم التفتيش. ومن الشعراء يمكن أن يَرِد الشاعر الفقيه عبد الكريم القيسي البَسْطي[1] (حول ٨٩٠هـ أو بعدها)، ومحمد رمضان[2] (بعد ١٦٠٣م).

ومنهم من قضى شهيداً - مثل موسى بن أبي الغسان - بعد الاستسلام الخانع الذليل الذي مرّ ذكره آنفاً. ولا بد أنّ أمثاله آخرون تقدموا واحتملوا، وغرناطة تغرغر وتستقبل مصيرها وتودع حياتها. أما بعد ذلك وفي سراديب محاكم التفتيش وردهاتها المظلمة ودهاليزها المتعفنة، فذاك فصل آخر بحاجة إلى دراسة موسعة وجمع للوثائق وإلمام بما عُرِف عنه. أرجو الله أن يوفق له ويهيّئ أسبابه وينجز كتابه.

التَّروّي أَوْلَى وَأَجْدَر

لكن مِن هؤلاء العلماء مَن تَعَجَّل بالهجرة من الأندلس - حتى قبيل السقوط - لَمَّا رأوا أنّه لا فائدة في البقاء، أو رغبةً في القيام بشيء يدفع بعض الأذى أو يخففه عن إخوانهم في الأندلس، أمثال أبي الحسن علي بن محمد بن علي البَسْطي القَلْصادي (٨٩١هـ = ١٤٨٦م)[3]، صاحب المؤلفات المتنوعة في الفقه والرياضيات والأدب، وأبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الغَرناطي بن الأزرق (٨٩٦هـ = ١٤٩١م)[4] العالم الاجتماعي، المعروف بالعديد من مؤلفاته في ذلك وغيره. وحاول هؤلاء العلماء أو بعضهم - بهجرتهم من

---

(١) انظر كتاب: البسطي آخر شعراء الأندلس.

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي، ٥٢٠. نهاية الأندلس، ٤٩٣ وبعدها.

(٣) نيل الابتهاج، ٢٠٩، درة الحجال، ٣/ ٢٥١. ثبت، ٣٢-٣٣، ١٠٤. نفح الطيب، ٢/ ٦٩٢. نهاية الأندلس، ٤٩١. الأعلام، ٥/ ١٠.

(٤) نفح الطيب، ٢/ ٦٩٩. أزهار الرياض، ٣/ ٣١٧. نهاية الأندلس، ٤٩٠. البسطي آخر شعراء الأندلس، ١٢٣-١٢٩، ١٣٠. الأعلام، ٦/ ٢٨٩.

الأندلس - فَتْحَ طريقِ نُصْرةٍ واستجلابَ مُعين، أو تكوين محطات تهديد أو تنظيم حملات جهاد. وقد حدث بعض هذا أو كلُّه في أوقات، خلال سقوط غرناطة وبعده، بتاريخ قريب أو بعيد.

ومع ذلك فجهود مُهاجِرة الأندلس - من علماء وغيرهم، خلال السقوط وبعده - إلى أيٍّ من بقاع العالم الإسلامي، لا سيما الشَّمال الإفريقي، الذي استوعب طوال قرون المأساة نحو (٩٠٪) منهم، لم تَخْلُ من خُطط ومحاولات جادة[١]، أو حتى مقترحات في هذا الشأن. كالتي أشار إليها أحمد بن قاسم بن أحمد ابن الفقيه قاسم شهاب الدين المعروف بالشهاب الحَجْري (الحَجَري) الأندلسي (تونس، بعد ١٠٥١هـ = ١٦٤١م)[٢]. ذَكر ذلك في كتاب

---

(١) مثل دعوة ابن الأزرق للأشرف قايتباي (٩٠١هـ = ١٤٩٦م) سلطان مصر المملوكي. نفح الطيب، ٢ / ٧٠٢، الأعلام، ٥ / ١٨٨.

ويظهر أنّ ابن الأزرق كان سفيراً إليه من مملكة ومسلمي غرناطة حمل إليه استغاثتهم، أو أنّ الأمير أبا عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزَّغَل (٨٩٥هـ = ١٤٩٠م) هو الذي أرسله. ولكن هذه السفارة لم تأت بثمرة ما حاسمة. نهاية الأندلس، ٢١٦، ٤٩٠. مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ٢٢٩.

(٢) كما يُعرف بـ"آفوقاي" وقد تكون مأخوذة من الكلمة الإسبانية (ABOGADO = محامي)، أو هي مختصر من اسمه. وهو مورسكي من جهات غرناطة من قرية أُحْجَر (UGIJAR) وإليها ينتسب. ولد وعاش في ظلمات محاكم التفتيش فأجاد اللغة الإسبانية، وغادر الأندلس سنة (١٠٠٧هـ = ١٥٩٨م) إلى مراكش حيث عمل مترجماً في بلاط أحمد المنصور الذهبي، رابع سلاطين الدولة السعدية بالمغرب الأقصى وولده مولاي زيدان (١٠٣٧هـ = ١٦٢٧م)، وسَفَر للسلطان إلى بعض البلدان الأوربية، وناقش علماء اليهود والنصارى. وفي مصر - أثناء مروره بها، خلال ذهابه أو إيابه وهو متوجّه للحج، والأغلب خلال عودته منه - دَوَّن مناقشاته في كتاب "ناصر الدين على القوم الكافرين"، وقد ضمّنه اختصار أو بعض مؤلَّفه "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب" الكتاب المفقود. وفي العودة استقرّ في تونس فكانت له صلة بأميرها العثماني الداي مراد. وتَعَرَّف على مورسكي آخر مهاجر من الأندلس حديثاً هو الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي (أواسط ق ١١هـ = أواسط ق ١٧م) الشهير بالرَّبَّاش من نولش من قرى غرناطة، ألّف كتاباً بالإسبانية، عن الجهاد بالمدافع فترجمه الشهاب إلى العربية وألحقه فصلاً عن المورسكيين، وسمى الكتاب "العزّ والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع". والظاهر أنّه - على تردّد قوي - وهو بمصر التقى بالمَقَّري صاحب "نفح الطيب"، و"أزهار الرياض".

انظر: مخطوطة كتاب العزّ والرفعة والمنافع - الخزانة العامة بالرباط، رقم ج ٨٧، الصفحات: ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٩. وانظر كذلك: كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين، ٥ - ٦، ١٣١، ١٥١. والطبعة الجديدة، مدريد. نهاية الأندلس، ٥٠٢ - ٥٠٤. الأعلام، ١ / ١٩٨.

ما يزال مفقوداً "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب" . ونُقلت منه عبارات أو فقرات أو صفحات في بعض المصادر حَفِظت تلك المعلومات القيِّمة، منها عبارة مهمّة جداًّ تخص ذلك، وردت في كتاب" نزهة الحادي" : "أن جزيرة الأندلس استردادها من أيدي الكفار سهل واسترجاعها منهم قريب . ولما دَخَلْتُ في أيام المنصور مراكُشَ، وجدتُ عنده من الخيل نحواً من ستة صحتها: [تسعة وعشرين ألفاً]، فلو تحركت هذه لِفَتْحِها لَفَتَحَتْها ولاستولى عليها في الحين"[1]. ومثل هذا الكلام الذي ذكره عن المنصور الذهبي (١٠١٢هـ = ١٦٠٣م) ذكره عن ابنه مولاي زيدان الذي تولّى الحكم بعد أبيه المنصور . فقد ذكر عنه أنّه " كان للسلطان مولاي زيدان بمدينة مراكش من المدافع شيء كثير ... عام خمسة عشر ستة وألف أو قريباً منها وأمر مولاي زيدان بإخراج المدافع للمحلّة وسمعتُ مِن غير واحد أنّ الجملة كانت ثمانين مدفعاً "[2].

الإِقَامَةُ أَجْدَى وَأَثْمَر

لكن كانت هنالك أسباب أكبر ومبررات أقوى لبقاء هؤلاء العلماء في الأندلس نفسها، ليواجهوا تلك السلطة الباغية وإجبارها على خلع هذا العنف وانتزاع الحقوق من مخالبها الدموية(وقد يُقَلِّمونها)، وإزالة هذه الجاهليات المتسلطة وحملها على الإقرار والاستسلام لبقاء المسلمين في الأندلس، يمارسون عقيدتهم ويكوِّنون مجتمعات خاصة بهم .

---

(١) نزهة الحادي، ١١٨ . كذلك: نهاية الأندلس، ٥٠٣ . وانظر مقال عنان: " من تراث الأدب الأندلسي الموريسكي: كتاب العزّ والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع "، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، (١٩٧١م)، ١٦ / ١١ - ١٩ . ونقل هذا المعنى ابن العَيّاشي: أبو عبد الله محمد بن العياشي (١١٣٩هـ = ١٧٢٦م) في كتابه: زهر البستان في نسب أخوال سيدنا المولى زيدان (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم د ٢١٥٢)، ١٠٧ .

(٢) مخطوطة كتاب العزّ والرفعة والمنافع، ٢٥٣ - ٢٥٤.

فإنّه وإن كانت السلطة الجديدة - غير مسلمة وظالمة - معادية، فإنّ الشعب مسلم سَلَفت منه أيادٍ بيضاء، أنهاراً من الخير تفيض بالإنسانية وتموج بالعلم والحرية، لكل غير المسلمين في الأندلس من البداية إلى النهاية. وكان على العلماء خاصة حساب مصير هذا المجتمع المسلم وربط حياتهم بحياته والبقاء معه. إذ كيف يَترك القائدُ المهزومُ الأبيُّ جيشه، مهما كانت الأسباب وما دام مخلصاً لذلك. وما دمنا لا نتهم العلماء الذين هاجروا بعدم الإخلاص ولا نخدش شيئاً من دينهم - حاشا لله تعالى - ولكن اجتهادهم وتصرفهم لا وجه لهما، فإننا نلومهم على هجرتهم.

ولعل بقاءهم في الأندلس ليس فقط تقوية للمسلمين وتخفيفا من بعض شجونهم وتمكينهم من أُمورهم، بل لأُمور كثيرة، منها - وحتى لو لم يكن أكبرها - أن المنهزم منهم ومن مجتمعهم ممكن - وبهذا الدين العظيم - أن يتحوّل إلى منتصر، على الأقل يحمي حاله ويصد عدوه ويحيط نفسه تجاهه بالهيبة والمحاسبة والمحاولة.

ومهما يكن القول والحال والأحداث، فإذا وُجِد أي مبرر لرحيل هؤلاء السلاطين المهازيل - الذين شارك أحدهم بأفعاله حتى في مصيره، فضلاً عن مصير الأندلس وأهله والوجود الإسلامي كله هناك - فلا وجود لأي مبرر على الإطلاق لرحيل أيٍّ من هؤلاء العلماء، بل على العكس، لا بد على مَن كان منهم خارج الأندلس أن يعود إليه، عاملاً سانداً مجاهداً. لا بل لعله كان من المهم أن يقوم مِن علماء المغرب خاصة، مَن يكوِّن رابطة أو جبهة أو جمعاً يَدْرس هذا الأمر ويمد أهل الأندلس بما يستطيع - ولعل منهم مَن فعل بعضاً من ذلك - أو يذهب إليهم مساهماً قائماً قادماً بما يتحفهم ويُنْهِضهم ويقويهم. وإن كانت صورة ماجريات (مُجريات) الأحداث ما زالت بحاجة إلى تحرٍّ ومتابعة لاستجلاء الحال بشكل أكثر، بمصادر أوفر، كيما تكون أقرب إلى الواقع وحقائقه التي ما زالت غائبة في كثير من جوانبها المهمة.

قائمة نَسَب مُفَصَّلة لملوك غَرْناطة المُتَأخرين*

سعد بن محمد بن يوسف بن محمد الغنيّ بالله

(المَريَّة، سنة ٨٦٨هـ= ١٤٦٣م)

نازعه وثار عليه ولدُه أبو الحسن عليّ

وبعد أحداث وفتن ترك الحُكْمَ لابنه هذا: أبي الحسن.

أبو الحسن علي الغالب بالله (المُنَكَّب، سنة ٨٩٠هـ= ١٤٨٥م)

تزوّج أوّلاً من ابنة عمّه محمد (الثامن) الأيسر عائشة الحرة. خرج عليه أخوه الزغل، فتنازل له.

ثمّ تزوّج بعدها من ثريا الرومية.

يوسف أبو الحجاج

أبو عبد الله محمد (الثاني عشر) الزغل (تلمسان، سنة ٨٩٩هـ= ١٤٩٤م). أرسل سفارات استغاثة إلى الشمال الإفريقي وإلى الأشرف قايتباي(مصر). خرج على أخيه أبي الحسن الذي تنازل له. وفي النهاية تنازل الزغل لفرناندو سنة(٨٩٥هـ)، وعبر إلى المغرب، إلى وهران مستقراً في تلمسان بالجزائر، حتى وفاته.

أبناء أبي الحسن من عائشة الحرة: يوسف أبو الحجاج — محمد (الحادي عشر)، أبو عبد الله الصغير، آخر ملوك غرناطة.

أبناء أبي الحسن من ثريا الرومية: سعد — نصر

وَقَّع معاهدة الذل والاستسلام والاستيلاء(٨٩٧هـ= ١٤٩٢م)، وغادر نهائيًّا إلى المغرب (٨٩٩هـ= ١٤٩٣م) إلى مليلة، ثم فاس، مستقراً فيها. وتوفي هناك سنة (٩٢٤هـ= ١٥١٨م) أو بعدها.

---

* انظر: نفح الطيب ٤/ ١١، ٥٢٤، ٥٢٩. أزهار الرياض، ١/ ٦٨. نبذة العصر، ١٢، ٦. نهاية الأندلس ١٦٧، ١٩١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢١٦ وبعدها ٢٢٧-٢٢٨، ٢٨٧، ٢٧٨.

وإذا كان لسلاطين غَرْناطة المتأخرين ـ ومَن في معيتهم ـ أن يهاجروا، أمثال: أبي عبد الله محمد (الثاني عشر) بن سعد الزَّغَل[1]، الذي استسلم للملك النصراني فرناندو (فردناند)

---

(١) يقول المقّري: " ولما رأى ذلك السلطان الزغل وهو أبو عبد الله محمد بن سعد عم سلطان غرناطة بادر بالجواز لبر العُدْوة فجاز لوهران ثم لتلمسان واستقرّ بها. وبها نسله إلى الآن، يعرفون ببني سلطان الأندلس" . نفح الطيب، ٤ / ٥٢٤ .

وكذلك يقول: " فإنه طَرَقت الدهياء ذلك القُطْرَ الذي ليس له في الحسن مثال ونَسَلَ الخَطْبُ إليه من كل حَدَب وانْثال، وكلّ ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه ومقدَّميه وقضاته وأُمرائه ووزرائه. فكل يروم الرياسة لنفسه ويجر نارَها لقرصه، والنصارى ـ لعنهم الله تعالى ـ يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد ويضربون عَمْراً بزيد، حتى تمكنوا من أخذ البلاد والاستيلاء على الطارف والتلاد " . نفح الطيب، ٤ / ٥٠٧.

ويؤكد ذلك المؤلف المجهول لكتاب " نُبْذَة العصر " فيقول: " ثم خرج الأمير محمد بن سعد من مدينة وادي آش تابعاً لصاحب قشتالة، فلما لحقه بايعه ودخل في ذمّته وتحت طاعته على أن يعطيه مدينة وادي آش وكل مدينة وحصن وقرية كانت تحت طاعته وحكمه. فأجابه إلى مطلبه ورجع معه إلى وادي آش وهو فرح مسرور فدخل العدو وقبض قصبتها واستولى عليها في العُشْر الأول من شهر صفر عام خمسة وتسعين وثمانمائة ودخل في ذمته جميع فرسان الأمير محمد بن سعد وجميع قواده وصاروا له عوناً على المسلمين وطوعوا له جميع البلاد والقرى والحصون التي كانت تحت طاعتهم من مدينة المَرِيّة إلى مدينة المُنَكَّب، ومن مدينة المنكب إلى قرية البَذُول فقبض صاحب قشتالة ذلك كله من غير قتال ولا حصار ولا تعب ولا نَصَب فإنّا لله وإنّا إليه راجعون وجعل في كل قَصَبة قائداً نصرانيًا مع جماعة من النصارى يحكم في ذلك الموضع.

"وفي هذا الشهر خلصت جميع بلاد الأندلس لصاحب قشتالة ودخلت تحت طاعته وتَدَجَّن جميع أهلها ولم يبق للمسلمين في الأندلس غير مدينة غرناطة وما حولها من القرى خاصة.

"وزعم كثير من الناس أنّ الأمير محمد بن سعد وقواده باعوا من صاحب قشتالة هذه القرى والبلاد التي كانت تحت طاعتهم وقبضوا منه ثمنها وذلك على وجه الفرصة والانتقام من ولد أخيه الأمير محمد بن علي وقواده لأنّهم كانوا في غرناطة ولم يكن تحت طاعتهم غيرها وكان في صلح العدو فأراد بذلك قطع علائق غرناطة لتهلك كما هلك غيرها " . نبذة العصر، ٢٧ ـ ٢٨ .

ويقول المقري أيضاً: " ولا خفاء بما كان لملوك المسلمين في الأندلس والعُدْوة على النصارى ـ دمرهم الله ـ في الاستطالة والغلبة، حتى وقع التخاذل والتدابر، فانعكس الأمر. وقد حكى غير واحد أنّ دُنْ شَانْجُهْ بن دن الفونش استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينيّ ولاذ به ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى، ولقيه بصخرة عَبّاد، من أحواز رُنْدَة، فسلم عليه. ويقال: إن أمير المسلمين لَمّا فرغ من ذلك طلب بلسان زَناتة الماء ليغسل يده به من قُبلة الفنش أو مصافحته " .

أزهار الرياض، ١ / ٦١ ـ ٦٢ . نفح الطيب، ٤ / ٣٨٥، ٥ / ١٢٠ وبعدها. كذلك: التاريخ الأندلسي، ٥٣٩ .

وهذه الحادثة التي يُشير المقري إليها في " أزهار الرياض" و " نفح الطيب" كانت سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م). وذلك أنّ شانجه SANCHO (الرابع) ثار على أبيه الفونش ALFONSO (العاشر) أو العالم. والمقري هنا، يقارن بين ما كانت عليه الأندلس أيام عزّها بالتزامها الإسلامي وقوة بنائها وبين ما صارت إليه نتيجة البعد عن ذلك وما=

الكاثوليكي سنة (٨٩٥هـ= ١٤٩٠م) ورحل مع مجموعة من الناس والأتباع والحاشية إلى وهران ثمّ تلمسان. وأبو عبد الله الصغير (محمد بن علي أبي الحسن) الذي وَقَّع معاهدة الاستسلام (التسليم) في ٢١ محرم ٨٩٧هـ= ٢٥ / ١١ / ١٤٩١م[١] والاستيلاء بعده بقليل(في ربيع الأول ٨٩٧هـ= ٢ / ١ / ١٤٩٢م)، ورحل عن الأندلس نهائيًّا سنة ٨٩٨هـ (١٤٩٣م)، عَبَر إلى المغرب مستقرًّا في فاس[٢]. إذا كان لهؤلاء وأمثالهم أي مبررات يمكن البحث عنها أو أسباب أقوى في دوافعهم للهجرة وظروفهم تبرر رحيلهم عن الأندلس أو أن يقال مثل ذلك أو قريب منه عن عموم الناس بسبب أو لغيره، فليس الأمر سواء مع علمائهم وأعلامهم ووجهائهم[٣]. فهم قادة الأمة وورثة النبوة وقدوة المجتمع، ومهمتهم ومؤهلاتهم

= آلت إليه من التدابر والتهاتر والتخاصم. فليس التناكر والتنكر الذي أنتج فقط رحيلهم هذا، بل وأنتج كذلك خصوماتهم التي أظهرت أنانيتهم وكشفت عجزهم وأورثت كل ذلك وما صاحبها من أمثاله ومعدنه.

(١) ولا بد أنّ المفاوضات كانت قد بدأت قبل ذلك، ربما مما يزيد عن شهرين. أي في شهر ٩ أو ١٠ / ١٤٩١. انظر: نهاية الأندلس، ٢٤٤.

وهنا يفاجئنا شيء غريب وعجيب وكئيب، ذلك بأن مفاوضات مدريد الشهيرة كانت في سبتمبر ـ أكتوبر ١٩٩١ أي بعد مفاوضات الاستسلام أو تسليم غرناطة بـ ٥٠٠ عام تماماً بتمام. فهل أتت هذه عفوا، أم أنّها مقصودة؟ ليقولوا لنا عدّة أشياء، منها تذكيرا بها ومنها الرضا بالإذلال في (؟؟؟) ومنها إنذار بأن تكون فلسطين كالأندلس!!!

(٢) نبذة العصر، ٤٣.

(٣) يقول صاحب " نبذة العصر ": " وزالت حرمة الإسلام عن المسلمين وقُطع لهم الأذان في الصوامع والاجتماع للصلوات في المساجد ومن أراد الصلاة فعلها في داره وأمر على كبار غرناطة بالخروج من المدينة إلى الأرباض وقبض على أولاد السِّراج وأولاد بيرة وأولاد طفير، ثمّ بادر المسلمون بالجواز إلى العدوة من المراسي". نبذة العصر، ٤٨.

وفي سنة سقوط غرناطة، وبعد الاستيلاء(٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ= ٢ / ١ / ١٤٩٢م) بشهور، هاجر إلى المغرب الكثير من أعلام غرناطة ووجهائها وعليتها وأنجادها. وكذلك أُسَر بأكملها، من أمثال بني سِراج مع أتباعهم. وهاجرت مجموعة من أهلها يتزعمهم القائد أبو الحسن علي المنظري، واستقروا في موقع يعرف الآن بمرتيل (٨٩٨هـ) قريباً من تطوان. نهاية الأندلس، ٣١١.

وظهر من أسرة أبي الحسن المنظري الكبير حفيده المنظري الصغير الذي غدا حاكم مدينة تطوان وتزوّج امرأة مشهورة في التاريخ، عائشة بنت علي بن راشد، وأبوها شخصية لامعة في الجهاد. وعُرِفت عائشة هذه بالحرة، وتولّت حكم المدينة بعد وفاة زوجها، ثمّ تزوّجها سنة (٩٤٨هـ) السلطان أحمد الوطاسي. النبوغ المغربي، ١ / ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

ومواصفاتهم ومسئولياتهم في جمعها ومواساتها وتحصينها وقيادتها وتوجيهها ومنهم شهداؤها. فلماذا بادروا بالهجرة؟ فهل يئسوا من الناس أو أنّ قُوَّتَهم هَوَت تجاه السلطة النصرانية الكنسية وغدرها وطغيانها ووحشيتها؟ لكن الأمر لم يكن كذلك. فقد ثبت هؤلاء المسلمون ـ رغم هجرة بعض العلماء الأعلام والأنجاد والسلاطين والفرسان ـ وظلوا أوفياء لهذا الدين أقوياء به على احتمال الأذى والصبر على الاضطهاد وبذل الدماء، على مدى قرون طويلة ثقيلة حالكة السواد، وأي سواد.

صيغَة جديدة للمُواجهة

ورغم ما كان يظهر من تماسك السلطة الإسلامية في الأندلس - أواخر أيام غَرْناطة - إلاَّ أن تماسك الشعب، الذي كان بدوره يمد السلطة بذلك ويؤثر فيها تأثيراً واضحاً ويوجهها نحوه، كان أكبر وثباته كان أشد أمام الفتنة والاختلاف والحيرة والتشتت، واجه وقاتل بقوة. والمعارضة والرفض والإباء في قبول الاستسلام للعدو كان آتياً - بشكل رئيسي واضح - من الجماهير ووجهائهم وأعلامهم وعلمائهم وأنجادهم وقيادتهم الحقة. ثم بعد ذلك - أمام الطمي الجارف من العداء والبلاء - أصروا على بقائهم[1]، وذلك طبيعي، لا يكون غيره أو أقل منه، اتخذوا كل أسلوب للحفاظ عليه وقَدَّموا السبل المتنوعة في إبقائه حيًّا في النفوس. كان انشغالهم في المحافظة عليه في نفوسهم وعلى الجماعة ترتبط ببعضها لتقف في مصطرع واضح معلوم. واحتالوا على كل الأساليب بابتكار مواجهة نوعيةٍ فيه. من ذلك قضية إبطان الإسلام[2]، وإظهار

(١) وكان هذا من أجل الحفاظ على الإسلام ديناً، قبل كل شيء. وكذلك كل ما يتعلق به من موطن وحضارة ومجتمع. وأَمرُ الحفاظ على الإسلام مقدَّم دوماً لدى المسلم، وبه تُحمى مواقعه. وهذه الرعاية للإسلام ديناً مقدمة، مأثرة معهودة، خلال أجيال الأمة.

(٢) مما أورده المؤلف المجهول: " فلما رأى ملك الروم أن الناس تركوا الجواز وعزموا على الدَّجْن والاستيطان والمُقام في الأوطان أخذ في نقض الشروط التي شَرَطوا عليه أولَ مرة ولم يزل ينقضها شرطاً شرطاً ويحلها فصلاً فصلاً إلى أن نقض جميعها وزالت حرمة الإسلام عن المسلمين وأدركهم الهوان والذلّة واستطال النصارى عليهم وفُرضت عليهم الفروضات وثَقُلت عليهم المغارم وقُطِع لهم الأذان في الصوامع وأَمَرَهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الأرباض والقرى ... فخرجوا أذلة صاغرين، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينه كُرْهاً وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول: (لاَ إله إلاَّ الله مُحَمَّد رسول الله [صلّى الله عليه وسلّم]) جهراً إلا مَن يقولها في نفسه وفي قلبه أو خفية من الناس، وجُعِلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن!! فكم فيها من عين باكية! وكم فيها من قلب حزين! وكم فيها من الضعفاء والمعدومين لم يَقْدِروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين!! قلوبهم تشتعل ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً مدراراً وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير ويشربون الخمر التي هي=

النصرانية[1]، وابتداع لغة خاصة بهم هي الأعجمية (ALJAMIADO) وهي اللغة الإسبانية

=أم الخبائث والمنكرات فلا يَقْدِرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم مَن فَعَل ذلك عُوقب أشد العقاب! فيا لها من فجعة ما أَمَرَّها ومصيبة ما أعظمها وأضرها وطامة ما أكبرها! عسى الله أن يجعل من أمرهم فرجاً ومخرجاً إنّه على كل شيء قدير " نبذة العصر، ٤٤ ـ ٤٥ . كذلك: أزهار الرياض(١ /٦٨ ـ ٦٩) للمقري الذي يبدو أنّه نقل عن " نبذة العصر" ببعض تصرّف. فيقول المقري: " وكان من قدر الله تعالى أنّهم لما وصلوا مدينة فاس أصاب الناس بها شدة عظيمة، من الجوع والغلاء والطاعون، حتى فر كثير منها بسبب ذلك، ورجع بعض أهل الأندلس إلى بلادهم، فأخبروا بتلك الشدة فتقاعس من أراد الجواز، وعزموا على الإقامة والدجن، ولم يجز النصارى أحدا بعد ذلك إلاّ بالكراء والمغرم وعشر المال، فلما رأى الطاغية أنّ الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن، أخذ في نقض الشروط التي اشترط عليه المسلمون أول مرة، ولم يزل ينقضها فصلا فصلا، إلى أن نقض جميعها، وزالت حرمة المسلمين، وأدركهم الهوان والذلة، واستطال عليهم النصارى، وفرضت عليهم المغارم الثقيلة، وقطع عنهم الأذان في الصوامع، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض والقرى، فخرجوا أذلة صاغرين، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصّر، وأكرههم عليه، وذلك سنة أربع وتسعين ومئة، فدخلوا فيه كرها، وصارت الأندلس كلها دار كفر، ولم يبق من يجهر بكلمة التوحيد والأذان، وجعلت في المساجد والمآذن النواقيس والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون، لا رادّ لما قضاه الله الملك الديّان " . أزهار الرياض، ١ /٦٨ ـ ٦٩ . كذلك يقول المقّري: " ثم بعد هذا كلِّه كان مَن أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خُفْية ويصلي، فشدّد عليهم النصارى في البحث، حيث إنّهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك " . نفح الطيب، ٤ /٥٢٧ ـ ٥٢٨. ثمّ يقول المؤلف المجهول: " فلما نظر الروم إلى المسلمين قد شَرَعوا في الجواز ورحل أكثرهم وما بقي منهم إلاّ القليل أظهروا لهم حسن المعاملة فوعد الباقون من المسلمين أن يدخلوا في دين النصرانية، عام أربعة وتسعمائة، فدخلوا فيه كُرهاً إلاّ من أخفى الإسلامَ، وضُربت النواقيس في صوامعها ونُصبت الصلبان في جوامعها وأُكِلت الجيف وشُرِبت الخمور! ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم لمثل هذا فلتبك كل عين فياضة بدموع الدم. نسأل الله تعالى السلامة والعافية في الدين والدنيا والآخرة، إنّه على كل شيء قدير " . نبذة العصر، ٤٩ .

(١) وقد أُجبروا عليها وإلاّ فالرحيل ـ بادئ الأمر ـ ثم استُبدل الرحيل بالقتل إن لم يفعلوا، بل وكذلك الحرق والإبادة الجماعية والإفناء. فيقول المؤلف المجهول: "وقد كان بعض أهل الأندلس قد امتنعوا من التنصر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم كأهل قرى وَنْجَر والبُشَرّة وأَنْدَرَش وبَلْفيق، فجمع ملك الروم عليهم جموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عَنْوَة بعد قتال شديد، فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم ونصَّرهم واستعبدهم إلاّ أنّ أناساً في غربية الأندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا إلى جبل منيع وَعْر فاجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطمع في الوصول إليهم =

=كما فعل بغيرهم، فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه وردّه على عقبه ونصرهم عليه بعد أكثر من ثلاثة [ثلاث] وعشرين معركة، فقَتَلوا من جنده خلقاً كثيراً من رجال وفرسان وأقناد [مراء] " نبذة العصر، ٤٥ . ولم يتوفر لي شرح أوفى عن هذه الأحداث التي يشير إليها المقري كذلك بقوله: " وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا الناس فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بَلْفيق وأنْدَرَش وغيرهما فجمع لهما العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً إلا ما كان من جبل بَلَلَنْقَةَ فإنّ الله تعالى أعانهم على عدوّهم وقَتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة " . نفح الطيب، ٤ /٥٢٧ .

والإعدام كان يصدر على أمور عادية . انظر: نهاية الأندلس، ٣٢٦ -٣٢٧ .

وربما كان يَظنّ أنّ تنصيرهم سهل، وكذلك تهجيرهم فلما اصطدم بصخرة الإيمان القوية اتخذ كلّ أساليب الإبادة والتنكيل والتقتيل. انظر: ناصر الدين على القوم الكافرين، ٣٤ . (مدريد)، ٢٤ .

ويقول المقري: " وتَعَرَّفْنا من غير طريق وعلى لسان غير فريق أن قطر الأندلس ـ نَظَر الله إليه وعاد بنوره عليه ـ طَرَقَ أهلَه خطبٌ لم يجرِ في سالف الدهر، وذلك أنّهم أُكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضي في الظاهر الكفر ولم يُقْبَل منهم الأَسر وكان الابتداء في ذلك من أهل غرناطة ـ جدّد الله رسمها وأعاد إلى بلاد المسلمين اسمها ـ وخصوصاً أهل واسطتها لقلّة الناس وكونهم من الرعية الدهماء مع عدم العصبية بسبب اختلاف الأجناس، وعَلِم النصارى ـ دمرهم الله ـ بأنّ مَن بقي من المسلمين إنما هم أُسارى في أيديهم وعيال عليهم، وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل وعتوا فيهم بالخروج والجلاء، فلم يبق من المسلمين طائل ونقض اللعينُ طاغيةُ النصارى عهودَه ونشر بمحض الغدر بنودَه من غير معذرة لفَّقها ولا كذبة في معرض العذر نمَّقها إلا أعجازاً من الكفر وصدوراً من الغيظ والمكر وخالص الغدر جمعها وفرقها " . أزهار الرياض، ١ /٦٩ .

وزيادة الخبر: " أنّ طاغية قشتالة وأرغون ـ قصمه الله ـ صدم غرناطة صدمة، وأكره على من بقي بها من الأمة؛ بعد أن هيض جناحهم، وركدت رياحهم؛ وجعل بعض جنده الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال، والطاغية يزدهي في الكفر ويختال؛ ودين الإسلام تنتثر بالأندلس نجومه، وتطمس معالمه ورسومه؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه، لكان كلّ مسلم يندبه ويبكيه؛ فقد عبث البلاء برسومه، وعفّى على أقماره ونجومه؛ ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام، وتوعّد بالنكال والمهالك العظام؛ ومن كان يعذّب في الله بأنواع العذاب، ويدخل به من الشدة في باب ويخرج من باب؛ لأنساكم مصرعه، وساءكم مقطعه؛ وسيوف النصارى إذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلولة، وأفواه الذاهلين محلولة؛ وهم يقولون: ليس لأحد بالتنصر أن ينطل، ولا يلبث حينا ولا يمهل؛ وهم يكابدون تلك الأهوال، ويطلبون لطف الله في كلّ حال " . أزهار الرياض، ٧٠ ـ ٧١ .

وهذه سياستها المتبعة دوماً الموسومة بها، ولذلك فإنّ السلطات النصرانية بذلت ـ باديء ذي بَدْءٍ ـ الوعودَ =

القديمة القَشْتالية[1]، التي تعلّموها محادثة، لكنهم كتبوها بأحرف عربية وبلغة خليط. وكان الأمل - سيراً مع هذا الاتجاه - أن يحدث العكس، وأن يكتبوا العربية بحروف لاتينية، اختفاءً بذلك عن أعدائهم كي لا يَعرفوا حقيقته[2]. ولكن لعل ذلك كان يصعب تنفيذه.

كما تعلّموا اللغة القَشْتالية وأتقنوها بشكل لا يُعرَفون بغيرها، بل حافَظوا على أرضهم ومواقفهم ومواطنهم، مما جعلهم لا يتجهون إلى الهجرة. فهل كانوا أوعى أو كان لهم من

= والإغراءات والأموال، ولَمّا لم يتم لها ذلك نزعت جلدها وظهرت على حقيقتها متنمرة متجبرة متبربرة، فواجهت المسلمين بكل أسلوب ابتدعته وكل شنيع عرفته وأي حال صنعته. وكان الحرق - وكم تمّ جماعيًّا - للنساء والرجال والشيوخ والأطفال، يُحتفل به على أنه من مستلزمات الإيمان، يستمتعون بمنظره ويفرحون لرؤيته ويتعطّشون لأمثاله. انظر: الأنوار النبوية في آباء خير البرية [مخطوط]، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٢ - ٣٣٣ . العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع [مخطوط]، ٢٥٣ - ٢٥٤ . ناصر الدين على القوم الكافرين (مدريد)، ٢٤ - ٢٥ .

فيقول الشهاب الحَجْري (الحَجَري) الأندلسي المورسكي الذي وُلد أيام ظلمات محاكم التفتيش، وقد شاهد مثل هذه الأحداث بنفسه، يقول هذا الشّهاب: " ثم ذكرتُ كيف كان حال المسلمين بين النصارى بعد أن أدخلوهم جميعاً - كُرْهاً منهم - في دينهم وكانوا يتعبّدون بدينين: دين النصارى جهراً، ودين المسلمين في خفاء من الناس. وإذا ظهر على أحد شيء من عمل المسلمين يَحْكُمون فيهم الكفار الحكم القوي: يَحْرِقون بعضهم كما شاهدتُ حالهم أكثر من عشرين سنة قبل خروجي منها " . ناصر الدين على القوم الكافرين، ١٨، كذلك: ٢٥، ٢٩ (مدريد)، ١١، كذلك: ١٨، ٢٤ - ٢٥، ٣٣ .

ويقول محمد بن عبد الرفيع الأندلسي المورسكي الذي عاش تلك الأحداث، وهو شاهد عِيان كذلك: " وعدو الدين يَحرق بالنار مَن لاحت عليه أمارة الإسلام ويعذبه بأنواع العذاب. فكم أَحرقوا وكم عَذبوا وكم نَفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم!!! فإنا لله وإنا إليه راجعون " . الأنوار النبوية في آباء خير البرية [مخطوط]، ٣٢٧ .

(١) انظر مثلاً: نهاية الأندلس، ٣٧٩، ٤٩٥، ٤٩٨ .

(٢) ولا يبعد أن يكون الأمر جرى بهذا الاتجاه من أجل الاعتزاز بالحرف العربي - أساس اللغة العربية المكتوبة - كي لا تضيع، رغم صعوبة ذلك وجرّهم إلى الكشف والظهور، أو لأسباب أخرى.

الظروف إلى البقاء ما هو أدعى، أم أنّ العلماء كانوا أظهر أم أنّهم أكثر تعرضاً للخطر[١].

وفي الأساس أن العلماء الذين هاجروا ـ قبل السقوط ـ كان بقاؤهم مَدْعاةً أكثر للصمود في وجه هذا الطغيان وَرَدٍّ أو كَسْرِ ذلك الطوفان. إن الاستسلام للعدو ـ لمجرد رؤية الغلبة ـ مأخذ كبير، لا يتناسب مع ماجريات (مُجريات) التاريخ الإسلامي وكرامة أمته في بلد الأندلس في ظروفه وأحواله[٢].

---

(١) وهذا يعني أن الذين هاجروا إلى خارج الأندلس، تاركين الأهل والأحباب، هم من العلماء الأعلام. ولا بد أنّ أمثالهم قد بقوا في الأندلس وأبَوْا الخروج. والبقاء لمن بقي كان عن وعي وإدراك وتكامل الأهداف.

ولا يبدو ـ من خلال المتابعة ـ أن من عموم المسلمين من رغب في الهجرة بكثرة، أو على الأقل أنهم كانوا محدودي أو عديمي الرغبة لترك البلاد، هجرةً إلى غيرها، لولا ما أحاط بهم من ظروف وأحوال وأوضاع صعبة مهدت لذلك، ابتداءً من هجرة العلماء قبيل وإبّان وبعد السقوط، إلى نكث العهود وملاحقة المسلم في عقيدته، ثم إلى الفتوى التي أصدرها الفقيه الوَنْشَريسي وغير ذلك. بل هم الذين أبَوْا إلا البقاء فيها، وما عدا ذلك فقد أُجبروا وهُجِّروا، وعلى الأقل فإن ذلك كان في البداية حين تراكمت الأحوال وتردت الظروف واختنقت عليهم الدوائر.

وتتوفر في كتاب" حاضر العالم الإسلامي" منقولات من كتاب" الأنوار النبوية " ١/٢/٢٤ وبعدها القسم المتعلق بالمورسكيين. كما نشر هذا القسم عبد المجيد التركي ضمن " وثائق عن الهجرة الأندلسية " في مجلة" حوليات الجامعة التونسية " العدد الرابع، ١٩٦٧، ٢٧ وبعدها.

(٢) إن هجرة المسلمين من الأندلس كانت مطلباً مهمًّا وأملاً مرغوباً وهدفاً مُلِحًّا للسلطات الإسبانية الكنسية والسياسية النصرانية، بذلوا لهم المال وتساهلوا مخادعةً، ووفروا كل المغريات وقدموا جميعَ الوعود ـ التي لا ينوون إطلاقاً الوفاء بأيٍّ منها. ولذلك فليطلبوا ما يريدون ويكتبوا، وتوافق عليها السلطات ـ وعُدَدَ وأسبابَ العبور إلى المغرب. وهذا حين تحثّ عليه فتوى عالم كبير مثل الونشريسي لا بد أن يتوجه فيها الجماعات زَرَافَاتٍ وَوُحْداناً أو ـ إن شئت القول ـ وليس وُحداناً، لا سيما والمجتمع الأندلسي المسلم كان وثيق الصلة بهذه الأمور وواضح التأثر به ويُسْرِع في قَبولها؛ لذلك كان للفتوى أثرها البالغ في التنفيذ.

وأمام كل تلك الظروف لا بد أن يتأثروا ويستجيبوا ـ ولا متسع للتروي والاستشارة بعد انقطاع الزمام وذَهاب القدوة والإمام ـ بل وربما يتدفقون إلى الشواطئ للعبور إلى العُدوة المغربية. فكيف إذا سبق ذلك هجرة علماء مرموقين، لا سيما مِن قَبْل السقوط، سقوط غرناطة؟!!

والظاهر أنّ هذا ـ لا سيما الفتوى ـ جعل بعض أو كثرة من أهل المغرب عابوا على أهل الأندلس واتهموهم للبقاء=

وإذا كنا نعرف أسماء العديد من العلماء الأعلام والنبلاء المهاجرين، خلال أحداث سقوط غَرْناطة وبعده، فإننا في صعوبة مِن معرفة مَن آثر البقاء منهم بأسمائهم وما جرى لهم، وهم غير قليل على ما يبدو. لكن كثرة من العلماء كانوا أسرعَ هجرةً من الأندلس. والذين بقوا فيها لا بد أنّهم قاموا بواجبهم في تقوية الصف ومجابهة العنف والوقوف أمام سبيله والتصدّي لسيله الطامي الأعمى، في رفض عمليات التنصير والتهجير[1]. ومعنى هذا أنّه يُؤَمَّل أن يكون توفر تيار ضد الهجرة سن الأندلس التي كانت مأرباً للعدو الصليبي، لا سيما للأعيان والفرسان والعلماء الفضلاء، بَذَلَ له المالَ وأَكْثَرَ من الإغراء والإقناع والاحتيال من قبلها. وهو الموضوع الذي انتهت إليه الأندلس فعلاً أو قاربته، لا سيما منذ الطرد الأخير وبعده، وبعد قرون سوداء من شأن أعمال دواوين التحقيق أو محاكم التفتيش[2]، أم أنّ هجرتهم كانت سبباً في ذلك الذي آل إليه الحال؟

= هناك. الأنوار النبوية، المخطوط، ٣١٩ . كيف لا وقد سبقهم إلى ذلك عالِمُهم صاحب الفتوى الذي لم يَحْسب الظروف وأهلها ولم يَحْسب مستقبل الإسلام ومجتمعه، كما لم يَحْسَب أَوْجُه الموضوع ومَفاداته ومُؤَدَّياته.

لكن لا بد أنّ علماء آخرين وأعلاماً وأنجاداً وقفوا في هذا الخضم الطامي والموج الغالب والتيار العنيف يُطلقون حقائق الأمور ويُحَذِّرون من هذا النفور ويردون الناسَ عن العبور، بنفس قوية وهيئة أبية ولهجة إيمانية، يدعون الناس إلى التوقف عن ذلك وإعادة النظر فيه. ولا بد أنْ كان لذلك كله تأثير جعل الكثير من علْية القوم وعموم المجتمع ومجاميع الهيئات يرغبون ليس البقاء فقط، بل الحرص عليه. ويبدو أنّ كثيراً من هؤلاء رفضوا إلاّ البقاء رغم المغريات وسياط الأعداء، أصروا عليه مُدْرِكين واجبهم ومقدمين مهمة دينهم ومُؤْثِرين تقديم التضحيات من النفس والنفيس. والأمل أن تتوفر بعض المصادر لتقدم معلومات تفيد أية دراسة عمن بقي من العلماء والقادة والمجتمع.

(١) وقد قامت بعض الثورات، ومنها ما كان عارماً. راجع: التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ٧٥، ٨١، ٩٩ وبعدها. التهجير القسري، ٢٧ وبعدها. الموركسيون الأندلسيون والمسيحيون، ١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١١٩، الأندلسيون المواركة، ١١٤، ١٣٧ . نفح الطيب، ٤/ ٥٢٧ . نبذة العصر، ٤٥ . نهاية الأندلس، ٣٤٩ . أعلاه، ١٠٩ .

(٢) وهي تعرف بالإنجليزية INQUISITION وبالإسبانية INQUISICION.

ولدينا وثيقة فقهية تاريخية سياسية مهمة أوردها الفقيه المغربي أبو العباس أحمد بن يَحيى الوَنْشَرِيسي(فاس، ٩١٤هـ = ١٥٠٨م) في كتابه " المعيار المُعرب والجامع المُغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمَغْرب "[١] عن احتجاج خمسة عشر من العلماء ضد خلع بيعة السلطان أبي الحسن عليّ (الغالب بالله) ابن سعد (أخو أبي عبد الله محمد ـ الثاني عشر ـ ابن سعد، المعروف بالزَّغَل) ووالد أبي عبد الله الصغير محمد الحادي عشر آخر ملوك غَرْناطة، الذي وقع معاهدة الذل والاستسلام[٢]، وإدانة ذلك ورفضه. نعرف ثلاثة منهم ـ على وجه التأكيد ـ أنهم هاجروا من الأندلس وهم:

---

(١) المعيار المعرب، ١١/١٤٨ـ١٤٩ .

(٢) لو كان أبو عبد الله الصغير بقي في الأندلس مع أُسرته لكان مهمًّا وذا نتائج، ولكان هو أيضاً قد خفف الكثير عن نفسه والإحساس بالذنب والتعويض عن الإثم ومن إدانة التاريخ له ـ إن كان أحس بذلك ـ ولجعل هذا الكثيرَ من العلماء الذين رحلوا يبقون في الأندلس ومن جماهير مُسْلِمتها كذلك. على أنّ رحيله ـ بعد أن اشترط لنفسه مالاً وأماناً وحالاً، وهو منتهى الأنانية والخيانة والغدر ـ ساعد على هجرة بعض العلماء الذين هاجروا أو زادها وفتح أبوابها للآخرين مِن ورائهم.

إذاً فعلامَ تَزَعَّم وأشغل المجتمع بنزاعاته وحِراباته وخصوماته في أحلك الظروف ولم يستسلم؟ وحارب ضد أبيه (أبو الحسن عليّ بن سعد، نهاية الأندلس، ١٩٢، ٢٠٢) وعمه (أبو عبد الله محمد الزغل، نهاية الأندلس، ٢١٣)، بدون أهلية ولا حق ولا مؤهلات، بل ـ من أجل كرسيه ـ استعان بأعدى الأعداء وأفتكهم بالمسلمين وأشدهم كراهية (نهاية الأندلس، ٢٠٥)، وتنازل له عن المال والوطن والأهل، كما مرت الإشارة إليه، حتى إنه قد ساوم على القيم والمثل والمعاني، فلم يَمَل أو يعجز أو يتعب. فلماذا لم يبذل غاية الجهد ويذهب إلى أبعد مدى ويُفْرِغ كلَّ الطاقة فيموت شهيداً؟ إذاً فمتى يكون ذلك؟ فلا أقل كان عليه بعد الاستسلام أن يبقى في الأندلس. وإذاً هل وُجِدَ المجتمع من أجله، يختار ما يريد من الأمور لمصلحته، يحارب به يوماً ـ أو دوماً ـ ويتنازل عنه يوماً ويأخذ لنفسه من ماله وممتلكاته وذخائره يوماً آخر، متى شاء وكيف أراد، ناجياً بنفسه وأهله وخدمه؟!!

وإن هذه الأحداث وما ارتكبه أبو عبد الله الصغير وما قادت إليه تصرفاتُه ليثير الشجون والمعاني والأفكار، فترى أن يَجْري القلم بالتعليق على فعلته وأمام شناعته وأنانيته حين يذكر ذلك النكران والجحود والهروب من أقل الواجبات، والتخلي عما كان عليه أن يقود الشعب إليه، لا أن يبيعه بأرخص الأثمان. وحين يُذكر ذلك فَيَرِد الحديثُ عنه وبيان شناعة ما ارتكبه في أكثر من موضع، وإن اختلفت المعاني أو تقاربت لكن من وجوه متنوعة.

١ ـ أبو عبد الله محمد بن الأزرق (٨٩٦هـ)[١].

٢ ـ أبو الحسن عليّ بن أحمد بن داود البلوي الوادي آشي (بعد ٨٩٦هـ)[٢]. هاجر بأسرته وأولاده (بعد ٨٩٠هـ) ونزلوا بتلمسان، ثم تونس، ثم القسطنطينية[٣]، مستقرين فيها.

٣ ـ أبو الحسن عليّ بن محمد القَلْصادي (٨٩١هـ)[٤].

وما عداهم من المجموعة يُظنّ كلهم أو كثرتهم الغالبة بقيت في الأندلس، بل أمكن التعرف على ثلاثة من هؤلاء العلماء لم يهاجروا، على وجه التثبيت، وقد مرّ ذكر بعضهم أعلاه، وهم:

١ ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي يعقوب يوسف المَوَّاق الأندلسي الغرناطي (شعبان ٨٩٧هـ = يونيو ١٤٩٢م) إمام الجامع الأعظم بغرناطة[٥]. وقد ذكر صاحب " نيل الابتهاج" ليس فقط ما يؤكد بقاءه في الأندلس، بل وخوضه المعامع واتخاذه المواقف ومشاركته الأحداث، ذلك " أنه لما استولى النصارى على غَرْناطة ـ دمرهم الله ـ وجدوه بها وهو حيّ فسألوا عمّن هو المُقَدَّم بها في العِلْم فأُشير بالمَوَّاق فأمروا بإحضاره عندهم

---

(١) برنامج المجاري، ٣١ .

(٢) نيل الابتهاج، ٢١٠ . برنامج المجاري، ٣١ .

(٣) نيل الابتهاج، ٩٠ . ثبت البلوي، ٢١ ـ ٢٢ . أزهار الرياض، ١ / ٧١ . وسيرد الحديث عنه وعن غيره بالتفصيل، ص ١٢٩ وحولها.

ومن بني داود أبو جعفر أحمد (٩٣٨هـ = ١٥٣٢م) ابن ابي الحسن عليّ بن داود البلوي الوادي آشي، العلامة مؤلف " الثَبَت " الذي هو تدوين لمشيخته وما تلقاه من علوم على يد شيوخه.

(٤) نيل الابتهاج، ٢٠٩ . ثبت البلوي، ١٠٤ . نفح الطيب، ٢ / ٦٩٢ . دُرَّة الحِجال، ٣ / ٢٥١ . برنامج المُجاري، ٣٠ . الأعلام، ٥ / ١٠ . نهاية الأندلس، ٤٩١ .

وهو أحد شيوخ أبي جعفر أحمد بن علي بن داود البلوي الوادي آشي، المذكور آنفاً. نيل الابتهاج، ٢٠٩ .

(٥) ثبت البلوي، ١٣٦ . درة الحجال، ٢ / ١٤١ . الأعلام، ٧ / ١٥٤ . نيل الابتهاج، ٣٢٤ . الأنوار النبوية [مخطوط]، ٣٤٥، ٣٤٩ .

فامتنع فكلّمه الناس فحضر عند وزير الطّاغية فبسط الوزير له يدَه فَقَبَّلَها المَوَّاق رحمه الله، فلما خرج من عنده أنكره الناس، فلم تلبث يد الوزير الكافر المُقَبَّلَة أن تَوَرَّمَتْ وتَوَجَّع منها فأمر برد المَوَّاق إليه وطلب منه الدعاء "[1].

٢ ـ أبو عبد الله اللَّخْمي محمد الفَخَّار (غَرْناطة، أوائل شعبان ٨٩٧هـ = أواخر مايو ١٤٩٢م)[2].

٣ ـ أبو عبد الله محمد الشَّدَّالي (ذو القعدة ٨٩٦هـ = سبتمبر ١٤٩٠م)[3].

كما يُظنّ أن علماء من غير هذه المجموعة وأدباء وكتاب بقوا في الأندلس، نذكر منهم الشاعر الفقيه الأديب عبد الكريم القيسي[4] وغيره كما سبق إيراده[5].

وآخرون لا يبعد أن يكون أحدهم شخصية أُخرى نجهل اسمها، منهم المؤلف المجهول لكتاب " نبذة العصر في أخبار بني نصر" الذي ربما يكون أحد المؤرخين، بل وأحد المجاهدين الذين شاركوا في الأحداث، ولعل له مؤلفات نعرفها بالاسم، لكن لا نعرف صلته بهذا الأمر. فهو مجاهد وصاحب المؤلَّف السابق، والذي ربما عاصر أحداث السقوط كلها ودَوَّنَها بيومها كاملة مفصّلة بهذا الكتاب المذكور. ولعله تعمد عدم ذكر اسمه وكَتْمَه

---

(١) نيل الابتهاج، ٣٢٢.

وهذا الموقف يذكرنا بموقف الشيخ الأستاذ المَغامي خلال أحداث سقوط طليطلة في القرن الخامس الهجري (٤٧٨هـ). انظر: الذخيرة، ٤/١/١٦٨ (العلمية)، ٤/١٠٤. الحلل الأندلسية، ١/٣٧٧ ـ ٣٨٠، ٤٢٧ ـ ٤٢٨. التاريخ الأندلسي، ٣٣٤.

ويلاحظ هنا أن مؤرخينا يُطلقون على كل حاكم كافر بأنه طاغية، فهل كل طاغية لا بد أن يوصف بذلك؟

(٢) ثبت البلوي، ٢١٤.

(٣) ثبت البلوي، ٢١٢.

(٤) البسطي: آخر شعراء الأندلس.

(٥) نهاية الأندلس، ٤٩٣ وبعدها.

خوفاً من بطْش السلطات الإسبانية النصرانية ومحاكم التفتيش الغاشمة[1]. والأحداث التي ذكرها تدل دلالة واضحة على أنّه مشاركها في عملية الجهاد ضد السلطات الظالمة، بل إنّه ليذكر في عبارة صريحة أنه كان ضمن المجاهدين، حيث يقول: " فلقد حدثني بعض الفرسان النجباء من أهل الشجاعة والنجدة والإقدام في ذلك اليوم ونحن في الطريق راجعين إلى غَرْناطة. قال: كنتُ في أول الفرسان ونحن نتبع النصارى، فكنت أَسْبِق إلى بعض المواضع فأجد النصارى أمامي مقتولين ولم أر أحداً سبقني ولا أدري مَن قتلهم "[2].

إنّ هجرة العلماء والنبلاء والقادة والأنجاد والفرسان ـ بعد هجرة السلطان بأُسرته وحاشيته ـ فتح الباب للآخرين مثلهم وأتباعهم ليستسهلوا أو يُضطروا للهجرة الذين لعلهم وَجَدوا جدواها ورأوا رجحانها أكثر من البقاء والمقاومة والمجاهدة. وجَعَلت هذا ـ ولو للبعض ـ أسلوباً مطلوباً في التصور ومواجهة الحالة الجديدة ومسلكاً مُبَرَّراً أمام ضعف الإمكانيات وضآلة المقاومة وقلّة الحُماة، سَهَّلها أُسلوباً وهونها طريقةً وبَرَّرها حلاًّ وأرهقها ضعفاً ومقاومةً لإحقاق الحق وانتزاعه وتثبيتٍ بالواقع والحياة حتى تدركَهم عنايةُ الله ويُقَيِّض لهم مِن خَلْقه ناصراً ومعيناً ومغيثاً.

كان اجتهاد هؤلاء ومَن أفتوهم أن السلطة غير مسلمة. ولكن الحقيقة الكبرى التي لا بد من التركيز عليها هو أنّ مجتمعَ مملكة غَرْناطة وتوابعها مسلمٌ. بجانب حقائق أخرى متعددة ،تتجاوب وهذه أو تتواكب ،هي أنّ الهجرة من الأندلس أمر غير سهل، لمخاطر الطريق

---

(١) انظر: نهاية الأندلس، ١٩٥، ٣٦٢، ٤٩١، ٤٩٦ . ربما وفاته بعد ٩٠٤هـ.

وهذا يشير إلى أنّه بقي في الأندلس ولم يهاجر، إذ يفهم من كتمانه اسمه في كتابه أنّه كتبه بعد بدء عمليات الاضطهاد والتهجير والتنصير. ثم اطلعت على تاريخ انتهاء تأليف هذا الكتاب وهو سنة ٩٤٧هـ فتثبت هذا الاستنتاج الآنف. انظر: نهاية الأندلس، ١٩٦ .

(٢) نبذة العصر، ١٥ . ولا بد أنّ تاريخ هذا الحدث وأمثاله كان أثناء المعارك التي سبقت السقوط بل التي كانت قبل حصار غرناطة الأخير.

أو قلة المؤونة والزاد والحال وصعوبات التوطين والقبول في المكان الجديد من الطرفين. وهي غير الهجرة التي تلت سقوط المدن الأندلسية ـ الذاهبة قبل ذلك ـ ليذهب سكانها إلى مدن أندلسية أُخرى، قبل سقوط غَرْناطة. فما القول الآن أمام مجموعات ومجتمعات إسلامية تعيش تحت ظل سلطان غير مسلم في أنحاء كثيرة من العالم، بل إنّ بلداناً مسلمة تحيا في ظل سياسات تلاقي مواجَهةً وملاحَقةً كما لو كانت تحيا تحت سلطان غير مسلم أو أشدّ منه!؟! إذاً فما القول الآن وقبل الآن ـ خلال التاريخ ـ في الأقليات الإسلامية، بل والجاليات الإسلامية الموجودة أو المقيمة في بلدان غير إسلامية، وهم فيها منذ قرون ومن أقدم مواطنيها وبُناتها وعُمَّارها الأقوياء الأوفياء؟!

فهل على كل هؤلاء أن يتركوا بلدهم أم لا بد من البقاء والمقاومة والاحتمال بل والدعوة إلى دين الله تعالى والعمل على نشره، كما حدث ويحدث الآن. وهل تعني الفتوى المذكورة للونشريسي أن تهاجر كلُّ الأقليات الإسلامية المضطهدة مِن قِبَل سلطتها المعادية الباغية في العالم اليوم؟ لا، بل إن هذه الأقليات بدأت بأعداد قليلة ثم تقدمت وكثرت وتقوّت، وهكذا وهكذا. فهل إذاً على المسلمين في البوسنة والهرسك وكوسوفو اليوم مثلاً أن يهاجروا إلى بلد آخر؟ ومثل ذلك قله في مسلمي الدول الشيوعية والاشتراكية سابقاً، مثل روسيا وجمهورياتها وتركستان، وغيرها وغيرها. بل إنّ طريقة المجتمع المسلم أن تَكُون سلطته ـ حين تَكُون ـ منه، وثمرة من ثمرات ذلك المجتمع ممن قام ببنائه وعُرِف بجهاده ومواقفه. وهؤلاء ـ حين لا تكون السلطة السياسية لهم ـ هم الذين يتبعون قادتَه ورعاتَه وموجهِيه، وهم ملاذه في كل وقت وحال، لا يتخلفون عن نصرته ولا يتهاونون في رعايته ولا يتركونه لمصيره.

وهذه الأقليات أو الجاليات مبثوثة في أماكن كثيرة من العالم ومألوف وجودها وبقاؤها خلال قرون التاريخ، ولا يمكن إلاّ أن يكون الأمر كذلك، وُجِدت في أكثر من ظرف وسبب وحال. وهي التي هاجرت أو هُجِّرت مضطرة إلى بلد غير مسلم، للذي وَجَدت أفضل من

بلدها المسلم. وهذا غير الذي له أسباب أخرى في تواجدها، لكن هذه هي القضية التي يراد الإشارة إليها. وهي أنّ هذا الحال هي عكس التجرِبة التي نتحدّث عنها أيام غرناطة. فكيف إذا كانت تلك الحالة قد وُجِدت واستقرت وأُقِرَّت. فهل إذاً نرتضي لها البقاء ونستكثر على حالة غرناطة ذلك، وهي الأساس الواسع والتجرِبة المُقَدَّمة والشكل الذي يجب أن يبقى في مكانه ليمد غيره ويقويه ويجدد حاله وحال غيره، بقوة واهتمام ومثال. عِلْماً أنّ القضية المعاصرة في وضع الأقليات أو الجاليات المُرْغَمَة على ذلك جديدة، ما كاد وما كان العالم الإسلامي يعرفها. وكان الأَوْلى أن يكون الموقف فيمن أفتى بالهجرة والرحيل أن يكون العكس تماماً، وأن تكون الفتوى تثبيتاً ودعوة للبقاء، والمؤيدات الشرعية لهذا لعلها أوضح وأصرح، والمبررات والمرجحات والأمثلة وفيرة وماثلة.

وإنّ الونشريسي نفسه يورد ما جرى أيام الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ) حيث " نهى عن الإقامة بجزيرة الأندلس"(١). والونشريسي هنا يستعمل كلمة " نهى " بجانب أنّه لا يستكمل بقية القضية ونهاية موقف الخليفة الراشد. بينما يرويها المَقَّري بشكل أدقّ فيقول: " إنه كان من رأيه أن يَنْقُل المسلمين عنها لانقطاعهم وبُعْدهم عن أهل كلمتهم (مِلَّتهم)"(٢). كما أنّه طَلب من والي الأندلس السَّمْح بن مالك الخَوْلاني (١٠٢هـ) أن" يكتب إليه بصفتها وأنهارها وبحارها"(٣)، ولا بد أنّه طلب أشياء أخرى وطلب النصح والرأي؛ ولأجله كتب السمح إليه بذلك. " يُعرِّفه بقوة الإسلام وكثرة مدائنهم وشرف معاقلهم "(٤)، عندها عَدَل الخليفة عن رأيه وأقر السَّمْحَ على ولايته(٥)

---

(١) المعيار المعرب، ٢/ ١٤٠.

(٢) نفح الطيب، ٣/ ١٥.

(٣) نفح الطيب، ٣/ ١٥.

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس، ٣٩.

(٥) البيان المغرب، ٢/ ٢٦.

وتولى رعايته ومتابعته " وأضرب عن ذلك "[1].

بل قد لا تخلو الفتوى الونشريسية المذكورة من لَيٍّ للنصوص والشواهد. وكما كان الأَوْلى عدم الطّعن على مَن هاجر مِن الأندلس بل وعدم اتهامهم بالمروق أو التقصير، بل استقباله وتوفير حاجته ورعاية بقائه في المهجر الجديد أو العودة إلى الديار، إذا تبيّن له أهمية ذلك، كما فعل العديد. وكان الأولى أيضاً الاقتداء والاستنارة بالمسلمين في مكة، فهم قلّة مطاردة معذبة مضطهدة، وأنّ الدعوة الإسلامية بدأت فيها ونشأت وقامت وانطلقت إلى العالمين. واختار لها الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم بلداً نصرانيًّا تهاجر إليه، تأوي إلى ظل سلطتها وحاكمها النجاشي العادل الذي لا يُظلم أحد عنده، حتى يهيّىءَ اللهُ تعالى لهم فَرَجاً ومَخْرَجاً.

إنّ هجرة العلماء والأنجاد أعطت قوة حتى للفتوى التي رَغَّبَت وَدَعَت للهجرة العامة من الأندلس. ولقد أسهم هذان العاملان (الهجرة والفتوى، بجانب أسباب أخرى) في إقدام الناس على ترك الأندلس مهاجرين أو فارين. بل إنّ ذلك قدم اتجاهاً يَعيب على الباقين في الأندلس ويُعَيِّرُهم، كما ذَكر ذلك ودافع عن الباقين في الأندلس مبدداً ومُقَوِّضاً وداحضاً هذه التهمةَ الأندلسيُّ المورسكي محمدٌ بن عبد الرفيع[2] (١٠٥٢هـ)[3] كما جرت وتجري الإشارة إليها وإليه وإلى زميله شهاب الدين الحَجْري (الحَجَري) مرات، وهذه الفتوى شجعت كثيراً على الهجرة. وحتى لو لم تفتح بابها فقد وسعته واقتنع بذلك كثيرون.

وإنّ سقوط الأندلس ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) كان مسبوقاً بحالة مماثلة وشبيهة جرت قبل ذلك، أعني سقوط صقلية ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) بيد النورمان، فأفتى (مثل الونشريسي،

---

(١) التاريخ الأندلسي، ١٤٠ .

(٢) نهاية الأندلس، ٤٠٣ .

(٣) راجع: الأعلام، ٦/ ٢٠٤ .

لكن على غير نهجه) الفقيه المالكي المازُري (٥٣٦هـ=١١٤١م) أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي[١] . دعا إلى معاونتهم ولم يدعُ إلى تهجيرهم، بل إلى رعايتهم.

وكان الأولى بالونشريسي أن يقتفي أثر الإمام المازُري في فعله وموقفه وفتواه[٢]، فإنّ المجتمع الأندلسي مسلم، لا أقلّ في مجتمع مملكة غَرْناطة، وما عداهم هم الأقلية. وإنّ هؤلاء المسلمين هم من أهل البلاد دخلوا دين الله واختاروه وأحبّوه وارتضوه، فكان لا بد، للعلماء - كالذين هاجروا وهم من أهل البلاد، ولإخوانهم في العُدوة وغيرها حكاماً ومحكومين، فقهاءَ وعلماءَ - أن ينبروا لتثبيت إخوانهم هناك ويمدوا إليهم يَدَ العون، بل ويجاهدوا معهم. وإنَّ رحيلَهم هو مطلب حثيث للسلطات النصرانية. فكانت هذه العوامل التي أعانت على رحيلهم إنما هي تحقيق لذلك المطلب المعادي. وهذه السلطات الإسبانية النصرانية الجديدة التي تَحَكَّمت في مصير مُسْلِمة الأندلس بذلت كل العهود والأموال والتنازلات والإغراءات والوعود لهم كي يرحلوا.

ولقد كانت هجرة العلماء والفتوى التي صدرت وأمثالها، وهي فتوى تنفيذية بجانب الظروف المحيطة بهم، دفعت موجة أو موجات من الناس إلى الرحيل هجرة أو فراراً.

ولم يكن هذا فقط مطلباً للسلطات السياسية هناك، بل وللسلطات الكنسية، ولا فرق بينهما فهما متلاقيتان متفقتان، بل ومتعانقتان، كأنّهما سلطة واحدة كنسية سياسية وسياسية كنسية، اتبعوا مختلف الوسائل لتنصيرهم أو تهجيرهم، وإلا التنكيل بهم. وهم يَعرفون جيداً أنهم من أهل البلاد، أسلموا خلال القرون الثمانية التي كانت الكلمة فيها للمسلمين وبنوا الحياة بالخير والفضيلة. فكان القُسُس تقول للمسلم - مُبَرِّراً لتعيده إلى النصرانية: إنّ جدَّك وأباك كان نصرانياً فارجع إلى دين آبائك وأجدادك: " وهو أن يقول

---

(١) الأعلام، ٦ /٢٧٧ .

(٢) أسنى المتاجر، ١٤٥ .

للرجل المسلم: إنّ جدك كان نصرانيًّا فأَسْلَمَ، فتَرْجِعْ نصرانيًّا "[1]. وهذا مرشد قوي رائد في دراسة موضوع: أهمية الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام واعتناقه.

وإذا كان لدينا أكثر من فتوى ـ في اتجاه تحبيذ الهجرة من الأندلس ـ فإنّ واحدةً منها، هي التي تكررت الإشارة إليها، معروفة مشهورة. هذه هي التي كتبها سنة ٨٩٦هـ (١٤٩٠م) الفقيه المغربي أبو العباس أحمد ين يحيى الونشريسي (٩١٤هـ= ١٥٠٨م) ووردت في كتابه " المعيار المعرب"[2]، يحث فيها على الهجرة من الأندلس، ولا يَرى غيرها حَلاًّ واختياراً وعملاً. ولكن من المهم جدًّا أن الميدان ليس متروكاً لهذا الاتجاه فقط، وإن كان أسبق من غيره، مما جعل له غلبة، في ظرف حالك مرتبك وغامض.

---

(١) نفح الطيب، ٤/ ٥٢٧ .

(٢) المعيار المعرب، ٢/١١٩ـ١٤١ .

كتب فتواه جواباً على سؤال حول جواز إقامة المسلم في بلد غلب عليه النصارى. فافتى الفقيه بوجوب " الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام .. والخروج من حكم الملة الكافرة إلى حكم الملّة المسلمة ". المعيار المعرب، ٢/ ١٢٠ وبعدها، ١٣٧ وبعدها.

وسَمَّى هذه الفتوى باسم طويل معبر عن الفتوى وجوانبها: " أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر". وكان الفراغ من كتابتها يوم الأحد التاسع عشر لذي قعدة الحرام من عام ستة وتسعين وثمانمائة. وهي واردة ضمن كتاب " المعيار المعرب" للونشريسي المطبوع لأول مرة بالمطبعة الحَجَرية في فاس سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٧م) في اثني عشر جزءاً. المعيار المعرب، ١/المقدمة/ طبعة دار الغرب الإسلامي.

ثم نَشر الدكتور حسين مؤنس هذه الفتوى محققة ومدروسة في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الخامس، ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م)، ١٢٩ـ١٩١ .

بعدها نُشر الكتاب كله بتحقيق جديد مفيد (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ=١٩٨١م) بتحقيق مجموعة من العلماء في اثني عشر جزءاً، مع الجزء الثالث عشر فهارس. ووردت هذه الفتوى فيه (٢/١١٩ـ ١٤١)، في ثلاث وعشرين صفحة.

لكن توفّرت فتوى أخرى[1] ـ أو أكثر ـ رأت غير ذلك وبينت طريقاً لمواجهة هذا الوضع الجديد والقمع الشديد، أَعْتَبِرُها أَكْثَرَ فِقهاً وأنضر طريقاً وأوعى رؤية لظروف الأندلس وأجود إدراكاً لإمكانياته وطاقاته ومتطلباته والتزاماته وأعمق توجيهاً لمضامين الشريعة الإسلامية وأرقى فهماً وأجود استجابة لأهدافها وانسجاماً لأبعادها وتجاوباً لمهمتها.

صدرت هذه الفتوى عن الفقيه المغربي أحمد بن بو جمعة المَغْراوي، ثمّ الوَهراني[2]، مؤرخةً غُرة رجب سنة ٩١٠هـ (٢٨ نوفمبر ١٥٠٤م). وتُعتبر وثيقة تاريخية ذات مدلولات متنوعة، كلها مهمة. يُخاطِب فيها أهلَ الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً من سقوطها، وبعدما بدأ الاضطهاد الشديد والمنع العنيد والعنف البليد، في كل ما هو إسلامي، وبدأت عمليات التنصير والتهجير والتنكيل والتقتيل والتحكم والتهكم. وغير بعيد أن تكون هذه الرسالة أو الفتوى ـ مثل فتوى الونشريسي ـ جواباً على سؤال من مُسْلِمة الأندلس المورسكيين، يستفتونه في حالهم ومسلكهم واحتمالهم[3]. وهذا نصها لأهميتها

(١) نهاية الأندلس، ٣٤٢ .

(٢) بحثت غير قليل ـ في المصادر التي لديّ ـ عن هذا الفقيه، أحمد بن بو جمعة المَغراوي الوهراني الذي لعله من وهران بالجزائر أو أصله منها، فلم أجد ما يكفي، بل لم أجد عنه معلومات مباشرة، إذ وجدت بعض المعلومات عن محمد بن أحمد بن بو جمعة المَغراوي الذي لعله ابن صاحب هذه الفتوى. ومحمد هذا هو: "الفقيه المدرس أبو عبد الله، توفي سادس ربيع الأول سبع عشرة وتسعمائة". نيل الابتهاج، ٣٣٢ . وهو نفسه المدعو شَقْرون (درة الحجال، ١ / ٩٣، جذوة الاقتباس، ١ / ١٣٢) المعروف بابن بو جمعة (درة الحجال، ٢ / ١٥١). ولكن هنا يضع وفاته سنة ٩٣٠هـ، فيبدو أنّ التاريخ عنه، (في نيل الابتهاج) غير صحيح، حيث يضعه ٩١٧هـ، والصواب لعله ٩٢٧ أو ٩٢٩هـ، كما ورد في مصادر أخرى.

(٣) في الرسالة نفسها الكثير مما يدلّ أنّها جواب لرسالة تلقاها الفقيه الجليل من مسلمة الأندلس. وربما هناك غيرها، لعلّ البحث يظهرها، إن شاء الله.

وعدم طولها وندرة توفّرها[1]:

"الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً. إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، مَن أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيّه]صلّى الله عليه وسلّم [في الفردوس الأعلى مِن جناته، وارثو سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً. بعد السلام عليكم من كاتبه

"إليكم، من عُبَيْد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده عُبَيْد الله تعالى أحمد بن بو جمعة المَغراوي ثمّ الوَهراني كان الله للجميع بلطفه وستره سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حُسنَ الدّعاء بحُسن الخاتمة والنّجاة من أهوال هذه الدار والحشْر مع الذين أنعمَ الله عليهم من الأبرار ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام آمرين به مَن بَلَغ من أولادكم إن لم تخافوا دخولَ شرٍ عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يَصلُحون إذا فَسَد الناس، وإنَّ ذاكرَ الله بين الغافلين كالحيّ بين الموتى، فاعلموا أنّ الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضرّ ولا ينفع، وإنّ المُلْكَ مُلْكُ الله، ما اتخذ الله من ولد، وما كان

---

(١) وردت هذه الوثيقة في كتاب: نهاية الأندلس، ٣٤٢ - ٣٤٤ لمحمد عبد الله عِنان، ولم أجدها عند غيره ممن كتب عن الموضوع. وقد عَثَر عليها في مكتبة الفاتيكان (روما). ثم وجدها كذلك في مكتبة الأكاديمية التاريخية بمدريد، كما أنّها مترجمة إلى الإسبانية. وغير بعيد أن تكون هناك مراسلات متعددة حول هذا الموضوع، إلى فقهاء وأمراء وخلفاء في أرجاء العالم الإسلامي، شعرية أو نثرية، وُجد بعضها، ولا بد أن يتواصل البحث عن أمثالها في المخطوطات والمطبوعات العربية والأجنبية. ولكن الرسالة الحالية تُعتبر فتوى وثائقية علمية تاريخية، ذات أهمية فقهية بالغة جداً.

وهذا كلُّه أنوي - إن شاء الله - معالجتَه في موضوع مستقلّ، أجمع مادته وأتابع أخباره وأمسك أطرافه، راجياً إفراده بدراسة: " سفارات ومراسلات الاستغاثة والاستنجاد لمُسْلمة الأندلس، أيام سقوطها وبَعْدها ".

معه من إله، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصّلاة ولو بالإيماء والزّكاة ولو كأنّها هدية لفقيركم أو رياء، لأنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلُوبكم، والغُسْل من الجَنابة ولو عَوْماً في البحور، وإن مُنعتم فالصلاة قضاء بالليل لحقّ النهار، وتَسقط في الحكم طهارةُ الماء، وعليكم بالتيمم ولو مَسْحاً بالأيدي للحيطان، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلاّ أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي، والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يُتيمم به، فأقصدوا بالإيماء. نقله ابن ناجي في (شرح الرسالة) لقوله عليه الصلاة والسلام: " فأتوا منه ما استطعتم "، وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأَحْرِموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة وأَشيروا لما يُشيرون إليه من صنم، ومقصودكم الله، وإن كان لغير القِبلة تَسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمرٍ فاشربوه لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خِنزيراً ناكرين إيّاه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرم وإن زوّجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل كتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وإنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وَجَدْتُم قوةً لغيرتموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثمّ ليس عليكم إلاّ رؤوس أموالكم وتتصدقون بالباقي، إن تُبتم لله تعالى، وإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك. وإن قالوا: اشتموا محمداً [صلّى الله عليه وسلّم] فإنّهم يقولون له: مُمَد، فاشتموا مُمَداً ناوين أنّه الشيطان أو مُمَد اليهود فكثير بهم اسمه. وإن قالوا: عيسى ابن الله، فقولوها إن أكرهوكم، وانووا إسقاط مضاف: أي عبد اللاه مريم معبود بحق. وإن قالوا: قولوا: المسيح ابن الله، فقولوها إكراهاً، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله لا يلزم أن يسكنه أو يحلّ به. وإن قالوا: قولوا: مريم زوجة له فانووا بالضمير ابن عمها الذي تزوّجها في بني إسرائيل، ثمّ فارقها قبل البناء. قاله السهيلي في تفسير المبهم من الرجال في القرآن، أو زوّجها الله منه بقضائه وقدره. وإن

قالوا: عيسى توفي بالصلب فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره وإظهار الثناء عليه بين الناس وأنّه استوفاه الله برفعه إلى العلوّ. وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به، وأنا أسأل الله أن يُديل الكَرَّة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وَجْلَة، بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنّكم صدقتم الله ورضيتم به، ولا بد من جوابكم، والسلام عليكم جميعاً، بتاريخ غُرة رجب عام عشرة وتسع مائة [٢٨ نوفمبر = تشرين الثاني، ١٥٠٤]، عَرَّف الله خيره. يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى " .

فلماذا إذاً وكيف يَتْرُكُ شعبٌ بأكمله وطنَه؟ لماذا لا يقاوِم، لماذا لا يستعد، لماذا لا يصون، لماذا لا يجاهد من أجل دينه ووجوده، ولماذا لا يصد ـ وهو يصد في غَرْناطة وغيرها ـ عن أرضه؟ بعد ثمانية قرون، وذَهاب مَن ذَهب منهم هتكاً وفتكاً! وهم يعدّون بين ستة وثمانية ملايين من النفوس المسلمة، أكثرها ممن أسلم من النصارى واليهود أنفسهم، الذين اعتنقوا هذا الدين محبة واختياراً[1]، واحتملوا كلّ ذلك مضحين من أجله. فهي أرضهم

---

(١) التقدير ـ من خلال المعلومات المتوفرة ـ أنّ عدد أهل الأندلس، أيام دولته الكبرى، زهاء خمسة عشر مليون نسمة. وهذا بنفسه يشير إلى مقدار مَن دخل الإسلام مِن أهل البلاد، وأنّ الجلّ الجليل من هذا العدد هم من أهل البلاد. وللأسف فإنّ الحديث والوثائق شحيحة فيما يتعلق بموضوع انتشار الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلسية). راجع: التاريخ الأندلسي، ١٤٣ وبعدها. لكن المشهور أمامنا أنّهم غدوا مسلمين، مما يستوجب البحث. مثلما نجهل الكثير عن فتح العديد من المدن الأندلسية، لكنها فتحت واقعا. وأمور أمثال ذلك متعددة غير قليل، لأسباب أهمها: ضياع الكثير من المكتبة الأندلسية، لا سيما بالحرق لمئات الآلاف من المخطوطات النادرة.

ومن الأدلّة الأولية أنّه بعد سقوط غرناطة (٨٩٧هـ= ١٤٩٢م) وبداية عملية التنصير كان الرهبان يقولون للمسلم: " إنّ جدك كان نصرانيا فأسْلَمَ، فترجع نصرانيًّا" . نفح الطيب، ٤ /٥٢٧ . انظر: أعلاه، ٩٨ وبعدها .

وعند سقوط غرناطة يقدر عدد من في مملكتها وفي المدن الأندلسية الأخرى من المسلمين بين ستة وثمانية ملايين، كما ذكر أعلاه، وهو الراجح. رحل إلى خارج الأندلس نحو نصف هذا العدد. العرب في إسبانيا ٢١٥ = The Moors in Spain, PP. 279-280.=

وحقهم أكثر من حق السلطة الباغية، إن كان لها حق في الأصل، بسبب كل ذاك وبحكم عيشهم حيث عاش دينهم في نفوسهم، اعتنقوه طائعين وبه عَمّروا الأرض وخَضّروها وحضروها ثمانمائة من السنين.

وتلك هي حياة الإسلام وطريقته وامتداده، أنّه لا يمتد سلطة، بل ـ قبل ذلك وأهم منه وأوقع وأسعى للهدف ـ أن يدخل أهل البلد في الإسلام، باختيارهم واقتناعهم ومحبتهم، فتتحوّل كل أمورهم وممتلكاتهم وحقوقهم إلى ولائهم الجديد الذي يُصبح ذلك حقًّا أكثر من أي حق. وهذا من أوليات وأولويات وواحد من معالم هذا الدين وخصائصه وحقائقه وفتوحاته التي تميزه عن كلّ ما عداه قديماً وحديثاً ومستقبلاً وربما جَهِلَها البعض أو تجاهلها أو اعتدى عليها.

=نهاية الأندلس، ٤٠٢. قتل الكثير منهم قبل وصوله مَقْصِدَه.

وذكر ابن عبد الرفيع أنّ عدد الذين هاجروا ـ هُجِّروا أو طُرِدوا ـ من الأندلس، في الطرد الأخير أو الكبير، سنة ١٠١٩هـ (١٦١٠م) يزيد على ستمائة ألف نَسَمة وذلك أيام حكم ملك إسبانيا فيليب الثالث، فيقول: " فخرجوا كلّهم سنة تسع عشرة وألف. ووُجِد في دفاتر السلطان الكافر ـ أبعده الله، آمين ـ أنّ جملة مَن أُخرج مِن أهل الأندلس كافة نَيِّف وستمائة ألف نَسَمة ". انظر: الأنوار النبوية في آباء خير البرية، المخطوط، ٣٣٥. كذلك انظر: " نفح الطيب، ٤/٥٢٨. نهاية الأندلس، ٤٠٧. بحث: مورسكيو بلنسية، تحت وطأة السلطة الدينية والسياسية في عهد الملك فيليب الثالث ١٥٩٨ ـ ١٦٢١م "، مجلة دراسات، ١٤/١٠/١٠٦.

ولدينا وثيقة أخرى، كذلك ذات أهمية بالغة، تلك التي كتبها مورسكي آخر ـ مثل محمد بن عبد الرفيع، بينهما معرفة ولقاء ـ هو أحمد بن قاسم الشهاب (شهاب الدين) الحجري (بعد ١٠٥١هـ= ١٦٤١م) يوضح ذلك، ويورد نص القرار (بالعربية) الذي أصدره ملك إسبانيا فيليب الثالث PHILIP III بطرد المسلمين من الأندلس واستمر تنفيذه سنتين (أول عام ١٠١٨ ـ ١٠٢٠هـ= ٢٢/٩/١٦٠٩ ـ ١٦١١م) وذلك في كتابه: ناصر الدين على القوم الكافرين (مدريد)، ٩، ٤٥، ٥٩، ١٥١ ـ ١٥٥. ولعل هذا العدد لدى بداية هذا الطراد الكبير، واستمر بعد ذلك خلال المدة وتجاوزها.

ولذلك ـ ورغم كل تلك الظروف ـ فالمسلمون الأندلسيون الباقون، الغرباء (المورسكيون) قاوموا وجاهدوا واستمرت دواوين التحقيق أو محاكم التفتيش INQUISICION, INQUISITION تلاحقهم وتحاربهم وتقمعهم لقرون، بأقسى أساليب الإبادة الدموية والقتل الوحشي التي مرت بالإنسانية أو مرت بها، تستبيحهم وتبددهم وتحرقهم جموعاً. وليس لديهم غيرها، وأمام هذا الدين الحق.

كانت هجرة العلماء من الأندلس لخارجها والفتاوى التي دعت إليها مُشَجِّعة للجمّ الغفير عليها، حتى أصبحت لدى البعض الكثير مأرباً ومطلباً، ضاقت بهم السبل وضَيَّقت وخَنَقت حياتَهم الإسلامية التي تنازلوا عن كل شيء ما عداها لأجل الحفاظ عليها. لكنهم حُوصِروا وتُوبِعوا. وفي هذا الخضم أبى الكثير منهم الهجرة باختيارهم، وأنّ طبيعة الأمر دعتهم لهذا الموقف[1].

---

(١) ورد ذكر لأحد الشيوخ أو كبير فقهاء غرناطة، الشيخ الصقري (الأندلسيون المواركة، ١١١ . قارن: The Moriscos of Spain, P. 31.) ولم أجد تمام اسمه أو أي معلومات أخرى عنه، من الذين بَقَوْا في الأندلس ولم يهاجروا، وواجهوا الظلم الأسود والاضطهاد المريع والطغيان الشنيع المصبوب من الكنيسة ودواوينها التحقيقية ومحاكم تفتيشها، بقوة أبية وشجاعة إيمانية وإصرار قَنوع غير محدود، انتهى به إلى الموت تحت سياط الكنيسة، ولم تُجْدِ معه أساليب الترغيب والترهيب التي اتبعها رئيس الكنيسة الإسبانية الكردينال خمينس مطران طليطلة ورئيس أساقفتها (FRANCISCO XIMENES DE CISNEROS).

وهذا يجعله مستشارَ الملكة الكاثوليكية إيزابيلا وكبيرَ أساقفة إسبانيا ورئيس محاكم التفتيش أو المحقق العام (INQUISITOR GENERAL, INQUISIDOR) والمجلس الأعلى لمحاكم التفتيش (ديوان التفتيش) . (SUPREMA, SUPREME COURT) التنصير القسري، ٦٢، ٦٦، ٦٩ . الأندلسيون المواركة، ١٠٩ . The Moriscos of Spain, P. 14

التي كان كثير من أحكامها يتم تنفيذه بالموت حرقاً جماعيًّا، في موكب من الضحايا يعرف AUTO - DA - FE (حفل الإيمان) .

وكان الملك الكاثوليكي (فرناندو، فردناند FERNANDO (FERDENAND) EL CATALICO, كثيراً ما يحرص على مشاهدة هذه المواكب ويستمتع بحرق المسلمين ويثني على محاكم التفتيش كلما نَفَّذَت واحدة من ذلك . نهاية الأندلس، ٣٣٨ .

وقد استمرت الهجرة مرغوبة ـ اضطراراً أو فراراً أو انتصاراً، ولمعرفتهم دمويتها ووحشيتها ـ لكثير من العلماء والأنجاد والأجواد، ومن الذين عاشوا وترعرعوا في ظلم محاكم التفتيش، وعَرفوا كيف يتعاملون معها ويَشُقّون طريقهم في ظلماتها وظُلامات جائرة جارت بها عليهم، مثل محمد بن عبد الرفيع (١٠٥٢هـ = ١٦٤٢م)[١]، وإبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد الربَّاش[٢]، وزميله أحمد بن قاسم بن أحمد ابن الفقيه قاسم ابن الشيخ الحجري الأندلسي ويلقب بشهاب الدين والشهاب الحِجْري (الحَجَري) وأفوقاي (تونس، بعد ١٠٥١هـ = ١٦٤١م)[٣]، وأبو الحسن المنظري[٤].

ولكن فتاوى أخرى رأت البقاء حتى بعد أن ساءت الظروف واشتدت المحنة. ولولا هجرة العلماء ـ التي جَرَّأَت الأعداء وأَضْعَفَت الأبناء وعَرّضت البناء، وما تلاها من تبريرات ومرجحات ـ لكان الوضع مختلفاً، ولبقي المسلمون يقاومون بشكل أوضح وأشدّ، بل وربما حتى دون اللجوء إلى أسلوب إبطان الإسلام وإظهار النصرانية، التي أُجبروا عليها، وبها عُرِفوا بالموركسيين، من الكلمة الإسبانية LOS MORISCOS ومعناها: المسلمون

---

(١) انظر: نهاية الأندلس، ٤٠٣. حاضر العالم الإسلامي، ١/ ٢/ ٢٣. الأعلام، ٦/ ٢٠٤.

(٢) انظر: الأعلام، ١/ ٣٠.

(٣) انظر: بحث: " ظاهرة تعريبية في المغرب أيام السعديين "، محمد المنوني، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلدان ١١ ـ ١٢، ٣٣٥ وبعدها. الأعلام، ١/ ١٩٨.

(٤) انظر: نهاية الأندلس، ٣١١.

وهؤلاء وأمثالهم لا يقع الحديث عنهم أساساً، إذ إنّ البحث يشمل العلماء الذين هاجروا من الأندلس في وقت مبكر، حينما بدأت بوادر ونُذُر السقوط، قبيل السقوط (سقوط غرناطة)، وكذلك بعده، بسبب امتلاك السلطة الإسبانية النصرانية الكنسية مقاليد الأمور في الأندلس كلها. أمّا هؤلاء المذكورون أعلاه فقد تركوا الأندلس بعد السقوط بما يقرب من قرن ونصف، أي أنّهم وُلدوا في أيام محاكم التفتيش الحالكة السوداء الشّئوم، وعاشوا وتفقهوا واجتهدوا وجاهدوا تحت وطأة كلكلها الثقيل القاتل الغَشوم.

(الأندلسيون[١]) الصغار والضّعاف والأذلة، والله غالب على أمره.

ولربما كان الأمر قد استقر بعد طول المقاومة الآن على تجاور الديانتين في إسبانيا والبرتغال. وإننا كنا اليوم سنجد الإسلام باقياً في إسبانيا خاصة، كأقلية معترف بها اليوم[٢]، ولرأينا المئذنة إلى جانب الكنيسة في إسبانيا النصرانية، كما كانت الكنيسة إلى جانب المِئذنة في إسبانيا المسلمة. بل لربما قد كنا رأينا الإسلام يعودُ إلى التوسع حين نصل إلى الوقت الحاضر، وقد يدخله في هذه الظروف الحالكة من أهل الذمّة غير قليل[٣].

---

(١) كلمة LOS MORISCOS الإسبانية معناها: مُسْلِمة الأندلس (الأندلسيون) الذين بقوا في الأندلس بعد سقوط غرناطة وأُجبروا على التنصّر، وإلا فالتهجير ثم الموت حرقاً. انظر: أعلاه، ٥٠، ٥٦، حاشية. وهي تصغير لكلمة LOS MORO-S التي تعني المسلم الأندلسي، ومنها اشتقّت كلمة MORERIA التي تعني حي المسلمين في الأندلس.

(٢) انظر:.Andalusian Diplomatic Relations, 55 (=الترجمة العربية: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية). أندلسيات، ٢/٥٧ .

قد جرى في إسبانيا ما لم يجرِ حتى الآن في أي بلد أوربي آخر. وهو اعتراف السلطات الإسبانية بالإسلام ديناً والحمد لله. والأمل أن ينتفع الإسلام والمسلمون هناك بذلك. ولقد تمّ هذا الأمر المهم صيف (١٩٨٩م). وقد نشرتُ عن ذلك في مجلة الخيرية (الكويت).

وأخيراً لقد وصلتْ إلى الأسماع أنباء اعتراف السلطات الإسبانية بالإسلام ديناً في إسبانيا، والحمد لله رب العالمين، وهذا يعني الكثير ويقدم الكثير. ومما يقدمه مجالات رحيبة وجديدة أصيلة، تجول فيها بحرية وثبات. والأمل أن يتم ذلك في البرتغال وغيره. كما تمّ بعض هذا التقدم في بلدان أوربية وغربية أخرى نحو ذلك لهم، مثل بلجيكا وكندا، كما يبدو. وهي فرصة تنتظر همة المسلمين هناك. نرجو الله تعالى وندعوه أن يفتح بهذا ميادين جديدة يستطيع المسلمون من خلالها خدمة هذا الدين لخير أنفسهم والإنسانية وبناء الحضارة الفاضلة.

(٣) لقد شغلتني هذه القضية خلال متابعاتي البحثية في تاريخ الأندلس، لا سيما بعد السقوط، وما زلت أبحث عن شواهد لها. وهي هل دخل أحد الإسلام في أيام الشدائد في إسبانيا؟ وهي قضية تدلّ على أنّ النفوس ذات الفطرة والخلق والمعدن الكريم أقرب إلى الدين، وهي تلتحق به ومستعدّة للاحتمال. ولقد بيّن هذا المعنى الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم: " تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " رواه البخاري، ٣/١٢٨٨، رقم: ٣٣٠٤ .=

=وفي سيرة الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم وضوح لهذه القضية، وأنّ الأعداء حين يتبين لهم الحق، كثيراً ما يكونون من خيرة الأبناء، وهو الطبيعي الغالب؛ لذلك نجد من أساليب الأعداء المحاربين والحكام والطغاة والمتسلطين -مثل الصليبية والماسونية، وغيرها خلال العصور، وحتى اليوم وستبقى- تشويه الإسلام وإثارة الشبهات حوله وحجبه عن الناس. كما تشير إلى أنّ الاضطهاد يضع جُدُراً أمام الناس تحول دون التحاقهم بالإسلام واعتناق هذا الدين، وأنّهم بذلك يؤخرون ويُعَثِّرون ويُعَوِّقون مسيرته، لكن النصر في النهاية له إن شاء الله تعالى. ويأتي هنا فهم أهداف الفتوحات الإسلامية -في جانب مناشطها العسكرية- لإزاحة هذه الجدر وإزالة العوائق لإسماع كلمة الإسلام وندائه، ليكون الناس أحراراً في اختيارهم.

ولقد وجدتُ بعض الأمثلة في دخول أناس الإسلام في أحلك ظروف الاضطهاد القمعي الرهيب مثل محاكم التفتيش أو خلال انحسار المدّ الإسلامي، بل إنّ بعضهم كان من الأحبار والرهبان، ثمّ ألّفوا كتبا في إسلامهم ومناقشة أهل ملّتهم وبيان مزية الإسلام وأحقيته بالإتباع. منها: إسلام أبي محمد عبد الله الترجمان المَيُورقي (تونس، ٨٣٢هـ=١٤٣٠م) الذي كان راهباً متقدماً وكان اسمه أنسلمو ترميدا FRAY ANSELMO TURMEDA. تاريخ الفكر الأندلسي، ٥٨٦.

وأنّ أستاذه القسيس الكبير كان مسلماً يكتم إسلامه ونصح تلميذه أبا محمد عبد الله الترجمان باتباع دين الإسلام، وذلك عندما جرى الحديث حول معنى كلمة البارَقْليط (البارَقْليطُس) PARYCLITO اليونانية (الإغريقية) PARACLETE, PERIQLYTOS التي تعني في القَواميس المُعَزِّي أو الشفيع أو الروح القدس الذي هو البارقليط (ناصر الدين، ١٤١). ولكن الأصح أو الصحيح غير ذلك، بل تعني " الذي له حمد كثير" : أي أحمد، وهي معناه الواضح. كما ورد في الآية الكريمة رقم ٦ من سورة الصف على لسان عيسى عليه السلام ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾.

انظر: قصص الأنبياء، ٤٥٠. إظهار الحق، ٢/٢٣٨. الواردة في الإنجيل وأنّها تعني اسماً من أسماء النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، وردت بشارة به. ناصر الدين، ٣١، ١٠٦ (مدريد)، ٢٧، ١٤١، ١٦٦، ١٦٨-١٦٩. تحفة الأريب، ٢٦، ٦٦]مخطوطة الكتاب، ١٤١ .[محمد في الكتاب المقدس، عبد الأحد داود، ٢١٩-٢٢٩ (= (MUHAMMAD IN the BIBLE, 211 J 223) كذلك: السيرة النبوية، ابن هشام، ١-٢/٢٣٢-٢٣٣.

وبعد استمرار المتابعة -لهذا الأمر- تثبّتت المعرفة وتأكدت وزادت بثلاثة شواهد أخرى. أوّلها: أبو محمد عبد الحق الإسلامي الحبر اليهودي من أهل سبتة (CEUTA)، الذي تسمّى بهذا الاسم بعد إسلامه وانتهى من تأليف كتابه: " السيف الممدود في الرد على أحبار اليهود " في مجادلتهم وإثبات نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وذلك في توراتهم. وانتهى من تأليفه سنة ٧٩٦هـ=

=(انظر: ورقات، المنوني، ٢١٩. ناصر الدين، (مدريد)، ١٠٨، ١٣٢ = الترجمة الانجليزية، ١٦٥، ١٨٨).

وضع كتابه استجابة لطلب أحد الفقهاء: أبو العباس أحمد القبائيلي (٨٠٢هـ) (انظر: ورقات، ٢١٩ . جذوة الاقتباس، ١/ ١٢٥).

وثانيها: محمد الأنصاري الأندلسي، أحد علماء النصارى في الأندلس. تجوّل فيها بعد إسلامه، عاقدا المجالس مع النصارى وعلمائهم في مدن متعددة كان منها مدريد (MADRID) وبلد الوليد (VALLADOLID) وشقوبية (SEGOVIA) وغيرها، جرت بعضها في قصر الملك وفي منزل الأندلسي نفسه .الذي نزح أو هاجر إلى المغرب ونزل في فاس (FES) مستقرا بها أواخر القرن التاسع الهجري أيام المرينيين ,يبدو أنّه دوّن هناك مناقشاته تلك، بناء على طلب الوزير يحيى بن عمر الوطاسي (٨٥٢هـ) (عنه انظر: جذوة الاقتباس، ٢/ ٥٣٥). فوضع: " رسالة السائل والمجيب ونزهة روضة الحبيب" (المخطوطة) (ورقات، ٢٢٠ - ٢٢٢). وهذا يعني أنّ هجرته (هاربا من أسره) من الأندلس إلى المغرب كانت في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري أو أواخره خلال أحداث سقوط غرناطة. ولو توفرت عنه معلومات كافية لأدرج ضمن العلماء المهاجرين وقتها، موضوع البحث الحالي.

ثالثها: يوسف الحكيم، أحد أحبار اليهود، الذي سمّى نفسه بعد إسلامه (١٠٢٠هـ = ١٦١٢م) يوسف بن عبد الله الإسلامي، وهاجر من الأندلس إلى فاس بالمغرب ولعله وضع هناك كتابه، الذي ما يزال مخطوطا: " النور الباهر في نصرة الدين الطاهر " .

انظر بحث: محمد المنوني " ملامح من تطور المغرب العربي " أشغال المؤتمر الأول، ٢/ ١١٠ - ١١١ .

كذلك بحثه: " مناقشة أصول الديانات " ، مجلة البحث العلمي، ١٣/ ٢٥ - ٢٨ .

ومن كتب الترجمان التي ألّفها بعد إسلامه كتاب " تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب" الذي أشار لهذا الموضوع. تحفة الأريب، ٢٥ وبعدها. بل إنّ كلمة الإنجيل .(EVANGEL, GOSPEL) تعني: البشارة.

وعن أمثلة أخرى ممن أسلم في الظروف الصعبة راجع: ناصر الدين، ٣٥، ٤٦، ر٥٣ (مدريد)، ٣٣ - ٣٤، ٤٧، ٥٦ . وراجع بحثي: المورسكيون في المخطوطات والمصادر الأندلسية، في العدد التجريبي (أو الأول) - إن شاء الله - من مجلة البُذُور، قريبة الصدور جداً، بعون من الله تعالى.

وفي المقابل نرى - خلال التاريخ، ودوماً - مَن يدخل الإسلام من العلماء الأعلام، حين يَطّلعون حتى على جانب واحد منه. وكم اعتنقه مِن أعلامهم وقادتهم ومتقدمي دينهم بآية وأحدة أو حديث شريف أو حادثة أو موقف، بل واعتنقه منهم وهو منتصر غالب والمسلمون مغلوبون، كما جرى للمغول والتتار، وعلى الأقل يقلد الغالبُ غيرُ المسلم المسلمَ المغلوب، كما جرى للنورمان في صقلية بعد سقوطها بأيديهم.

وكم مِن حالةٍ اعتنق الإسلامَ أو اقترب منه أو ناصره سجانٌ لسجينه المسلم المقهور، فاقبل السجانُ يُقَبِّل سجينه المسلم وهو مبهور.

والأمثلة على كل ذلك كثيرة ووفيرة، ماضية وحاضرة، ومتكررة ومستمرة.

ولو تم ذلك ـ البقاء في الأندلس والوقوف أمام الاضطهاد ـ لاختلفت الأمور ولكانت المقاومة شديدة ودعت إلى عون من المسلمين أكثر، لغرض المعاونة في الهجرة ـ كما حصل ـ بل للنصرة في بلدهم وأرضهم، مما كان سيُطيلُ أمد المقاومة كمًّا وكيفاً، رقعة وزمناً، يَضطرون ـ أمام أمور أخرى ـ أن يحافظوا على دينهم ويقاوموا ويواجهوا بأعلى مستوى من المواجهة المكشوفة والالتزام الظاهر به. ولعلهم يبقون يمارسون إسلامهم في مجتمعاتهم حتى اليوم، بالنصرة بالموطن والهجرة إليه من الآخرين ـ مِن مَواطن الأندلس الأخرى ومِن خارجها ـ إلى غَرْناطة، معاونة كما فعلوا خلال حياة غرناطة. ومَن بقي في المواقع الأخرى يكون مُعيناً مؤدياً لمهمة واضحة ومُمثلاً لأهمية معلومة، ولبقي أمثالُهم وغيرُهم طوال القرون لا يُنكرون الظاهر ولا يُضطرون إلى إبطان الإسلام. وهو أقوى وأدعى للتمايز والوقوف والمحافظة[1].

---

(١) مرت الإشارة إلى أنّ عدد من هاجروا من الأندلس ـ بعد سقوط غرناطة ـ زهاء ثلاثة ملايين. أعلاه، ١٠٣ وبعدها، حاشية. لقي الكثير منهم عَنَتاً، سواء في الطريق أو الإقامة، أو العيش. نفح الطيب، ٤ /٥٢٨ . باتهامهم أو لغير ذلك. وأنّ عدداً كبيراً منهم قتل قبل الوصول، بيد الإسبان خاصة. وهم بذلك لم يحققوا في المواجهة شيئاً ملموساً ذا أثر، للحفاظ والوقفة والنيل من عدوهم، إلى حد أنّ بعضهم عاد إلى الأندلس بعد الرحيل عنها. نبذة العصر، ٤٤ . أزهار الرياض، ١ /٦٨ . كذلك: أزهار الرياض، ١ /٧١ ـ ٧٢ . كما أنّه ذهب الكثير منهم وقُتِل أو نُهِب أو تَشَرَّد.

فلو لم تُفتح باب الهجرة وتُصبح طريقاً مُمَهَّدة محمودة لبقي هذا العدد الضخم في الأندلس يواجهون ويقاومون ويقاتلون حتى يحملوا السلطة الباغية على الرضوخ، والعجز عن الإفناء والانتهاء منهم بالتذويب أو القتل أو التحريق. ولربما انتهى الأمر ـ مع بقاء العداء، مرغمين ـ بتركهم أحراراً، ولو بأشد الأحوال، بالإبقاء عليهم في أحياء أو مدن خاصة بهم. وبذلك يُبْقُون على أنفسهم وأهليهم ودينهم، فإنّ مثل هذه السلطات الظالمة الغاشمة التي قادت محاكم التفتيش ضد المسلمين في الأندلس لا ترعوي ولا ترعى ديناً ـ وهم يستعملونه لأهوائهم، وهم به يتسترون ـ ولا عهداً ولا ذمة ولا قانوناً ـ وهو بيدهم يُكْتَب، ويُطَوِّعون أو يُجَيِّرون كل ذلك لمصالحهم ويُخْضِعونه لهم، من سدنة الكنيسة وأساقفتها من أمثال الكاردينال خمينس ومن أتى بعده، والملوك أمثال الملكَيْن الكاثوليكيين إيزابيلا (٢٦ نوفمبر = تشرين الثاني، ١٥٠٤م) المتعصّبة، وفَرنَاندو (٢٣ يناير = كانون الثاني، ١٥١٦م) ومَن وراءهم، وبرعاية البابوية وتشجيعها، بل وبأمرها، حتى عبثوا ودمروا=

ولكن لَمّا ذهبتْ بعض عناصر الحماية المهمة والرعاية الواضحة والقدوة المعتادة ـ ومنها العلماء ـ رأى الآخرون، وقد عانوا شدة الأذى والبلاء لمن تمسك بدينه علناً، أن لو لجأوا إلى خُطَّة جديدة هي إبطان الإسلام. وجَرَت سُنَّةً كانوا يظنون أنّها تتم بسهولة أو لمدة قليلة، طريقةً اضطُروا لها، لا أعرف ـ بوضوح متكامل ووثيق ـ مراحل وكيفية الاتفاق عليها.

ولعل هناك علماءَ آخرين ـ غير الذين تَعَرَّفْتُ عليهم ـ قد هاجروا أيضاً أو ربما بعضهم، لم تتوفر معلومات عنهم.

وهناك بلدان كثيرة فيها أقليات إسلامية بدأت وتزداد، تتولى سلطة فيها، وهناك مسلمون في بلدان فَقَدوا سلطتهم، لكنهم بقوا. وبقاء المسلم في هذه الظروف هو نوع من استمرار الدعوة وتوسيع لأهلها. فإن البقاء والاستمرار تثبيت وتقوية، ربما تقود إلى انتشاره

= وحرقوا كما يريدون، وكان الطرد الكبير سنة ١٠١٨هـ (١٦٠٩م) إن لم يكن الأخير الذي سبقته ولحقته أطراد متعددة. وفرضوا عليهم كل ما يقضي عليهم وعلى دينهم، واستباحوا كل حرمة لينتهوا منه بأيّة صورة، ثم كانت المقابر الجماعية. أدناه، ١١٣ .

ولقد أدان البحثُ المُنْصف القديم والحديث فرناندو الكاثوليكي (منبع ومستنقع الصفات الذميمة، حتى عندهم) بأقلام المؤرخين المعاصرين له واللاحقين، ومنهم الإسبان ووصفوه بأقسى الصفات. وممن وصفه بذلك معاصره مَكْيافلّي Nicola MACHIAVELLI (١٥٢٧م) في كتابه " الأمير ": " وقد كان دائماً يستعمل الدين ذريعة ليقوم بمشاريع أعظم، وقد كرس نفسه بقسوة تسترها التقوى لإخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم، وبمثل هذه الذريعة غزا إفريقية ثم هبط إلى إيطاليا، ثم هاجم فرنسا ". ويقول عنه أحد كبار مؤرخي القرن السادس عشر ثوريتا: " وكان مشهوراً لا بين الأجانب فقط، ولكن بين مواطنيه أيضاً، بأنه لا يحافظ على الصدق، ولا يرعى عهداً قَطَعَه، وأنّه كان يفضل دائماً تحقيق صالحه الخاص على كل ما هو عدل وحق ". نهاية الأندلس، ٣٥٠ .
وما كان لمثل هذه الصفات المتدنية المتردية المتعرية، أن تغلب الحق وأهله لولا ضعفهم وتشتتهم وهجرتهم.

وكلمة حق تقال ـ ولو مروراً سريعاً ـ إنّ الأندلس أرض جهاد وموطن خير وموقع حضارة، ولم تَخْلُ من ذلك في كلّ الأوقات، حتى أيام الاختلاف والمنازعات، على قدر متفاوت، أوقات الطوائف وأيام غرناطة الأخيرة، وأنّها احتملت الكثير حتى بعد السقوط ووقفت للجهاد. وها نحن نراها كيف احتملت وحشية محاكم التفتيش لنحو ثلاثة قرون ونصف!!! كانوا خلالها يُوَرِّثون أبناءهم الإسلام ويعلمونهم إياه.

بشكل جارف واسع يؤدي ويُوصِل إلى تولي المسلمين إدارة شئونهم واستقلاليتهم. وهذا أسلوب من أساليب انتشار الإسلام، له إلفة وقُدْوة.

وكم من ظروف مرّت بالحياة الإسلامية ـ خلال تاريخها ـ كانت صعبة مضنية، تعاطَفَ معهم آخرون واسلم البعض. ولا نعدم أمثلة في الأندلس قبيل السقوط وبعده وفي أشد الأيام حُلْكة. وهذا دليل كاشف على قوة هذا الدين وأحقيته وحقيقته وعمق جذوره في النفوس والقلوب والحياة، تخيف الأعداء ولا يستطيعون ردّها، وتثيرهم بذلك إلى أساليب التوحش المتجاوز والحقد المتعطش، لإصرارهم على محاربة الإسلام وأهله. وهو ما رأيناه لدى سلطات إسبانيا النصرانية والكنسية التي كانت تظنّ أنّها تقضي على الإسلام بالإغراء والمصانعة أو الدماء والقمع، لكن رأت أنّ كل تلك الأساليب ضاعت وتاهت وما صنعت. ولم تترك أُسلوباً ـ دلّ على وحشية الإنسان، بدون هداية الله الحقّة، بهذا الدين، انخفضت به إلى دون الحيوانية ـ إلاّ وسلكته.

ظُروفٌ قاسية وأسبابٌ واهية

فلما أصابها العجز، وحتى زادت الشدة في ممارسة الوحشية بكل ما فيها من منافع ومغانم وتحقيق للرغبة والجرائم وتغذية التعطش للدماء والانتقام، لجأت إلى ما يُعْرَف بالطرد الأخير الذي كان سنة (١٠١٩هـ= ١٦١٠م)[١]. بل ومع ذلك لم تستطع أن تطرد كل ما هو إسلامي. فقد بقي الكثير منهم، كما زاد التعقب وإحكام الربقة والتتبع بالعيون، تصل إلى الدُّور والحياة الخاصة، كلما زادوا كتماناً وابتدعوا أساليب عجيبة، بها جرى الترابط

---

(١) انظر: أعلاه، ١١١، حاشية. كذلك: الأنوار النبوية في آباء خير البرية [المخطوط]، ٣٣٥ . نهاية الأندلس، ٤٠٧ .

والاتصال ونقل المعرفة الإسلامية واللغة ـ بأي مقدار ولأي حين ـ إذ استمرت محاكم التفتيش إلى أواسط القرن التاسع عشر، أو ربما أواخره. وآخر ما وُجِد من جرائم ومظالم في حق الإنسان المسلم، المقابر الجماعية[1]. ولعلها ليست خاتمة الغرائب ولا آخر العجائب ولا أخف النوائب.

وبعدها استمرت المتابعة ـ بروح المحاكم التفتيشية ـ لكل ما هو مسلم في غير الإنسان ـ مع مصاحبة ذلك مبكراً لبدايات وحشياتها ـ مما تبقى في النِّتاج الفكري والعُمراني الصامت الناطق في المؤلفات التي نجت من المحارق والمهالك العبثية الهائلة والمباني التي بقيت بعد المعاول النازلة، ما زالت تتحدث، معبرةً عن بشاعة ما ارتُكِبَ بحقها مُفْصِحةً عن حقيقة أصالتها مشيرةً إلى ما يجب العمل نحوها، باسطةً أبعادها محولةً النظر إلى مستقبلها، بعد تلك الأيادي البيضاء على الأندلس وأوربا والعالم عموماً والناس أجمعين، فضل هذا الدين ونعمة الله على العالمين. واستمرت السلطة الكنسية تحارب الإسلام وتَسْعى حثيثاً إلى رحيل

---

(١) ولها قصة محزنة مبكية، خلاصتها: أنه في أوائل عام ١٩٧٩م اكتُشِفَت مقبرة جماعية في كنيسة قديمة بمدينة يَرينا LLERENA، غربي إسبانيا، قرب مدينة بَطَلْيَوْس BADAGOZ الإسبانية، على حدود البرتغال، فتكتمت الكنيسة عليها. ولكن في صيف العام المذكور أشيع أمرها وتكاثرت وسائل الإعلام حولها، فأرادت السلطات الإسبانية والكنيسة صَرْفَها عن حقيقتها وتفاصيلها. فصدرت تعليلات عن ذوات هذه المقابر في أنّهم ضحايا حروب قد تكون الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٧م). وكان التعليل الذي قدّمه كاتب هذه السطور أنّهم ضحايا محاكم التفتيش الإسبانية ضد الموركسيين في أواخر مدة هذه المحاكم أو بعد إلغائها (١٨٣٥م). ثمّ إنّهم لم يسمحوا إلاّ للصحفيين لفترة، للتعرف عليها وتصويرها. ثمّ منعوا ذلك إلاّ لطلبة كليات الطب الإسبانية، لصرف الناس عنها وإماتة خبرها، أو قبرها كما قبرت هي، وتمّ لهم ذلك.

ويقدّر عدد الجثث المقطعة والمعذبة والمضربة في هذا القبو المقبرة بنحو ثمانية آلاف. محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها، ١٢، ٦٥ وبعدها.

ولعل هذه المقبرة الجماعية ليست الوحيدة، فهناك العديد غيرها. وقد جرت محاولةٌ صيفَها في مدريد لزيارة هذه المقبرة الجماعية التي تبعد جنوب غرب مدريد نحو ٤٠٠ كيلومتر، ولكنها للأسف لم تفز بشيء من ذلك، ولعله يتم ذلك مستقبلاً، بعون كريم من الله تعالى.

المسلمين من الأندلس وهجرتهم عنها. وكانت هذه رغبة السلطات الإسبانية وأعانت عليه، وقد هاجر غير قليل من عموم الناس[1].

ولقد اتبعت هذه السلطات الباغية العاتية البالية وسائل معلومة، فكانت التصفيات المُبيرة تتم عن طريق التقتيل المبيد والتهجير البليد. وكذلك الاتهام والتشويه والتجويع والتجهيل، وبذلك يتم التذويب والإفناء. ويكون التركيز شديداً على القادة من العلماء والأنجاد والفرسان، وبذلك يكون الضَّياع والانتهاء منهم، طريقاً للقضاء على الإسلام وأهله ومُتعلقاته.

وبتلك الأساليب المتوحشة العمياء الملطخة بالدماء، والتي انتهت بهجرة أو تهجير المورسكيين والقضاء عليهم، بالبقاء المذيب أو الرحيل بل الترحيل العجيب، خَسِرت إسبانيا خسارات متنوعة ولم تربح شيئاً، بل قد قتلت الإوَزَّة التي تَبيض ذهباً، كما يقول لين بول[2]. لكنها ربحت الأنانية وغذتها وأنعشتها، وإن كانت أسست إمبراطورية تقوم على القهر والظلم والاعتداء، حتى على شعبها وغيره من أبناء دينها وأتباع ملتها.

ومنذ وقت مبكر أدرك ذلك العديدُ من منصفي المؤرخين والكُتّاب الإسبان وعموم الأوربيين والغربيين والدارسين، وتحدّثوا كثيراً وتأكيداً وتفصيلاً. حتى عن الخسائر المادية التي لحقت بإسبانيا من جراء ذلك[3]، فضلاً عن الخلقية والإنسانية والحضارية: من محاربةٍ لدين الله الحق وقيمه وما أوقع ذلك من ظلم ووحشية وتَعَدٍّ، جعلوه قانوناً وديناً، والله ودينُه الحق منها براء، في حفلات الحرق الجماعي الإيمانية! AUTO - DA - FE؛ والإساءة إلى الإنسان وإهدار حقوقه كافة وحياته، بل وحتى دمه، بادعاءآت ما أنزل الله بها من سلطان،

---

(١) نبذة العصر، ٤٥، ٤٨ .

(٢) العرب في إسبانيا، ٢١٥ .

(٣) نهاية الأندلس، ٤١١ ـ ٤٣٢ .

وتأباه كل فطرة فيها بقيةٌ من نظافة؛ ومحاربة كل يد كريمة طَهور بيضاء ونِتاج ارتقاء بَنَّاء ومعطاء. أولها الاحتفال بحرق مئات الآلاف من المخطوطات الإسلامية (العربية) في يوم أسود كئيب ونحيب وجيب قاتم وغريب، بأمر الكردينال الحاقد المهووس الجهول خمينس XIMENES DE CISNEROS، صاحب العاهات ومَجْمَع بُؤَرِها، في حفل ضخم بُعَيْد سقوط غَرْناطة بسبع سنين (٩٠٤هـ = ١٤٩٩م) في أكبر ساحاتها، ساحة باب الرملة BIBRAMBLA، سُمِّي أيضاً AUTO - DA - FE. وطبعاً تمّ ذلك رغم وجود المعاهدة التي تمنعه وأمثالَه قطعيًّا[١]، غير مصغ لأي رأي أو نصيحة أو رجاء.

ويصف الكاردينال ريشليو RECHELEO الفرنسي في مذكراته قسوة هذه السياسة، مما مهد سنة (١٥٠٠م) لثورة عارمة شاملة قاتمة في بيازين غَرْناطة ALBAYZIN (ALBAICIN) ومناطق أخرى من مملكتها[٢]، مُديناً مأساة محاكم التفتيش بقوله (وكان معاصراً للمأساة): "إنّها أشد ما سجلت صحف الإنسانية جرأة ووحشية". كما يقول بأنّها: "أعرق إجراء في الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ في أي عصر سابق"[٣].

وهذا الاتجاه في إدانة هذه المعاملة القاسية المتوحشة المتجهمة ومحاكم تفتيشها يزداد ويتسع أُفقاً وعمقاً لدى الكثير جداً من الدارسين والباحثين والمؤرخين، ولدى الإسبان أنفسهم وتتغير النظرة لها. ولقد أخبرني أحد الكتبيين في مدريد، الذين تعوّدت التردد عليهم لشراء الكتب عن الموريسكيين بأنّه " يشعر أنّ محاكم التفتيش عار في جبين إسبانيا نخجل منه". قامت به ضد الذين حَضَّروها وعَمَّروها وهَدَوْها للخير، خيريْ الدنيا والآخرة، وحققوا إنسانيتها ومكنوا للقيم الفضلى فيها. وكان من ذلك أنّها غدت أكبرَ مَعْبَرٍ لجوانب من الحضارة الإسلامية الإنسانية العلمية الكريمة إلى أوربا. نَهَلَت منها وعَلَّت ووردت رَيًّا

---

(١) نهاية الأندلس، ٣١٦. مواقف حاسمة، ٣٢٦. الآثار الأندلسية الباقية، ٣٤٦.

(٢) التهجير القسري، ٣٤-٣٥، ٣٧، ٥٦.

(٣) نهاية الأندلس، ٤١٧، ٤٢٣.

من نهرها العذب الزلال، فكانت الحضارة الحديثة ـ بكل فضائلها وخيراتها ـ واحدةً من عطايا وهدايا الإسلام، تَقَدَّم به إلى العالم من إسبانيا بصورة رئيسية.

واليوم فإنّ كل ما في الحضارة الحديثة من فضائل وفوائد وفوالح إنّما هي من الحضارة الإسلامية. وكل كآبة في الحضارة الحديثة ونقائص ومفاسد وُجِدَت كان بسبب تجنّبها الأخذ من مقومات الحضارة الإسلامية، لعلاجها وإقامة بناء الخير لها. ومن أسف شديد، إنّ ما عَبَر من الحضارة الإسلامية إلى أوربا كان من خلال قنوات يُشرف عليها الرهبان والقسس، الذين ـ بتعصبهم الأعمى ـ منعوا مرور كل ما له صلة بالعقيدة والشريعة ـ وهي أساسيات تلك الحضارة ومنبتها ومنبعها ـ الأمر الذي أورثهم هذه المفاسد، وسمحوا فقط للعلوم التطبيقية مجردة من أسسها ومقوماتها وروحيتها وخصائصها، التي بها كانت وما تكون إلاّ بها. وبه هي والعالم يرفل اليوم بالخير العميم، وإلى أن يشاء الله ويُوَرِّثها قوماً آخرين من اتباع دينه الحق: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ﴾[1]

ولذلك حتى هذه العلوم ـ في الحضارة الحديثة ـ اتجهت أحياناً إلى الإضرار بالإنسان وحياته وحضارته، بأيدٍ لا تخشى الله ولا تبحث عن رضاه، نبتة لا تحيا في الماء الصافي وحُوِّلت إلى منبت رديء، تعطي ثمارها بتذابل إلى حين. فهي تحمل بذاتها عوامل انهيارها وذَهابها ـ مهما طال عمرها ـ ملتحقة بمثيلاتها. وهو ما يحذر منه عقلاء الأوربيين والغربيين أنفسهم عموماً ـ من أمثال برتراند رسل (١٩٧٠) BERTRAND RUSSELL البريطاني ـ من خطر سقوط هذه الحضارة الحديثة وأذاها للإنسان وتدميرها لحياته، رغم كل ما فيها من خير وفضائل وإنجازات. وهذا أمر طبيعي ولا يكون غيره، لبعدها عن منهج الله تعالى.

ولا بد أن تَرِثَها حضارةُ الإسلام الفضلى الرفيعة البديعة. تلك الحضارة الإنسانية وحياة مجتمعها القائمة على شرع الله تعالى ومنهجه الفريد. فهي تحمل بذاتها عوامل الحياة

---

(١) الأعراف، ١٢٨.

الفاضلة الخيِّرة والإنبات والنمو، لجوانب الحياة البشرية كافة. فهي حية لا تموت. ولكن لله تعالى سنناً نافذة، لا بد من إدراك جريانها، كما لا بد من الأخذ بها للارتقاء والنماء والبناء، بالاستقامة على منهجه والعمل به وسلوك طريقه، ملتزمة به، وتبقى قريبة من الله متوجهة إليه في كل الأحوال لائذة به مقبلة عليه. وعندها تصح مسيرة الإنسان ويستدير بها الزمان ليعود كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وتبقى بذلك حية لا يأتيها ذبول أو موت من أي مكان. فالأمر لا يستقيم إلاّ بالأخذ بالإسلام كله، وعليه تقوم الحياة الإسلامية المثلى، كما كانت وأعطت، لترجع الحياة وتعود تبدأ بدوران دولابها كما خلقها الله، إن شاء الله سبحانه وتعالى وبفضله العميم الكريم.

[واقرأ إذا شئتَ الآيات التالية كذلك: غافر، ٦٤ . الإسراء، ٧٠ . ثم: البقرة، ١٤٢ . آل عمران، ١٩، ١٠٤، ١١٠ . المائدة، ٢].



العُلَماءُ المُهَاجرون ، تتابُعُهُم وتتبُّعُهُم

أمكن معرفة أسماء العديد من العلماء والأدباء والأنجاد الأندلسيين، الذين هاجروا من الأندلس إلى الشَّمال الإفريقي والمشرق[١]، وغيرها من أرجاء العالم الإسلامي[٢]. سواء كانوا مجموعاتٍ[٣]، أو أُسراً أو أفراداً[٤]، قبيل سقوط غرناطة بمُدَيْدة، وخلالها وبُعيدها. ولكن الحديث يدور حول علماء الأندلس الذين هاجروا حول أحداث السقوط، سقوط غَرْناطة، وليس البعيدين عن ذلك مِن قَبْلُ ومِن بَعْدُ. ومَن توفرت عنهم أخبار ومعلومات مِن هؤلاء ـ ولو قليلة ـ ممكن أن تُقَدِّم الموضوع وتخدمه كذلك.

أما مَن غادرها قبل مقدمات نُذُر أحداث سقوط غَرْناطة[٥]، فليس من موضوع البحث. كذلك ليس من موضوعه مَن هاجر منها بعد السقوط بعقود من السنين، أمثال: الشهاب الحَجْري(الحَجَري)، ومحمد بن عبد الرفيع[٦]. أما العلماء الذين بقوا في الأندلس أمثال الإمام الموَّاق يؤدّون واجبهم ويقفون في وجه الطغيان، حمايةً لدينهم وأهله ـ أهل ملّتهم ـ فليس من موضوع البحث الحالي، وإن جرت الإشارة إليهمَ وإكبار موقفهم وتقدير وجهتهم. فلعلّ لهذا الموضوع بحثاً مستقلاً في قابل الأيام إن شاء الله تعالى وبعونه.

ولقد أمكن التعرف على العديد من أسماء العلماء الذين هاجروا من الأندلس حول سقوط غَرْناطة، سيرد الحديث عمن توفرت عنه معلومات. كما عرفنا مجموعات بقياداتها،

---

(١) جرى ترتيب تناولهم، حسب تاريخ هجرتهم من الأندلس، بَدْءاً بالأسبق منهم.

(٢) أزهار الرياض، ١ / ٧١ .

(٣) أزهار الرياض، ٦٧ ـ ٧٢ .

(٤) أزهار الرياض، ١ / ٧١ ـ ٧٢ .

(٥) انظر: برنامج المُجَاري، ٣٠ .

(٦) انظر الكشاف العام.

مثل: أبو الحسن المنظري[١]. وأُسر لم تتوفر معلومات عن هجرتهم، مثل: بني سِراج[٢]، وأَسر أُخرى توفرت معلومات تكفي لإدراجهم والكتابة عنهم، مثل: أُسرة الحسن الوزان[٣].
وترتيبُهم كما يلي: وسيرد الحديث عن ثلاثة عشر من علماء الأندلس، أفراداً أو أُسَراً أو مجموعات.

---

(١) انظر الكشاف العام.

(٢) نهاية الأندلس، ٣١١ وبعدها.

(٣) الأعلام، ٢ / ٢١٧ .

أسماء العلماء الذين هاجروا من الأندلس، مع تاريخ هجرة كل منهم، والتي بعضها تقريبي حَسَب ما أمكن، وإليك هم:

الاســـــم	تاريخ الهجرة من الأندلس
١ - أبو الحسن القَلْصادي	٨٩١هـ
٢ - بنو داود: ابن داود أبو جعفر أحمد البَلَوي الوادي آشي	٨٩٤هـ جُمادى الثانية
٣ - أبو القاسم الفِهْري القُرْعة	٨٩٤هـ جُمادى الثانية، مع بني داود.
٤ - أبو عبد الله الجِعْدالَّة	٨٤هـ
٥ - أبو محمد الجابِري الزَّيْعَجي	٨٩٤هـ
٦ - ابن الأزرق الأَصْبَحي	٨٩٥، ٨٩٦هـ
٧ - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد الوادي آشي المؤرخ	٨٩٦هـ أو بعدها
٨ - أبو الحسن عليّ بن القاسم بن محمد التُّجيبي الشهير بالزَّقاق	٨٩٧هـ
٩ - أبو العباس البَقَنّي	٨٩٧هـ بعد السقوط
١٠ - أبو العباس الدَّقُّون	٨٩٧هـ بعد السقوط
١١ - أبو الحسن البَيَّاضي	٨٩٧هـ بعد السقوط
١٢ - أبو عبد الله العُقَيْلي	٨٩٩هـ
١٣ - الحسن بن محمد الوزان	٩٠٤هـ

١ . أبو الحَسَن القَلْصادي

الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القُرَشي البَسْطي[١]، الشهير بالقَلْصادي، وبذلك عُرِف. مولده في مدينة بَسْطة BAZA سنة ٨١٥هـ (١٤١٢م)، وأصله منها. وفي بسطة درج وتفقه وتلقى العلم على العديد من شيوخها. ثم انتقل إلى غَرناطة أو تردد عليها وتزوّد من علومها وتفقه بشيوخها، لاستكمال تعليمه على يد كبار مشايخ عصره، حتى أصبح من أكبر العلماء وصالحيهم. وهو أحد العلماء الخمسة عشر الذين رفضوا نقض بيعة أبي الحسن عليّ بن سعد لبيعة ابنه أبي عبد الله الصغير محمد (الحادي عشر)، آخر ملوك غَرناطة[١].

وقد وُصف القَلْصادي بأوصاف التفوق مُتحلياً بمزاياه، مثل: الشيخ الفقيه العالم الصالح المؤلف الفَرَضي[٢] الرُّحْلة[٣]، آخِر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس[٤]. فصار مرجعاً

---

(١) انظر: رحلة القلصادي، ٣٠ وبعدها. وتجد تمام اسم هذه الرحلة، ر٨٢، وهي المسماة: تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب. وقد أَفَدتُ منها كثيراً فيما يتعلّق بالمؤلف (القلصادي) بصورة رئيسية، سواء من نصوص الرحلة أو من دراسة المحقق. عنه انظر: نفح الطيب، ٢/٦٩٢ . نيل الابتهاج، ٢٠٩ . درة الحجال، ٣/٢٥١ . ثَبَت البلوي (أبو جعفر أحمد) ، ١٠٤ . (وسأُشير إليه من الآن باسم: ثَبَت أو ثَبَت البلوي). الضوء اللامع، ٥/١٤ . برنامج المُجَاري، ٣٠ . الحلل التونسية، ١/٦٧١ . الأعلام، ٥/١٠ . نهاية الأندلس، ٤٩١ . ثبَت المُحَدِّث: ما يَجمع فيه مرويّاته وأسماء شيوخه. أما ثَبْت فتعني صفة له: أي: ثقة شجاع عاقل. والقَلْصادي جعلها البعض: القَلَصادي. نفح الطيب، ٢/٦٩٢ . والبعض الآخر: القَلْصادي. الضوء اللامع، ٦/ر١٤، وهو الأرجح، لأنّه نسبة إلى مدينة قَلْصادة، وتُعرف بالإسبانية SANTO DOMINGO DE LA CALZADA. الحلل الأندلسية، ٢/١٧٧ . وتقع شرق غرناطة.

(١) المعيار المعرب، ١١/١٤٩-١٥١ .

(٢) الفَرَضي: عالم الفرائض. وعلم الفرائض: علم تعرف به قسمة المواريث الشرعية.

(٣) عالم رُحْلة: يُرْتَحل إليه من الآفاق.

(٤) نيل الابتهاج، ٢٠٩ .

في عديد من العلوم، لا سيما في الحساب والفرائض. فيقول عنه تلميذُه ابن داود أبو جعفر أحمد البَلَوي الوادي آشي في " ثَبَته " : " أول مَن قرأتُ عليه بحضرة غَرْناطة شيخُنا الإمام العلاَّمة الحاج الصالح الرحّال فَرَضيّ العصر وعدديُّه ذو التصانيف العديدة الكثيرة والفوائد الفريدة الغزيرة أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي الشهير بالقَلْصادي قدس الله روحه ونور ضريحه. أَخذتُ عنه عِلْمَيْ العدد والفرائض، تفقّهاً وعملاً، وحصل لي ببركته وخالص نيته، نفعه الله ونفع به، نَفْعٌ كثير. ولم أرَ مثلَه سلامةَ باطن وصدقَ نيّة وحرصاً على إيصال الإفادة رحمه الله"[١].

إن شهرة القَلْصادي بالحساب والرياضيات ومؤلفاته فيها، بلغت درجة وشهرة ومكانة عالية، حتى ليمكن أن يوصف بالحيسوبي الكبير[٢]. له مؤلفات متعددة ذكَر بعضاً منها كُلٌّ من السخاوي في "ضوئه" ، والمَقَّري في " نفحه"[٣]. وله رحلة مشهورة سرد فيها الكثير مما يتعلّق به وذكَر شيوخَه الذين أَخذ عنهم، معدداً ثلاثاً وثلاثين في الأندلس وخارجها.

ترك القَلْصادي الأندلسَ في رحلته الأولى سنة ٨٤٠هـ(١٤٣٦ - ١٤٣٧م)، متجهاً إلى تِلِمْسان، ثم تركها إلى تونس، ثم إلى مصر - مارًّا ببعض المدن لمدة قليلة - مُتَّجَهه إلى الحج، ثم عاد إلى الأندلس وإلى بَسْطة مسقط رأسه، ثم انتقل إلى غَرناطة مستقِرًّا فيها بعد أن كان يتردد إليها قبل ذلك[٤]. لكنه سنة ٨٩١هـ(١٤٨٦م) أو قبلها ترك الأندلس للمرة الثانية والأخيرة وهاجر منها مبكراً قبل السقوط، حيث لاحت له بوادرُه، بل منذ بدايات الأحداث

---

(١) ثبت البلوي، ١٠٤ .

(٢) استُعمل هذا التعبير في وصف علماء الحساب والرياضيات والفرائض، ويمكن أن يُستعمل الآن، الحيسوب أو الحيسوبي أو الحاسوبي للعالم المتخصص، والحاسوب للجهاز .(Eng. COMPUTER, Sp. ORDENADOR)
انظر : درة الحجال، ٢ / ١٤١، ٢١٥، ٢١٦ .

(٣) نفح الطيب، ٢ / ٦٩٣ - ٦٩٤ . الضوء اللامع، ٦ / ١٥ .

(٤) رحلة القلصادي، ١٦٢ .

التي قادت إلى السقوط، متجهاً إلى تِلِمْسان. ثم بدا له الارتحال نحو باجَة إفريقيا (تونس) حيث توفي بها، منتصف ذي الحجة سنة ٨٩١هـ (١٢ / ١٢ / ١٤٨٦م) . فالظاهر أنّه هاجر منذ البدايات المبكرة لِنُذُر السقوط، أي قبل السقوط بست سنوات، ولم ينتظر أو يشارك في الأحداث أو يؤدي واجبه الأَوْلى والأَجدى والأَحْرى نحوه.

وها هي خلاصة نص المقري في " نفحه " المتعلقة بما تَمَّ من أُمور تخص القَلْصادي، ولا سيما المهم منها المتعلق بالموضوع، خاصة ما يتعلق بهجرته من الأندلس: " وأصله من بَسْطة، ثم انتقل إلى غَرْناطة فاستوطنها، وأخذ بها عن جماعة، ثم ارتحل إلى المشرق ومر بتِلِمْسان، ثم ارتحل فلقي بتونس، ثم حج ولقي أعلاماً، وعاد فاستوطن غَرْناطة إلى أن حل بوطنه ما حلّ، فتَحَيَّل في خَلاصه من الشرك وارتحل، ومرَّ بتلمسان فنزل بها على الكفيف ابن مرزوق ابن شيخه، ثم جَدَّت به الرحلة إلى أن وافته منيتُه بباجة إفريقيا منتصف ذي الحجة سنة ٨٩١هـ"[١] .إذاً فلقد كانت رحلته الأولى من الأندلس إلى الشَّمال الإفريقي والمشرق، للاستزادة من العلم واستكمال دراسته ولأداء فريضة الحج التي كان ـ كغيره، لا سيما من أهل الأندلس والمغرب ـ يتوق إليها دوماً.

فبعد تركه الأندلس سنة (٨٤٠هـ) اتجه إلى تِلِمْسان بالجزائر. وما إن حلّ بها حتى بدأ الأَخذَ عن علمائها، وألف بعض الكتب فيها. كما أَخذ عنه الجَمُّ الغفير من التلاميذ في الحلقات التي كان يعقدها. وبعدما قضى زيادة على ثمان سنوات توجه إلى تونس، فأقام بها نحو سنتين ونصف وضع خلالها بعضَ المؤلفات، ثم اتجه إلى القاهرة ـ عَبْر جزيرة جِرْبة وطرابلس الغرب والإسكندرية ـ فأقام بها نحو نصف عام، حيث اتجه إلى الأراضي المقدسة لأداء حجّه.

(١) نفح الطيب، ٢ / ٦٩٢ ـ ٦٩٣ " بتصرف" . كذلك: الحلل التونسية، ١ / ٦٧٢ .

ولما أتم مناسك عمرته وحجه عاد أدراجه إلى الأندلس، بالطريق نفسها، ماكثاً وقتاً مّا ببعض محطات الذهاب، في رحلة علمية ـ استغرقت نحو خمسة عشر عاماً ـ أَخذاً وعطاءً ونشراً وإفشاءً ونَثْراً وَبَثًّا لعلمه ومؤلفاته، مُسْتَقِرًّا في بَسْطة مسقط رأسه "وموضع أول أنفاسه مقر الأُلفة والأُنس من جزيرة الأندلس أدامها الله للإسلام وحماها من عَبَدة الأصنام". حيث قضى فيها أزماناً تذكَّرها: "كانت هناك كالعرائس وليالىَ نفائس سقى الله أرجاءها المشرقة وأغصانها المورقة شآبيب الرضوان ومنحها الأمن والأمان"[1]. ليبقى فيها مُدَيْدة، يتوجه بعدها إلى غَرْناطة حيث عاش فيها حياة علمية غنية نشيطة جواداً، توسع فيها عطاءً وإقراءً ومشاركة وتأليفاً. وتلقى فيها العلم على شيوخ جِلّة ذكر منهم العالِمَيْن الجليلين الصالحين أبا إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد بن فَتُّوح العُقَيْلي وأبا عبد الله محمد السَّرَقُسْطي[2]. وشاركه في الأخذ عنهما رفيقُه أبو عبد الله محمد بن الأزرق الأَصْبَحي، كما كان من تلامذته فيها أبو جعفر أحمد بن علي بن داود البَلَوي صاحب "الثَّبَت"[3]، وأبو الحسن علي البَيّاضِي.

والمشيخة والتلمذة[4]، في الحياة العلمية للمجتمع الإسلامي وحضارته، من الميزات القوية القويمة الكريمة التي تُرَسِّخ قواعده وتقيم حقائقه وتقدم روائعه، بحيث كان العلم ـ أخذاً وعطاءً وتَلَقِّياً وبذلاً، أساتذةً وطلاباً ومواد علمية، تأخذ بأنواع الصيغ ـ يظهر بأصالته وقوته وينمو بصفاء وصلاح وقوة، مبنيًّا على ما ينميه ويحافظ عليه، وِجْهَةً ومقوماتٍ وقواعدَ بناء، تتميز فيها وتقوم وتتفرد، حتى لتتقدم الحقائق باستحقاقاتها، لا تُغَيَّب ولا تُؤَخَّر ولا تُحْجَب. وهي تدعو بذلك أيضاً إلى التنمية والتقوية والإصلاح، ويُهيِّىء العوامل

---

(١) رحلة القلصادي، ٨٢، ١٦٠.

(٢) رحلة القلصادي، ١٦٤ وبعدها.

(٣) رحلة القلصادي، ٣٨. ثبت البلوي، ١٠٤.

(٤) أدناه، ١٣٧.

كافَّة والقائم على أُسسها. فيَظهر العالِمُ الحق الذي يُعْرَف بعلمه الصَّيِّن الدَّيِّن، ويُشار نحوه وتكون الرحلة إليه في ذلك. وكله قائم ومبني تالٍ، في ظل المعاني الإسلامية الإيمانية الربانية التي بها كان وقام واستمر، وهذا الموضوع ـ بجانب عوامله وسِماته ووسائله، كالرحلة مثلاً ـ بحاجة إلى دراسة مستقلة.

ولما بدت بوادر السقوط ـ سقوط غرناطة ـ تتزاحم وتتراكم، عَزَم القَلْصادي على الهجرة من الأندلس، ليس كالأُولى ـ طلباً للعلم وأداءً للحج ولقاءً للمشايخ ـ بل تركها نهائيًّا[1]. هَجَره انتصاراً له، لعله يُزْجي للأندلس نوعاً من العون والمساعدة والإغاثة، ويُدْرِك بما يَرُدُّ عنه هجمة الصليب الباغية، فاتجه إلى تلمسان، ثم إلى باجة إفريقيا (تونس)، كما سبق اقتباسه من النفح آنفاً[2].

وهذه العبارة التي تشير إلى سبب رحيل أو هجرة القَلْصادي من الأندلس والتي أَوردها العديدُ ـ ربما نقلاً عن بعضهم البعض ـ غامضة نوعاً مّا، باختلاف صيغها. غامضة مرتين أو من ناحيتين:

الأولى: أنّها مجملة لا توضح الحادثة ولا تبين السبب ولا تشير إلى قضية معينة. الثانية: أنّ اختلاف التعبير ـ بالكلمات نفسها ـ يعطي احتمالات متعددة وتكهنات متباعدة ومفهومات متغايرة. ولذلك فأُورد هنا العبارة ـ بتنوع رواياتها ـ من المصادر، مرتبة حسب وفيات رواتها، مبتدئاً بالأقدم منها.

يقول ابن القاضي (١٠٢٥هـ) في " دُرَّته"[3]: " وعاد فاستوطن غَرْناطة إلى أن نزل بوطنه ما نزل فتحيَّل في تخلّصه، وانتقل فأدركته المنية بباجة بإفريقية منتصف ذي الحجة".

---

(١) درة الحجال، ٣/ ٢٥٢.

(٢) نفح الطيب، ٢/ ٦٩٣.

(٣) درة الحجال، ٣/ ٢٥١ ـ ٢٥٢.

ويقول أحمد بابا التُّنْبُكْتي(١٠٣٦هـ) في" نيل الابتهاج" : " ثم حج ولقي أعلاماً وعاد إلى غَرْناطة فَوَطَنها حتى حلّ بوطنه ما حل فتحيَّل في تخليصه من المشرك، فأدركته المنية بباجة من إفريقية منتصف ذي الحجة سنة إحدى وتسعين وثمانمائة "[١].

ويقول المَقَّري (١٠٤١هـ) في " نفحه" : " ثم حج ولقي أعلاماً، وعاد فاستوطن غَرْناطة إلى أن حلّ بوطنه ما حلّ، فتحيَّل في خلاصه مِن الشرك وارتحل "[٢].

ويقول الوزير السَّرَّاج (١١٤٩هـ) في" حلله" : " ثم حج ولقي أعلاماً وعاد فاستوطن غَرْناطة إلى أن حلّ بوطنه ما حل فتحيّل في تخليصه من شرَك الشِّرْك "[٣].

والآن فاحتمال أنّ ابن القاضي نقل عن التُّنْبُكْتي، لأنّ ابن القاضي أحد تلامذته، ولكن التُّنْبُكْتي ذكر أنّه ينقل من تلميذ القلصادي: أبي جعفر أحمد بن داود البَلَوي صاحب كتاب " ثَبَت البَلَوي" الذي حين يترجم لشيوخه يبدأ بالقَلْصادي نفسه، ولكن لا يورد عن حياة القَلْصادي شيئاً غير عبارات قليلة، سبق اقتباسها[٤].

وبالنسبة للمَقَّري فهو - وإن ترجم له في نفح الطيب - إلاّ أنّه لايورد شيئاً في " أزهاره" عن القَلْصادي ولا يقدمه ضمن العلماء الذين هاجروا من الأندلس - وإلى تِلِمْسان - حين اشتداد الأزمة[٥]. مع أنّ القَلْصادي، حين رحل - رحلتَه الأُولى - من الأندلس ركب البحر من المُنَكَّب ALMUNECAR قاصداً تلمسان، عَبْر وهران التي استقر فيها أياماً[٦]. وهذا يُفْهَم منه أنّ القَلْصادي هاجر من الأندلس في بواكير النُّذُر أوقبل اشتدادها، حيث كانت

---

(١) نيل الابتهاج، ٢٠٩ .

(٢) نفح الطيب، ٢/ ٦٩٣ .

(٣) الحلل التونسية، ١/ ٦٧٢ .

(٤) ثبت البلوي، ١٠٤ .

(٥) أزهار الرياض، ١/ ٧١ - ٧٢ .

(٦) رحلة القلصادي، ٩٥ .

وفاته في باجة إفريقيا منتصف ذي الحجة (٨٩١هـ). وآخر ما نعرف من أخبار القَلْصادي في الأندلس قبل ذلك هو أنه كان أحد العلماء الخمسة عشر الذين أفتوا بعدم جواز نَبْذ بيعة أبي الحسن علي بن سعد لبيعة ابنه أبي عبد الله الصغير التي كانت في أواسط رمضان سنة (٨٨٨هـ)، أي أنّ هجرته يمكن أن تكون في هذه السنة نفسها أو في التي بعدها، في وقت قريب أو بعيد. وهذا يعني أنّه ترك الأندلس قبل السقوط - سقوط غَرْناطة (٨٩٧هـ= ١٤٩٢م) - بما لا يقل عن ست سنوات.

لكن المقري في " نفح الطيب " - فيما سبق اقتباسه - يبدو وكأنّه نقل أيضاً عن " نيل الابتهاج " أو عن الأصل الذي نقل منه، فإنّ ما ذكره المقري عبارة عن تلخيص لما في " نيل الابتهاج ".

أما الوزير السَّراج في " حلله " فهو أيضاً يكاد يلخص - بطريقته - ما في " نيل الابتهاج "، ولكن صاحب " نيل الابتهاج " يصرح بأنّ ما ذكره منقول عن تلميذ القَلْصادي: أبي جعفر أحمد بن داود البَلَوي الذي لم يتوفر ذلك في " ثَبَته ". لكن ما ذكره الوزير السَّرَّاج يحل الإشكال، حيث يشير إلى أنّ هذه المعلومات - عن القَلْصادي - ذكرها ابن داود البَلَوي، وينقلها عنه من كتاب يسميه: " الغامض ". وقد يفهم من هذا إنّ ترجمة القَلْصادي متوفرة في كتاب " الغامض "، الذي يصرح الوزيرُ السراج بالنقل منه ويسميه. والغامض - حسب المعلومات المتوفرة - كتاب لا يُعرف له وجود الآن، حتى أنّ محقق " ثَبَت البلوي " - رغم متابعته وعنايته وجديته - لم يذكره ضمن مؤلفات ابن داود البلوي!!، الذي يُعرف له - غير الثَّبَت - كتاب آخر فقط هو شرح لقصيدة الخزرجية، يسمى "كتاب بحر البسيط في العروض"[١]. ويذكر التُّنْبُكْتي أنّ لأبي جعفر أحمد بن داود البلوي شرحاً" وله شرح على الخزرجية في العروض وغيره ". أَنجز هذا الشرح بمدينة غَلَطة - إحدى أحياء إستانبول، حيث

(١) ثبت البلوي، ٨٦-٨٨. نيل الابتهاج، ٩٠.

كانت إقامته ـ سنة ٩٠٨هـ (١٥٠٢م). ويعني كلام التنبكتي أنّ لابن داود كتاباً أو كتباً أخرى ـ غير الثَّبَت ـ في موضوعات مختلفة، لعل منها كتاب "الغامض" الذي يذكره الوزير السراج. ولعله يُفهم من عنوانه أنّه تحدث عن أمور غامضة بحاجة إلى إيضاح، مثل: قضية القَلْصادي التي يلفها الغموض. ولعله أيضاً يَدْرج فيه قضية البَقَنِّي التي نجهلها، إلا إذا كانت تلك معروفة كما ذكر ذلك المقري[1].

لكن محقق الثَّبَت يدعو للبحث عن مخطوطات أخرى لأبي جعفر ابن داود البلوي ويتوقّعها. وبهذا يتعيّن القول إنّ هذه المعلومات التي تخص القَلْصادي يكاد يكون قد نقلها الجميع عن كتاب "الغامض" تأليف تلميذه أبي جعفر أحمد بن داود البلوي الوادي آشي، مباشرة أو بالواسطة. لكن الذي يبدو محتملاً أنّ صاحب "نيل الابتهاج" اطلع على هذا الكتاب: "الغامض" ونقل منه دون أن يسميه، لأنّ الوزير السراج ـ مؤلف "الحلل" ـ الذي ينقل مباشرة من "الغامض" ويسميه، يذكر بعد ذلك مباشرة ـ ما ينقله عن أحمد بابا التُّنْبُكْتي في "نَيْله"، الذي حين نقل هذه المعلومات يذكر أنّه نقلها من أبي جعفر أحمد بن داود البَلّوي، تلميذ القَلْصادي، فيصدِّر التُّنْبُكْتي نقله بقوله: "وقال تلميذه الشيخ أحمد بن علي بن داود البلوي ...". ولكنه لا يذكر كتابه "الغامض" الذي ينفرد بذكره ويصرح بالنقل منه والأخذ عنه ـ حسب المعلومات المتوفرة ـ الوزيرُ السرّاج. والآن لو وضعنا العبارة الخاصة بسبب هجرة القَلْصادي من الأندلس ـ بصيغها المتنوعة ـ متجاورة، لسهُلت مقارنتها وفهمها وعُرِفَت فروقها:

* عبارة ابن القاضي في "دُرّة الحِجال": "إلى أن نزل بوطنه ما نزل فتحيَّل في تخلُّصه وانتقل".

---

(١) أزهار الرياض، ١/ ٧٢.

* عبارة التُّنْبُكتي في " نيل الابتهاج " : " حتى حلّ بوطنه ما حلّ فتحيّل في تخليصه من المشرك " .

* عبارة المقري في " نفح الطيب " : " إلى أن حلّ بوطنه ما حلّ فتحيّل في خلاصه من الشرك وارتحل " .

* عبارة الوزير السرّاج في " الحلل " : " إلى أن حلّ بوطنه ما حلّ فتحيّل في تخليصه من شَرَك الشِّرْك " .

فمن هذه العبارة - بصيغها الأربع - نلحظ أنّ السبب في هجرة القَلْصادي أنّه كان مستوطناً غَرْناطة، فلما رأى ما حلّ بوطنه الأندلس من قِبَل الشرك أو المشرك، فتحيَّل في تخلصه أو تخليصه أو خَلاصه من المشرك أو الشرك أو شَرَك الشِّرْك، فانتقل أو ارتحل - أو إن شئت القول - فهاجر من الأندلس إلى تِلِمْسان .

ولا ندري بالذي جرى وكيف تحيَّل، وما هو الأسلوب الذي اتبعه لينجو ويسافر أو يهاجر، مُخْرِجاً نفسه تجاه حواجز تَحُول دون ذلك. ولا ندري أكان ذلك في تخليص نفسه أو بلده! ولا ندري إن كان جرى ذلك لينجو من المشرك الحاكم الصليبي، أو الشِّرْك : الجو الذي فرضوه أو شَرَك الشرْك : الوسائل التي استعملوها ضد المسلمين، في ذلك البلد .

كل ذلك غير واضح تماماً . لكن هناك احتمالاً أن يكون الضمير في خلاصه أو تخليصه عائداً إلى الوطن أو إلى القَلْصادي نفسه، وكلاهما وارد . وقد يُرَجَّح هذا أو ذاك . ولعل الأكثر رجحاناً أنّه عائد إلى القَلْصادي نفسه، فَعَلَ ذلك نجدةً لبلده إن استطاع جلب شيء نافع .

إنّ وفاة القَلْصادي القريبة بعد ذلك (٨٩١هـ) لم تترك له مجال القيام بمهمة، عاملاً على رِفْده بلدَه ونجدته وتقديم أي عون له ليُعرف بها حقيقةُ الأمر . ولكن لا أُبْعِد أن يكون الثاني، أي ليعمل شيئاً ويسهم ويقدم ما يمكنه في تلك الظروف، لتخليص وطنه الأندلس .

لاسيما وقد تَعَرَّف على الأحوال في جولته الأولى الطويلة، التي استغرقت خمسة عشر عاماً، قضى أكثرها في تِلِمْسان، وعُرِف عند أولئك بمواصفاته ودينه وتقواه، وهو في موضع العلماء من كل ذلك. فكان يتوقع سرعة الاستجابة. وهذا ما دعاه أن يترك الأندلس مبكراً لأداء هذه المهمة والقيام بها بما يستطيع. ولذلك نراه اتجه إلى تلمسان، ثم لأمر ما اتجه إلى باجة تونس، لعله عن ترتيبٍ قَصَد الذَهاب إلى هناك ليتوجّه بعدها إلى تونس، قياماً بهذه المهمة وتحقيقاً لواجبه وأداءً لمستلزمات موقعه. ولكن أدركته منيته قبل الوصول إلى هدفه، مكاناً وعوناً ونجدة. فيكون معنى العبارة: أنّه تحيل لتخليص نفسه من المعوقات التي تحول دون خروجه من الأندلس، لعمل شيء يكون نافعاً، بالحصول على نجدة يقدمها مبكرًا للأندلس، فلعلهم أدركوا نِيَّتَه فحجبوه وأفلت مقبلاً.

وهكذا كانت وفاته على هذه الصورة، دون أن يقدم شيئاً ذهب من أجله، ويضعه في موقعه، ويزيل هذا الغموض للدارسين بعده. وبذلك فات القَلْصادي أن يقدم ما كان سيرفعه وما يمكن أن يَحمله إلى وطنه عائداً به، وكان قضاء الله سبحانه وتعالى قَدَرًا مقدوراً.

ويؤكد مشاركة القَلْصادي في حمل هموم وطنه الأندلس، أنّه كانت له مواقف، كنا نتمنى استمرارها بتفوق مطّرد يليق بشكل أكبر بالعلماء أمثاله، وهو في الأندلس باقياً فيها. ذلك أنّه أحد العلماء الخمسة عشر الذين أفتوا بعدم جواز نَبْذ وخلع بيعة السلطان أبي الحسن علي بن سعد، ومستنكراً تمردَ ابنه أبي عبد الله الصغير وطلبَه البيعة دون أبيه[١]. وهذه الفتوى كانت أواسط رمضان (٨٨٨هـ). وهذا يعني أنّ رحيله وهجرته من الأندلس كانت بعد هذا التاريخ، كما أشير إليه توّاً[٢]. فاتجه إلى الشَّمال الإفريقي، ناوياً

(١) المعيار المعرب، ١١/١٤٨ـ١٥٠. مقدمة رحلة القلصادي، ٤٨.

(٢) انظر: أعلاه، ١٢٦وبعدها.

وعازماً على مواصلة جهوده العلمية والسياسية، للحث على إنقاذ الأندلس وأهله من محنته، لكنه توفي في مدينة باجة التونسية في منتصف ذي الحجة من عام ٨٩١هـ (١٢/١٢/١٤٨٦م).

والحق ما كانت مثل هذه الرحلة أن تجلب نفعاً في تلك الظروف وبتلك السرعة، والمواقع تتساقط بتسارع، والعدو يتكالب ويتحارب ويتنمر، والناس تتهاوى بمدنها وأقواتها وأحوالها. وغيرُ بعيد أنّ هذا هو ما أحس به القَلْصادي بعد أن ترك الأندلسَ مُتجِهاً إلى تلمسان، فلم يجد شيئاً مهمًّا مفيداً منجِداً، فتركها آسفاً كاسفاً ناسفاً كل آماله. فلما لم يجد في تلمسان استهلالاً ولم يُدرك منها آمالاً ولم يأخذ لنفسه بَلالاً، فلم يجد بداً مِن تركها. لكن إلى أين، إلى الأندلس يعود خائباً نادباً ذائباً؟ أم يذهب إلى بلد آخر؟ فاتجه إلى باجة في تونس، ربما لعدة أسباب، يمكن للباحث استنتاجها، للبحث عن احتمالاتها. لعله منها ينطلق إلى تونس[1] - ثم القاهرة - لكن منيته فيها حالت بينه وبين ذلك.

والآن فبرغم حسن الظن وسداد التأويل وجودة النظر في فهم تصرف القَلْصادي، كان الأولى به البقاء في الأندلس، بقاءً في ميدانه وقدوة لإنسانه وتقوية لبنيانه، وسُنَّة لغيره، ولا سيما من أمثاله، من هؤلاء العلماء الذين هم حُمَاة الأُمة وقدوتها وورثة الأنبياء فيها. فكان بقاؤه في الأندلس خير نجدة يقدمها له.

وبعد نحو ست سنوات من وفاته سقطت غَرْناطة (٨٩٧هـ) واستسلمت كئيبةً نادبة نائبة - للملكيين الكاثوليكيين - حرةً أبية عزيزة، استسلمت بيد لئيم ماكر غادر، ودرةً نقية وقعت أمام أفّاك مُحتال كذوب، ومصونةً طاهرة نقية راحت ضحية التقصير، لتبدأ رحلةَ عذاب ومواجهة ومجاهدة جديدة، ما كانت على بال أحد من هؤلاء العلماء المهاجرين، إذاً ربما لَقَوَّضُوا - أو بعضهم على الأقل - رحالهم عائدين إلى الأندلس، إن كانوا هاجروا هجرة

---

(١) انظر: رحلة القلصادي، ٣٩.

نهائية عنها، مثلما فعل أبو العباس البَقَنِّي[1]، وإن كنتُ لا أعرف فصول قضيته الدامية، على ما يبدو.

فللقَلْصادي إذاً رحلتان: الأولى: لطلب العلم والحج والعمرة، حيث رحل من بَسْطة الأندلس "مسقط رأسي وموضع أول أنفاسي مقر الأُلفة والأُنس من جزيرة الأندلس أدامها الله للإسلام وحماها من عبدة الأصنام "[2]. فكيف تُحْمىَ من عبدة الأصنام إذا تركها خِيرةُ أهلها وتخلى عنها حماتُها وودعها مَنْ هم أولى بإحاطتها واحتضانها والحنو عليها بأهلها؟

وكان القَلْصادي قد تلقى العلم على يد العديد من المشايخ في بَسْطة "كلأها الله وأدامها للإسلام "[3]. يكلؤها الله ويديمها حين يقف أهلُها أعمدةً يحملون قضاياها وسيوفاً يَذُبُّون عنها، وأبطالاً يدفعون أعداءها، في الميدان نفسه لا يفارقونها وهم عليها قائمون. ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ ﴾[4] ﴿ واللهُ غَالِبٌ عَلَى أمره ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[5] . "وكان هذا وقت كانت بَسْطة وسوق العلم فيها قائمة، وكذلك كانت الحصون التي تلي بَسْطة، الغالب على أئمتها أن يكونوا من أهل العلم "[6]، فلا بد من الأخذ بالأسباب، باتباع سُنَن الله تعالى، وعندها يأتي عونُه ونصره وكرمه سبحانه عاجلاً. وهو بوضوح أمر مشهود ومشهور على مدار تاريخنا الإسلامي كلّه.

وكان ارتحاله من بَسْطة سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦ - ١٤٣٧م)، شادًّا رِحالَه إلى تِلِمْسان،

---

(١) أدناه، ١٩٨.

(٢) رحلة القلصادي، ٨٢ .

(٣) رحلة القلصادي، ٨٣ .

(٤) الأنعام، ٢٨ .

(٥) يوسف، ٢١ .

(٦) رحلة القلصادي، ٩١ .

فركب البحر من المُنَكَّب فنزل في وهران، ثم اتجه - بعد أيام - إلى تِلِمْسان[1]، حيث تلقى العلم فيها على كبار مشايخها. ثم ترك تِلِمْسان - بعد إقامة ثمان سنوات - إلى وهران، والتقى هناك بالعديد من شيوخها، ثم أبحر منها إلى تونس، وتلقى على عدد من شيوخها، فأبحر منها في ١٤ ربيع الأول سنة ٨٥١هـ (٣٠ / ٥ / ١٤٤٧م)، مارًّا بجِرْبة وطرابلس في المغرب، ثم الإسكندرية، فنزل بها متجهاً - نهراً، بحر النيل - إلى القاهرة التي بلغها في ١٦ جُمادى الثانية من العام، فتلقى فيها العلم. وفي رجب تركها متجهاً نحو الأماكن المقدسة، فأدى العمرة في رمضان، ثم أدى مناسك الحج، ثم اتجه إلى المدينة المنورة، على صاحبها الصلاة والسلام، ثم عاد إلى مصر في محرم سنة (٨٥٢هـ). وبقي مدةً، تلقى عن شيوخها، فاستعد للسفر في ٦ ربيع الأول سنة (٨٥٣هـ)، قادماً من القاهرة إلى الإسكندرية، ومنها أبحر - بطريق الذَهاب نفسها - إلى تونس، فوصلها في ١٩ جُمادى الآخرة، فارتحل منها - بعد مكوث سنة - إلى وهران فتلمسان، ثم ترك تلمسان يوم ١٩ ربيع الأول سنة ٨٥٥هـ (٢١ / ٤ / ١٤٥١م)، إلى وهران، حيث أبحر منها يوم الجمعة ٢١ ربيع الأول، فبلغ المَرِيَّة - ميناء الأندلس الشرقي - ليلة الأحد بعده، مُتَّجَهَهُ إلى بَسْطة، حيث قضى فيها مديدة التقى بمن فيهم الأَوِدّاء والشيوخ والأصحاب، ثم انتقل إلى كرسي الأندلس الحضرة غَرْناطة، للسكنى فيها.

---

(١) رحلة القلصادي، ٩٤ - ٩٥ . فيقول: " ثم توجهنا إلى المقصودة بالذات المخصوصة بأكمل الصفات: تلمسان، يا لها من شأن ذات المحاسن الفائقة والأنهار الرائقة، والأشجار الباسقة، والأثمار المحدقة، والناس الفضلاء الأكياس المخصوصين بكرم الطباع والأنفاس. ولا ينكر وجود الفاذ، من جميع الأجناس، وأدركتُ فيها كثيراً من العلماء والصلحاء والعُبَّاد والزهَّاد، وسوقُ العلم حينئذٍ نافقة وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة والهمم في تحصيله مشرقة وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية. فأخذتُ فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان، المشهود لهم بالفصاحة والبيان " .

الرحلة الثانية: ثم هاجر إلى الشَّمال الإفريقي، بعد أن تحيل لتركه الأندلس في الخلاص من شَرك الأعداء، بعد رمضان سنة (٨٨٨هـ)، وربما في السنة التالية أو التي بعدها. فاتجه إلى تِلِمْسان، ثم رحل إلى باجة التونسية، حيث أدركته الوفاة في منتصف ذي الحجة سنة ٨٩١هـ (١٢/١٢/١٤٨٦م)، في كنف الله سبحانه وتعالى ورحمته، محتسباً نيته.

الخُلَاصَة

أبو الحسن القَلْصادي

مولده: في بَسْطة الأندلس سنة (٨١٥هـ).

هجرته: له رحلتان:

الأولى: رحل من الأندلس، طلباً للعلم والحج سنة (٨٤٠هـ)، وعاد إلى الأندلس فوصل بَسْطة أواخر ربيع الأول سنة (٨٥٥هـ).

الثانية: هاجر من الأندلس إلى المغرب نحو سنة (٨٩٠هـ)، قبلها أو بعدها.

وفاته: في باجة تونس، منتصف ذي الحجة سنة (٨٩١هـ).

٢ . بَنُو دَاود

ابنُ دَاود البَلَوي الوَادي آشي

البَلَويون نسبة إلى قبيلة بَلِي* اليمانية[١]، وظهر منها أعلام كثيرون، خلال العصور الإسلامية ومهماتها، منذ أيام الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم. وفي الأندلس منهم أعلام متقدمة، وعلى الأغلب في العلم والأدب والقضاء. ظهروا في عدة مدن، أمثال: قرطبة CORDOBA وإشبيلية SEVILLA وقَنْتُورة CANTORIA وغيرها، نعرف منهم أُسراً عديدة. والبلويون معروفون في الأندلس خلال تاريخه، ظهر منهم علماء وأُدباء وقضاة، أمثال: أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي (بعد ٧٦٧هـ= ١٣٦٥م)، صاحب الرحلة الشهيرة: " تاج المَفْرِق في تحلية علماء المشرق"[٢].

وموضوع اليوم ينصب على علماء بيت بني داود البلويين. فهم من الذين هاجروا من الأندلس وغَرْناطتها، خلال محنتها وفي أثناء معاناتها ومعاركها الطاحنة مع العدو الصليبي الأثيم اللئيم الزنيم. وبنو داود البلويون عُرِفوا بكُنْيَتهم هذه: بنو داود، واشتهروا بها أكثر من البلوي. ولا يَلْحَق لقَبُ البلوي اسمَهم[٣] - بنو داود أو ابن داود - وأقل منه الوادي آشي[٤]، باعتبار أصلهم، إلا حين سَرْد تمام الاسم. وهذا ما رأيناه عند مَن كتب عنهم، لاسيما عند المَقَّري في "نفحه" و" أزهاره"[٥]. أُسرة بني داود أُسرة علم وجاه مرموقة

---

* لدينا العديد من الصحابة يحملون لقب البلوي، منهم أبو زَمْعَة البَلَوي، وهو من أصحاب الشجرة وبايع بيعة الرضوان. أسد الغابة، ٦/ ١٢٢ .

(١) جمهرة أنساب العرب، ٤٤٢-٤٤٣ . نفح الطيب، ١/ ٢٩٧ . انظر: الدراسة المقدمة في: ثبت البلوي، ١١ وبعدها.

(٢) نفح الطيب، ٢/ ٥٣٥ . نيل الابتهاج، ١١٥ . الأعلام، ٢/ ٢٩٧ .

(٣) ثبت البلوي، ١٣٩، ٢٨٨، ٤٢٣ .

(٤) ثبت البلوي، ١٧٩، ١٩٣، ١٩٤ .

(٥) نفح الطيب، ٢/ ٧٠٣ . أزهار الرياض، ١/ ١٠٣ .

يتوارثونها، ويكون الابن فيها تلميذاً لأبيه والأب أحد مشايخ الابن، عادةً[١] وعرفاً وسمتاً علميًّا معروفاً مُتَّبَعاً في المجتمع المسلم وحياته وبناء المعرفة فيه، في عهوده كلها.

والمشيخة والتلمذة[٢] عُرْفٌ علميّ أمجد وأزهر وأنضر في الحضارة الإسلامية، ومن أعمدة الحياة العلمية فيها بالغ الأهمية، في مقوماته العلمية الأصيلة الجادة المعتمدة. ومن المهم تناوله في موضوع مستقل. وكم من العلماء وَضَعوا مُؤَلَّفاً في مشايخه، وما تلقاه عنهم من العلوم ودَرَسَه على أيديهم من المؤلفات. وهو الذي سُمّي برنامجاً أو فَهْرَسة[٣] أو ثَبَتاً، كما عند أبي جعفر أحمد بن داود البلوي. وبرامج المشايخ أو الشيوخ تؤلف جزءاً كبيراً وتشغل حيزاً وتملأ رفوفاً في المكتبة الإسلامية، تمثل النشاط العلمي وتُلْقي على التدريسات في جامعاتها ومجتمعاتها وجوامعها كذلك ضوءاً قويًّا. ومَن يَدْرُس الحياة العلمية الإسلامية لا بد أن يلحظ ذلك كله، مثلما يلاحظ أن الرحلة في طلب العلم من المستلزمات لأهل العلم وطلابه ومريديه، مثل هذه الرحلات التي تستقل بمؤلَّف في كثير من الأحيان، كرحلة البلوي خالد بن عيسى ورحلة القَلْصادي ورحلة ابن رُشَيْد السبتي (٧٢١هـ): " مِلْءُ العَيْبة فيما جُمع بطول الغَيْبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطَيْبة"[٤].

وبنو داود البَلَوي الوادي آشي أُسرة عُرفت بوجهاتها ووجاهتها العلمية وسمتها الكريم ومكانتها الممدَّحة في الصلاح والتقوى وموقعها الواضح في المشاركة في المناشط المتنوعة في الحياة الإسلامية. والعلماء الذين يتولى هذا البحثُ تناولَهم ـ أفراداً أو أُسراً ـ تُلحظ فيهم

---

(١) ثبت البلوي، ١٧٦ وبعدها، ٢١٥ .

(٢) أعلاه، ١٢٥ .

(٣) انظر: أزهار الرياض، ١/ ٧١ .

(٤) أزهار الرياض، ٢/ ٣٤٧ . درة الحجال، ٢/ ٩٦ . الإحاطة، ٣/ ١٣٥ . العَيْبَة: الوعاء.

تلك المواصفات مجتمعة أو مفرقة، وإن كنا على الأغلب نجد كلها أو أغلبها فيهم جميعاً واضحة. وأُسرة بني داود آخر أُسرة بَلَوية أندلسية عُرفت واشتهرت. وأصل هذه الأُسرة أو البيت مدينة وادي آش GUADIX، شَمال شرق غَرْناطة[1]، ثم انتقلت إلى غَرْناطة، عاصمة المملكة وحاضرتها.

وقبل المضيّ في الحديث لا بد من ذكر المعروفين من أفرادها، الذين هاجروا من الأندلس، والأسرة قد هاجرت ترتحل وتحل معاً، ظَعْناً وإقامة حِلاً وتَرحالاً. وبنو داود ـ الأُسرة التي هاجرت ـ تتألف من الأب أبي الحسن عليّ والابن أبي جعفر أحمد وأخوين آخَرين ـ محمد وأبي القاسم[2]، لا يرد الحديث المفصل عنهما ـ مع بقية الأسرة، نسائها وأطفالها وأبناء العمومة والقرابات. هؤلاء كلهم هاجروا من الأندلس، في أثناء أحداث المعترك في مواجهة العدو الصليبي. ولكن الحديث سيرد عن الأب والابن الأكبر ـ فيما يبدو ـ وهما:

الأب: أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن داود البَلَوي الوادي آشي الأندلسي الغَرْناطي[3]. ومولده سنة ٨٣٦هـ (١٤٣٢ ـ ١٤٣٣م)[4]، ووفاته الاثنين، ٥ رجب ٨٩٨هـ (٢٢/٤/١٤٩٣م)[5]. وهو أحد علماء الأندلس في الفقه وعلوم أُخرى" وتميز في الفقه والعربية وتصدّر للإقراء ووُلِّيَ الإمامةَ والخَطابةَ والتدريسَ وغيرها بجامع بلده، وكذا وُلِّيَ الإمامة بمسجد غَرْناطة الأعظم مع القضاء بها وغير ذلك، ثم تورع عن القضاء بعد نحو شهر"[6]. وقد تلقى عن شيوخ كثيرين وتفقه بهم في بلده وادي

---

(١) نفح الطيب، ١/ ١٤٩.

(٢) ثبت البلوي، ٤٥٨.

(٣) نيل الابتهاج، ٢١٠. الضوء اللامع، ٥/ ١٦٧. ثبت البلوي، ٤٥٨.

(٤) ثبت البلوي، ٢٦، ١٩٣.

(٥) نيل الابتهاج، ٩٠. ثبت البلوي، ٤٥٥.

(٦) الضوء اللامع، ٥/ ١٦٧.

آش[1]، التي كانت مدينة علم. فيها علماء كثيرون معروفون ومشهورون بمكانتهم العلمية، تستدعي أن ينفرد بها مؤلف يضم كل ما يتعلق بها. ثم رحل أبو الحسن إلى الحضرة الغرناطية في صفر (٨٥٧هـ)، وتلقى على شيوخ جِلّة آخرين كثيرين، " واستوطنها نحواً من اثني عشر عاماً"[2].

الابن: أبو جعفر أحمد بن علي (أبو الحسن) بن أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن داود البَلَوي الوادي آشي الأندلسي الغرناطي. وهو صاحب الثبَت. كان عالماً وفقيهاً وكاتباً ووأديباً (ناثراً وشاعراً)[3]. وهو مثل أبيه وُلد وعاش وتفقه في موطنه الأصلي وادي آش، التي كانت وقتاً مّا عاصمة لأحد ملوك الدولة في أواخر أيامها، وهو أبوعبدالله محمد الزَّغَل[4]. وأبو جعفر أحدُ تلامذة القَلْصادي[5].

وحين يَرِد الوصفُ: بنو داود، يُقصد كل هذه الأسرة، وفي العلم والفقه يُقصد الأب والابن، وإذا ذكر ابن داود قُصد الابن أبو جعفر أحمد الشهير بها[6].

انتقلت الأسرة كلها أو على الأقل الأب أبو الحسن علي بن أحمد، ثم الابن أبو جعفر أحمد إلى غَرْناطة، وبلغوا مبلغ العلماء وتولوا مناصبهم[7]، حتى بدت بوادر السقوط ـ

---

(١) ثبت البلوي، ١٨٣ وبعدها.

(٢) ثبت البلوي، ١٨٧ وبعدها.

(٣) ثبت البلوي، ٢٨ .

(٤) ثبت البلوي، ٣٠ .

(٥) نيل الابتهاج، ٩٠، ٢٠٩ . ثبت البلوي، ٤٥٤ .

أخذتُ كثيراً من الثَّبَت الذي يُقدِّم معلومات مهمة (ثبت البلوي، ٣٠) في موضوعات متعددة، لا سيما أُسرة بني داود، خاصة الأب وابنه ـ صاحب الثبت ـ وما يخص بعض العلماء والمهاجرين والباقين في الأندلس.

(٦) أزهار الرياض، ١/١٠٣ . ثبت البلوي، ٢٢، ١٧٤ .

(٧) ثبت البلوي، ٣١ ـ ٣٤ .

سقوط غَرْناطة ـ فلم يتمهلوا، فشدوا رحالهم للرحيل والهجرة من الأندلس إلى تِلِمْسان، ثم تونس وبعدها إلى تركيا. وهذا هو محور الموضوع الذي يتم التوقف عنده.

تاريخ الرِّحلَة ووِجْهتُها

يذكر المَقَّري في " أزهار الرياض" : " وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تِلِمسان، ... ومنهم بنو داودَ المذكورون في فَهْرَسَة الشيخ ابن غازي. وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غَرْناطة، ولكن لَمَّا رأوا استطالة العدو عليها وأنه آخذها لا محالة قَوّضوا رحالهم عنها فنزلوا بتِلِمْسان المحروسة، وأُخِذت الحضرة الغَرْناطية بعد ارتحالهم بقريب، رحمهم الله "[١].

لكن" ثَبَت البَلَوي" لأبي جعفر أحمد بن داود البلوي أفادنا كثيراً في تحديد جملة من الأمور وتوضيحها، ومنها هذه القضية: تحديد تواريخ هجرتهم وتنقلاتهم ومقاصد وُجهاتهم. فمِن ثَبَت ابن داود البَلَوي يتضح تحديد كثير من التواريخ، وإن كان غير واضح تعيين رحيلهم من غَرْناطة ـ الرحيل الأخير ـ بقصد الهجرة من الأندلس. ولكن بعد البحث، ممكن وضع تاريخ تقريبي. أما موضوع تقويض رحالهم فما زالت بحاجة إلى متابعة وبحث، ولعل ذلك يكفي.

---

(١) أزهار الرياض، ١ / ٧١ .هذه الجملة الثانية ليست واضحة المعنى تماماً. فهل يُفهم منها أنهم خرجوا إلى العُدْوة المغربية ـ ربما لأداء مهمة لصالح الأندلس وأهله ـ ثم أرادوا العودة إلى الأندلس، لكنهم قَوّضوا رِحالهم عنها (أداروا مراكبهم عن العودة إلى غَرْناطة) واستمروا في هجرتهم إلى تِلِمْسان؟ وهذا ما أراه راجحاً في الأخذ بهذا المعنى. ولعل لهذه القضية شَبَه بقضية أبي العباس البَقَنّي (أدناه، ٢٣٩). كما أنّ المقري لم يحدد تاريخ ذلك. أما ذكرهم في فهرسة ابن غازي فهي منشورة ملحقاً في" ثبت البلوي."انظر: ثبت البلوي، ٤١ ـ ٤٢، ٤٥٤ وبعدها. فهرسة ابن غازي، ٢٩ ـ ٣٣، ١٧١ . وعن ابن غازي انظر: جذوة الاقتباس، ١ / ٣٢٠ . الأعلام، ٥ / ٣٣٦ .

فإذا كان بنو داود ـ وهم راحلون من غَرْناطة، بقصد الهجرة من الأندلس، إلى تِلِمْسان ـ مَرُّوا بمدينة المَرِيّة ALMERIA، ثم إلى المُنَكَّب ALMUNECAR، حيث اجتازوا إلى العُدْوة المغربية. فقد التقى أبو جعفر أحمد بن داود البَلَوي ـ مع أسرته وأقاربه ـ بالمَرِيّة بأحد مشايخه: العلاّمة أبي محمد عبد الله الجابري الزَّيْعَجي (غَزّة، شعبان سنة ٨٩٧هـ = ٦/ يونيو/ حزيران ١٤٩٢م) ـ الذي هاجر هو بدوره إلى المغرب[١] ـ وهو (أبو جعفر) متجه إلى المُنَكَّب يريد الجواز إلى المغرب، يوم الأحد ٢٤ محرم ٨٩٤هـ(٢٨/١٢/١٤٨٨م)[٢]: " ولقيتُه بعد ذلك بالمَرِيّة ولم أقرأ عليه ولم أطلب منه الإجازة إلى أن فارقته، رضي الله عنه وكافأ أياديه، مُتَوَجِّهِي إلى المُنَكَّب برسم الجواز إلى هذه العُدْوة، يوم الأحد الرابع والعشرين لشهر الله المحرم فاتح عام أربعة وتسعين وثماني مائة، والحمد لله حمداً كثيراً كما هو أهله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الأكرمين وسلم تسليماً كثيراً".

وبعد ذلك توجه إلى تونس من بَلَنْسِية في الطَّرَّاس عام ستة وتسعين وثماني مائة، بعد استيلاء الكفر على الأندلس فأقام بها إلى أن سافر إلى المشرق في الطَّرَّاس في أواخر عام ستة المذكور "[٣].

وفي المُنَكَّب قرأ ـ هو وأبوه ـ على شيخه أبي القاسم الفِهْرِيّ الشهير بالقُرْعَة(٨٢٥ ـ ٨٩٦)[٤]، يوم الخميس ٢ ربيع الثاني ٨٩٤هـ(٥/٣/١٤٨٩م)، وإلى يوم الأحد ٢٦ منه: " أما بعد، فإني إذ وردت مدينة المُنَكَّب، أَمَّنَها الله تعالى، برسم إجازة البحر إلى العُدْوة، في كنف الله سبحانه، وسنيَّ الله تعالى لي، من لقاء سيدي ومولاي وشيخي

(١) أدناه، ١٦٠ وبعدها.

(٢) ثبت البلوي، ٤٠، ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٣) ثبت البلوي، ٢٠٨ . الطراس: لعله نوع من السفن السريعة أشبه بالطَّرَّاد.

(٤) أدناه، ١٤٦ وبعدها. ثبت البلوي، ٤٠، ١٦٦ ـ ١٦٧ .

وبركتي الإمام الخطيب الصالح المُقْرِيء المدرس العلاّمة الأوحد الراوية القُدوة البركة العمدة المتكلم المتبرَّك بعلمه وروايته أبي القاسم محمد بن محمد بن محمد (أبو عبد الله) بن أحمد الفِهْري"[1]. ثم قرأ عليه أخيراً - وفي المُنَكَّب - ثُلاثيات البخاري يوم الأحد غُرّة جُمادى الثانية ٨٩٤هـ(٢/٥/١٤٨٩م): " فحصل عليه السماع بقراءتي وذلك في مجلس واحد بعد العصر من يوم الأحد غُرّة جُمادى الثانية من السنة المذكورة "[2]. والمحتمل أنّ عبورهم إلى العُدْوة، مهاجرين من الأندلس، كان خلال جُمادى الثانية أو بعدها.

وإذا كان ابتداء سَماع ابن داود في تِلِمْسان على يد شيخه فيها، العلاَّمة ابن مَرزوق (الثلاثاء غُرّة ذي القعدة ٨٢٤-٩٠١هـ= ٢٨/١٠/١٤٢١-١٤٩٥، ١٤٩٦) في يوم الجمعة ٥ رجب ٨٩٤هـ(٣/٦/١٤٨٩م)[3]، فالتقدير أنّ عبورهم من الأندلس إلى العُدْوة مهاجرين إلى تِلِمْسان كان خلال جُمادى الثانية (٨٩٤هـ) على الأغلب، أو بعده مباشرة، والأول أنسب.

طالت إقامة بني داود في تِلِمْسان[4]، ثم تركوها بعد إقامة فيها زهاء ثمانية وعشرين شهراً[5]، حيث اتجهوا إلى وهران التي وصلوها ١٢ ذي القعدة ٨٩٦هـ (١٦/٩/١٤٩١م)[6]، فأقاموا فيها نحو شهر، ثم اتجهوا صوب تونس - أقاموا فيها مدة - ومنها أبحروا إلى القُسْطَنْطِينِيَّة (استانبول = اسلامبول). وقبيل وصولهم إليها توفي الأب أبو الحسن علي بن داود البلوي، يوم الاثنين ٥ رجب الفرد الحرام سنة ٨٩٨هـ

(١) ثبت البلوي، ١٦٦، ١٦٧.

(٢) ثبت البلوي، ٤٠، ١٧٤.

(٣) ثبت البلوي، ٤١، ٢١٩.

(٤) ثبت البلوي، ٢١٨-٢١٩.

(٥) ثبت البلوي، ٤١.

(٦) ثبت البلوي، ٣٥، ٤٤٩.

(٢٢ / ٤ / ١٤٩٣م)، ودفن بمَرْسَى شِشْمَة CHESME, TECHESME, CESME[1]، على الساحل الشرقي لبحر إيجة AEGEAN SEA وإلى جنوب مدينة إزمير .IZMIR

واستقرت بقية الأسرة - وعلى رأسهم أبو جعفر أحمد بن داود البلوي - في القسطنطينية، عاصمة العثمانيين التليدة التي فُتحت بأيديهم بقيادة السلطان العثماني محمد (الثاني) الفاتح في يوم عظيم هو يوم الفتح ٢٤ جُمادى الآخرة ٨٥٧هـ(٢ / ٥ / ١٤٥٣م)[2].

طال استقرار بني داود بها، وهناك في غَلَطة GALATA -إحدى ضواحي أو أحياء استانبول - وضع أبو جعفر أحمد بن داود أحد مؤلفاته وهو " شرح الخزرجية في العَروض والقوافي "، وانتهى منه في ربيع الأول سنة ٩٠٨هـ(١٥٠٢م)[3]، وغيره من المؤلفات، التي يبدو أنّ ثَبَتَه كان واحداً منها، وكذلك كتابه " الغامض " ..

ربما يكون أبو جعفر ذهب من هناك إلى المشرق وتلقى العلم وأدى فريضة الحج وعاد إلى مستقره في عاصمة الدولة العثمانية.

وخلال هذه الرحلة أو المرحلة كانت قد تكاثرت الأحداث واشتدت واسودت حول المسلمين في الأندلس حتى سقطت غَرْناطة، مستسلمة، سنة ٨٩٧هـ(١٤٩٢م)، لتبدأ المأساة الدموية بعد ذلك، من أمور التنصير والتهجير والتقتيل بمحارق محاكم التفتيش، التي سبق ذكر طرف منها[4].

---

(١) ثبت البلوي، ٣٥، ١٩٥ .

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ١٦٠ وبعدها.

(٣) ثبت البلوي، ٣٦ - ٣٧، ٨٦ وبعدها.

(٤) انظر: الكشاف العام.

وكم كان الأَوْلى والأنفع والأروع أن يبقى بنو داود البلوي في الأندلس، يؤدون دورهم العلمي العملي، يشاركون أهل الأندلس محنتهم ويخففون ويدفعون. وذلك أهم من التأليف، بل إنّ ذلك مقدم حتى على الحج في مثل هذه الظروف، ومنها هذا الظرف. إذ إنّ أهل الأندلس ـ علماء وفقهاء ـ أفتوا، في غير ما مناسبة، بتقديم الجهاد ـ ودفع خطر العدو الماكر الناكر عن البلد ـ على الحج.

وعلى الأقل لا ندري إن كان أبو جعفر أحمد بن داود استمر يتابع أخبار الأندلس وما يجري للمسلمين فيه، بعد رحيله الأخير. كما كان الأَوْلى ـ على الأقل ـ أن يسكنوا العُدْوة المغربية، ليتابعوا أخبار الأندلس ويرتبوا بعض المساعدات، وقد نجوا من مهالك ومحارق الصليب ومقاتله، أو أَبَوْا احتمالها. ونجهل كيف قضى أبو جعفر أحمد بن داود البلوي بقية الأُمور واين قضاها وفيم تم إنفاقها، وهو بعيد عنها. وكان الأَوْلى ـ حتى ولو أدى فريضة الحج ـ أن يعود إلى الشَّمال الإفريقي، إن لم يعد إلى الأندلس الذبيح. ونحن نجهل تاريخ وفاته ومكانها وكيفيتها والمناشط التي قام بها. غفر الله للجميع وأنعم ورحم، فهو واسع المغفرة.

* * *

الخُلاَصة

بنو داود

الأَب: أَبو الحسن

مولده: في مدينة وادي آش بالأندلس، سنة ٨٣٦هـ= ١٤٣٢ - ١٤٣٣م.

هجرته: من الأندلس إلى تِلِمْسان سنة ٨٩٤هـ= ١٤٨٩م.

وفاته: في مدينة شِشْمَة بتركيا، الاثنين ٥ رجب سنة ٨٩٨هـ=٢٢/٤/١٤٩٣م.

الابن: أَبو جعفر (صاحب الثَّبَت):

مولده: في مدينة وادي آش بالأندلس.

هجرته: من الأندلس إلى تِلِمْسان سنة ٨٩٤هـ= ١٤٨٩م.

وفاته: بعد سنة ٩٠٨هـ= ١٥٠٢م. أين وكيف؟

أما طريق هجرة بني داود (آل البَلَوي) من الأندلس إلى استانبول فهي على النحو التالي:

غَرْناطة - المَرِيَّة - بَلَنْسية - تِلِمْسان - وهران - تونس - شِشْمَة (تركيا) - القسطنطينية (استانبول)، ليستقروا في غَلَطة، أحد أحيائها أو ضواحيها.

* * *

٣. أبو القَاسم الفِهْري القُرْعَة

أبو القاسم محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن بكرون الفِهْري الشهير بالقُرْعَة[١].
والفِهْرِي القُرْعَة هو الشيخ الخطيب الإمام أُستاذ بني داود: أُستاذ الأب أبي الحسن والابن أبي جعفر، وذلك في مدينة المُنَكَّب، كما يورده أبو جعفر في " ثَبَته" عند وروده هذه المدينة" برسم إِجازة البحر إلى العُدْوة "[٢] فقرءا عليه عدة كتب وحضرا مجالسه" على ضيق الوقت واضطراب الأحوال وترادف الأهوال"، خلال شهر ربيع الثاني ٨٩٤ [٣]. وكان آخرها يوم الأحد غُرّة جُمادى الثانية من العام نفسه، وأجاز لهم رواية ذلك إجازة عامة [٤].

أخَذ الفِهْرِي عن الإمام العلاَّمة قاضي الجماعة بغَرْناطة ابن منظور الأندلسي الغرناطي، وشاركه في هذا الأخذ تلميذُه صاحب"الثَّبَت" أبو جعفر أحمد بن داود البلوي[٥].

ثم يعرفنا صاحب" الثَّبَت" أنّ شيخه القُرْعَة كان ممن يحضر للسَّماع معه مجالس علْم ابن مرزوق في تِلِمْسان[٦]. وسمع البخاري[٧]. وأخذ القُرْعَة عن غيره هناك بتاريخ الثلاثاء ٥ رجب ٨٩٥هـ(٢٥ / ٥ / ١٤٩٠م)[٨]، وهو اليوم نفسه في مصافحة القُرْعَة لصاحب الثَّبَت، إذناً له بالرواية، والمصافحة لمن يشاء، عن مصافحة الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم للقُرْعَة، أنّه رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خمس مرات، وفي الخامسة صافحه

---

(١) ثبت البلوي، ٤٠، ٦٥، ١٥٦، ١٦٥ .

(٢) أعلاه، ١٤٠ وبعدها .

(٣) ثبت البلوي، ١٦٦ - ١٦٧ .

(٤) ثبت البلوي، ١٧٤ .

(٥) نيل الابتهاج، ٣٢٣ .

(٦) ثبت البلوي، ٤٠، ٥٦، ١٥٦، ١٦٥ .

(٧) ثبت البلوي، ٢٥٣ .

(٨) ثبت البلوي، ٣٨١ .

صلّى الله عليه وسلّم[١]. وكان الإذن بذلك وكتابته يوم الجمعة منتصف ذي القَعْدة ٨٩٥هـ(٣/٩/١٤٩٠م). وهناك في تِلِمْسان كانت وفاة القُرْعَة الجمعة ١٦ ربيع الثاني ٨٩٦هـ(٢٦/٢/١٤٩١م)[٢]، حيث ما زال بنو داود فيها، يتعاونون ويتزاورون ويلتقون معاً، فشهدوا بذلك له. وهذا كله يعني أن القُرْعَة أحد علماء الأندلس الغَرْناطيين الذين هاجروها. ومن المحتمل جداًّ أن تكون هجرته من الأندلس من مدينة المُنَكَّب مع بني داود، ربما صَحِبهم من غَرْناطة لهذا الغرض. رحلوا جميعاً إلى تِلِمْسان، أو رحل مع مجموعة أخرى، أو قد يكون رحل وحده، وهذا احتمال أقل وإن كان ممكناً.

وبهذا نسجل رحيل عالم آخر هاجر من الأندلس، وهو من خيارها، علماً وتقوىً وصلاحاً. وهذا أمر يشير إلى هذه الظاهرة وأثرها العنيف على المسلمين في الأندلس. وأنّ هذه الهجرة للعلماء الأندلسيين - بجانب علو مكانتهم ورفعتهم وتأثيرهم - تقاربت زماناً، بالنسبة إلى هجرتهم، وتقارنت مع قمة المحنة بسقوط غَرْناطة وتحولها إلى السلطة النصرانية، خنقاً واستسلاماً واستيلاءً، حدث مفاجئ ما كان يخطر على بال.

لقد كان أَوْلى بهؤلاء العلماء المهاجرين وأمضى وأرقى، لو لم يسلكوا هذا المسلك، لو أنهم تريثوا وما تعجلوا، إذاً لبان لهم بعد ما اختاروا وما إليه ساروا، ولو بقوا في الأندلس لأناروا لأهله طريق الرشاد: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

الخُلاَصة

أَبُو القَاسم الفِهْرِي القُرْعَة

مولده: في الأندلس (غَرْناطة) سنة ٨٢٥هـ(١٤٢٢م).

هجرته: إلى تِلِمْسان سنة ٨٩٤هـ(١٤٨٩م).

وفاته: في تِلِمْسان، الجمعة ١٦ ربيع الثاني سنة ٨٩٦هـ(٢٦/٢/١٤٩١م).

---

(١) ثبت البلوي، ٤٠٨ وبعدها.

(٢) ثبت البلوي، ٤١٢.

(٣) يوسف، ٢١.

٤ . العَلاَّمة الجِعْدالَة

العلاَّمة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد السُّلَمي الجِعْدالَّة. وُلد الجِعْدالَّة سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠ ـ ١٤٤١)[١]. ووفاته غُرّة شعبان ٨٩٧هـ (يونيو= حزيران ١٤٩٢م)، متوجهاً إلى الحج[٢]. واحتمال أن يكون أصله من مالَقة MALAGA، حيث يُضيف صاحب " نيل الابتهاج " إلى ألقابه صفة الأندلسي المالَقي[٣].

وهو من شيوخ أبي جعفر أحمد بن داود[٤]، ومن الفقهاء الجِلَّة وعلماء المِلَّة، وبعض فتاويه في " المِعيار المُعْرب " . وأثنى عليه تلميذه أبو جعفر بن داود، وحَلاّه بأوصاف كريمة واستجازه فأجازه[٥]. تلقى عنه وَقَرَأ عليه قراءة تَفَقُّه وبَحْث وتَفَهُّم، بمجلسه للتدريس من مؤخر مسجد الجامع الأعظم من داخل حضرة غَرْناطة، مهدها الله، ثم في المدرسة النصرية، ثم بالمسجد الأعظم من مدينة المَرِيّة[٦].

---

(١) ثبت البلوي، ٢٠٥ .

(٢) ثبت البلوي، ٢٠٦ .

(٣) نيل الابتهاج، ٣٢٥ .

(٤) نيل الابتهاج، ٣٢٥ .

(٥) ثبت البلوي، ١٩٦، ١٩٨ .

(٦) ثبت البلوي، ١٩٦ ـ ١٩٧ .

وتلقى الجِعْدالَّة العلم وتفقه على شيوخ كثيرين في الأندلس، منهم أبو عبد الله محمد المُجَاري(٨٦٢هـ)[١]، ومنهم أبو الفرج عبد الله بن الفقيه أبي جعفر أحمد البَقَنِّي[٢]، والإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف المَوَّاق (شعبان ٨٩٧هـ)، وهو شيخ أبي جعفر أحمد بن داود البلوي[٣]. والجِعْدالَّة هو ابن خالة العلاَّمة أبي محمد عبد الله الجابري الزَّيْعَجِي[٤]. والجِعْدالَّة هو أحد العلماء الخمسة عشر الذين رفضوا نبذ بيعة أبي الحسن علي بن سعد ومبايعة ابنه أبي عبد الله الصغير[٥]. وصيغة الفتوى كالتالي: جواباً عن سؤال: " في عصابة نبذوا بيعة مولانا أبي الحسن نصره الله وخرجوا عن طاعته وقاموا بدعوة ابنه ودَعَوْا الناس إلى بيعته، وطاوعهم على ذلك من شاء الله تعالى، إلى أن وقعت كائنة اللَّسَّانة[٦]، وفُقِدَ فيها جملة منهم، وأُسر الأمير وانجلى مَن سَلِم منهم عن الحضرة فلجأوا

---

(١) ثبت البلوي، ١٩٩ . برنامج المُجَاري، ٣١، ٤٠ .

(٢) ثبت البلوي، ٢٠٢ .

(٣) ثبت البلوي، ٢٠٣ .

(٤) ثبت البلوي، ٢٠٧ .

(٥) المعيار المعرب، ١١ /١٤٨ـ ١٥٠ .

وصدرت هذه الفتوى في " أواسط شهر رمضان المعظم، عام ثمانية وثمانين وثمانمائة، عرفنا الله خيره. محمد بن شهد ومحمد بن علي بن شهد، أَعْلَمَ بثُبوته محمد بن علي الأَصْبَحي وفّقه الله وكان له ". والشاهد الأَصْبَحي هو أبو عبد الله محمد بن الأزرق أحد المشتركين في هذه الفتوى.

(٦) كائنة أو موقعة اللَّسَّانة (لثانة) LUCENA، وهي المعركة التي جرت في ربيع الأول النبوي سنة ٨٨٨هـ(أبريل = نيسان، ١٤٨٣م) بين المسلمين والنصارى عند قلعة اللسانة التي تقع جنوب شرق قرطبة CORDOBA وشَمال غرب غرناطة .GRANADAوكان المسلمون عائدين من مواجهات عديدة ضد النصارى، كَسَبوها وغَنِموا كثيراً، لولا أن ادركوهم وجرت معركة عند القلعة المذكورة، خسرها المسلمون وقُتِل وأُسر منهم الكثير. وكان من بين الأسرى الأمير أبو عبد الله الصغير محمد الحادي عشر آخر ملوك غرناطة الذي كان شؤماً في كل أحواله وتصرفاته على بلده وأمتـــه، بل وحتى على أسرته. نفح الطيب، ٤ / ٥١٥ . نهاية الأندلس، ٢٠٣ . التاريخ الأندلسي، ٥٥١. ويقول صاحب" نبذة العصر في أخبار بني نصر" :" وكانت هزيمة=

إلى صاحب قَشْتالة دمّره الله، مستنصرين به ومستعصمين بحَبْل جواره، فواطؤوهُ على شروط التزموها إليه، ووعدهم بتسريح الأمير المذكور للخروج به لأرض المسلمين، وعَقَدَ له صلحاً على ما طاع له من البلاد. ولا خفاء بما هو قَصْدُ الكافر قصمه الله في هذا الذي فعل"؟

فكان الجواب: " بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيدنا مُحمَّد وآله. صدرت الفُتْيا من السادات الجِلَّة الأعلام، هُداةُ الأنام ومصابيح الظلام بالحضرة العليّة غَرْناطة - حرسها الله - وهم:

١ - السيد البركة المفتي أبو عبد الله المَوّاق.

٢ - والسيد قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن الأزرق.

٣ - والسيد المفتي أبو الحسن علي بن داود.

٤ - والسيد المفتي أو عبد الله محمد الجِعْدالَّة.

٥ - والسيد الخطيب أبو عبد الله محمد الفَخَّار.

٦ - والسيد الشيخ الحاج أبو الحسن علي القَلْصادي.

٧ - والسيد الشيخ أبو حامد بن الحسن.

= شنيعة قُتل فيها خلق كثير وأُسر آخرون، واستولى النصارى فيها على كثير من الخيل والسلاح والدواب والمتاع وأشنع ما كان فيها أسر الأمير أبي عبد الله الصغير محمد بن علي لأنّه كان سبباً في هلاك الوطن. فجمع النصارى كل ما أخذوه من المسلمين من أُسارى وأمتعة وحملوه إلى حصن اللُّسَّانة ولم يعرفوا الأمير حتى عُرِّفوا به فأخرجوه من بين الأسرى وعظموه وأكرموه وحملوه إلى صاحب قَشْتالة فعظمه وأكرمه وعلم أن به يصل إلى ما يؤمله من أخذ بلاد الأندلس " نبذة العصر، ١٢ .

٨ ـ والسيد القاضي أبو عبد الله محمد بن سرحونة.

٩ ـ والسيد الخطيب أبو عبد الله محمد المشدالي.

١٠ ـ والسيد الخطيب أبو محمد عبد الله الزليجي.

١١ ـ والسيد الخطيب أبو عبد الله محمد الخدام.

١٢ ـ والسيد الشيخ الحاج أبو جعفر أحمد بن عبد الجليل.

١٣ ـ والأُستاذ أبو عبد الله محمد بن فتح.

١٤ ـ والقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد البر.

١٥ ـ والأُستاذ أبو جعفر محمد البَقَنّي.

أبقى الله بركتهم وحفظ في درجة الأعلام رتبتهم، بأنّ خَلْعَ القومِ المسئولَ عنهم لبيعة مولانا أبي الحسن نصره الله، وقيامهم بدعوة ابنه، ليس له مُتَمَسَّك من دين الله. وإنما هو محض عصيان، وخروج عن طاعة الله وطاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لِمَا ارتكبوه بذلك من وجوه المفاسد التي لا يرضى الله بها مِن شَقٍّ عصا الإسلام في هذا الوطن الغريب وتفريق أمره بعدما كان مجتمعاً، وإيقاد نار الفتنة وإلقاء العداوة والبغضاء بسببها".

وهؤلاء العلماء الخمسة عشر الذين أصدروا هذه الفتوى هاجر عدد منهم من الأندلس، حين اشتدت الأحوال. وهم من الذين شَمَلتهم هذه الدراسة، حيث يَرِدُون في صُلْب موضوعها. وآخرون منهم لم يهاجروا، عن إرادة وموقف وتصميم، جرت الإشارة إليهم.

وملاحظة أخرى حول أسماء هؤلاء العلماء: أنّ ألقابهم، التي تشير إلى مكانتهم ودرايتهم وتخصصاتهم، مذكورة. ويبدو أنّ صفة الأستاذ، المستعملة لبعضهم، صفة راقية تحدد المكانة العلمية المرموقة لصاحبها. وقد تُرادِف الإمام، ولعلها توازي مدلولَها اليوم لمن يحمل الأُستاذية.

ونلحظ أنّ هؤلاء العلماء جميعاً من الأعلام المرموقين المعروفين في المجتمع الأندلسي، الذين وقفوا هذا الموقف الكريم. ولكن حين اشتدت الظروف، تنوّعت اجتهاداتهم، كل حسب ظروفه وتفكره ومقصده، لكنهم جميعاً نُحسن بهم الظن، ونعتبر أنّ مواقفهم ترددت بين فاضل ومفضول وأفضل. فأفضلها جميعاً موقف أولئك الذين بقوا في الأندلس. فإنّ مجرّد البقاء يحمل معنىً كبيراً لا يرقى إليه أي اجتهاد لمن هاجر، ومهما جلب من نفع أشبه بالسراب، كما عبرعنه المَقَّري في" نفحه"[1]، إلاّ مَن ذهب ـ على ترتيب ـ إلى سلطات إسلامية لجلب عون يؤدي به دوراً واضحاً مهمًّا وبَيِّناً. وقد يكون فات أوانه وانقضى زمانه، وعلى أن يعود. وإلاّ فلا يغني اجتهاد فردي ظنّي تَوَقُّعي لجلب نفع في تلك الظروف المتراكمة الأحداث المتسارعة التقدم المتوافقة الأذى، أمام إمكانيات ضعيفة وطاقة محدودة ومَدد نافد، مهما بلغ وجلب وقَدّم، وهو مع ذلك لم يبلغ أو يجلب أو يقدم شيئاً أو يَرُد أذىً.

وهناك تصحيح لأسماء بعض مِن هؤلاء الخمسة عشر كما وردت في" المِعْيار المُعْرِب" :

* أبو عبد الله محمد المشدالي (الصيغة التي ذكرها المعيار). ولم أجد أندلسي بهذا اللقب، ولكن وُجد من علماء الشَّمال الإفريقي من هو ملقب بهذا اللقب.

أمّا الأندلسي الذي وجدتُه في" ثَبَت البلوي" لابن داود ويقدم لنا عنه معلومات ـ رغم قلتها ـ مفيدة، هو: العَلاّمة أبو عبد الله محمد الحضرمي الشّدّالي بدل المشدالي[2]. ولعله هو المَعْني، حيث كانت وفاته في الأندلس في ذي القعدة سنة ٨٩٦هـ(سبتمبر= أيلول ١٤٩١م). وبلغ نعيه بني داود في تونس سنة ٨٩٦هـ(ديسمبر= كانون الأول ١٤٩٢م).

---

(١) نفح الطيب، ٢/ ٧٠٢.

(٢) ثبت البلوي، ٤٠، ٦٥، ٢١٢.

وهو آخر أشياخ أبي جعفر أحمد بن داود البلوي صاحب "الثَّبَت" بجزيرة الأندلس الذي يصفه بأوصاف العلم والتقوى والبركة: " وحضرتُ بالحضرة مجلس الشيخ الإمام الخطيب العلاَّمة المدرس المتكلم الحسيب الأصيل أبي عبد الله محمد بن أحمد الحضرمي الشَّدَّالي رضي الله عنه، فسمعت عليه كثيراً ولم أقرأ عليه. وله رضي الله عنه قَدَم في النحو وغيره. ولمجلسه بركة، تخرَّج عليه جماعة من شيوخ التدريس.

"وكانت وفاته رضي الله تعالى عنه في ذي القعدة من سنة ست وتسعين وثمانمائة، وبلغنا نعيه بتونس في أواخر صفر من عام ثمانية بعده. جمعنا الله تعالى به في مستقر رحمته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً "[١]. وهذا يدلّ على أندلسية الشَّدَّالي. وهناك اسم مماثل وهو أبو عبد الله المشدالي[٢]، ويبدو أنّ هذا ليس أندلسياً ولا صلة له.

* والشخصية الثانية: أبو محمد عبد الله الزليجي (صيغة المعيار)، لكني وجدت في " ثَبَت" أبي جعفر البلوي حديثاً عن أحد شيوخه، وهو العلاَّمة أبو محمد عبد الله الجابري الزَّيْعَجي، فلعله هذا هو الذي ذكره صاحب" المعيار المعرب" وأخطأ في اسمه، أو لعله غيره.

ويجري الحديث هنا بعناية واهتمام عن هذه الشخصية الزَّيْعَجي باعتباره أحد العلماء المهاجرين. ويُفْرِد ويُورد صاحب" الثَّبَت" الحديث عنها باعتباره أحد شيوخه. وهكذا يُعَرِّفنا بهذه الشخصية وباسمها الصحيح ليسير البحث باتجاه سليم. يقدمه لنا صاحب "الثَّبَت" أبو جعفر أحمد بن داود البلوي: الوثيقة الفريدة[٣] في هذا الموضوع

---

(١) ثبت البلوي، ٢١٢ .

(٢) ثبت البلوي، ١٨٦، ٣٠٩ .

(٣) ثبت البلوي، ٢٠٧ .

بالذات، النادر المعلومات.

* ثمّ يأتي الحديث عن شخصية أُخرى، أذكر هنا عنها شيئاً مما وجدتُه في " ثَبَت البلوي "، باعتبار أنّه لم يكن من الذين هاجروا من الأندلس. وهو أحد شيوخ صاحب " الثَّبَت " أبي جعفر أحمد بن داود البلوي. وهو العلاَّمة أبو عبد الله محمد بن محمد اللَّخْمي المعروف بالفَخَّار. ولم أجد عنه غير إشارة عابرة قصيرة في " نيل الابتهاج "[1]. لكن " الثَّبَت " يعطينا عنه معلومات جيدة، وإن لم تكن كافية: " كان خطيباً بالمسجد الأعظم من الحضرة طهرها الله تعالى وبالمسجد الأعظم من البَيَّازين منها ومتكلماً بالمسجد الأعظم ومدرساً به. وكان حيًّا إلى حين استيلاء العدو دمّره الله تعالى على الوطن، أعاده الله سبحانه "[2].

توفي الفخَّار في الأندلس أوائل شعبان ٨٩٧هـ (أواخر ماي= مايس ١٤٩٢م)، أي بعد سقوط غَرْناطة والاستيلاء عليها بعدة شهور. وهذا يعني أنّه لم يهاجر من الأندلس. وبلغ نعيه بني داود في تونس أواخر ٨٩٨هـ (أواسط ديسمبر= كانون الأول ١٤٩٢م). وهذا يدل أنّ نعي الاثنين (الشَّدَّالي والفَخَّار) بلغهم بخبر واحد.

ولكن صاحب " نيل الابتهاج " لا يورد شيئاً عن الفَخَّار الذي يذكره ضمن العديد من علماء الأندلس مبتدأً بالجِعْدالَّة، أحد شيوخ ابن داود صاحب " الثَّبَت ". وكل الذي ذكره هو: " محمد الجعْدالَّة الأندلسي المالَقي من شيوخ أحمد بن داود من الفقهاء الجِلَّة وعلماء المِلَّة، له فتاوى منقول بعضها في " المعيار المعرب "، وكان حيًّا سنة ثمان وثمانين وثمانمائة، محمد الفّخَّار الغرناطي من علمائها، وكذا الترانبي الغرناطي معدود من علمائها، وكذا محمد الذبح (الذبيح) الغرناطي أحد فقهائها وكلهم أحياء في التاريخ المتقدم آنفاً، وكذا

(١) نيل الابتهاج، ٣٢٥.

(٢) ثبت البلوي، ٢١٣.

محمد بن سَيِّد بُونة الغرناطي أحد علمائها حيّ في التاريخ المتقدم نقل عنه في " المعيار المعرب"، ولم أقف على تراجمهم "[١].

إن هذه القائمة الآنفة، التي أوردها" المعيار المعرب" تُعْتَبَر وثيقة مهمة جداً وأنّ بعضَ أهميتها مستمدة من موقف هؤلاء العلماء أمام هذه القضية والفتوى بها، ولا بد أن كان له أثر واضح في المجتمع، وإن كانت الأحداث تكاثرت وتتابعت مترادفة.

ومثلما وقف هؤلاء العلماء وغيرهم هذا الموقف المهم في قضية تتحكم بحياة المجتمع الأندلسي، حاضره ومستقبله، بل وتحديد عمره، كان أَوْلى ـ بمراحل ـ أن يقفوا ليس فقط موقفاً رافضاً للهجرة من الأندلس، بل الدعوة أيضاً إلى وقفها ودعوة الناس لتركها أو هجرها والبقاء في الأندلس وقيادة الأمة للحفاظ على نفسها، حتى استسلمت، وأن يُصْدِروا بذلك فتوى مماثلة ويكتبوا بنودها بموقفهم، وليس فقط بعلمهم أو خطهم، ويُصدروا بذلك إعلاناً يجعلونه من الثوابت الحكيمة الكريمة السليمة. وهذه القائمة من العلماء الخمسة عشر، الذين أصدروا هذه الفتوى، تنوعت مواقفهم. فبعضهم رفض الهجرة، ومع استطاعته لها، وقضى نحبه في الأندلس. وبعضهم هاجر منها إلى غيرها، اجتهاداً بأهميته لنفسه أو لمجتمعه الإسلامي الأندلسي.

وقد جمعتُ معلومات عن ثمانية من هؤلاء الخمسة عشر، والسبعة الباقون عرفتُ عن بعضهم لِماماً، وبعضهم الآخر أجهله تماماً. ثلاثة من هؤلاء الثمانية لم يهاجروا، قضوا نحبهم في الأندلس، مجاهدين في الميدان، آخذين بالأفضل. وهم: المَوَّاق والفَخَّار والشَّدَّالي (أرقام1 : ٥، ٩). أولهم توفرت عنه معلومات في أكثر من موضع[٢]. وثانيهم وثالثهم، فأهم المعلومات عنهما أمدني بها " الثَّبَت" لابن داود، والخمسة الباقون وهم: ابن

(١) نيل الابتهاج، ٣٢٥ .

(٢) أعلاه، ٩٢ .أدناه ١٩٧ .

الأزرق وأبو الحسن بن داود والجِعْدالَّة والقَلْصادي والزَّيْعَجي (أرقام: ٢، ٣، ٤، ٦، ١٠) اثنان منهم (ابن الأزرق والقَلْصادي) توفرت عنهما معلومات في أكثر من موضع[١] كذلك، والثلاثة الباقون (أبو الحسن بن داود والجِعْدالَّة والزَّيْعَجي) أمدني بأهم المعلومات عنهم في موضوع البحث" الثَّبَت" لابن داود. أما السبعة الباقون فلم أجد عنهم معلومات، ولا أي معلومات، وبانتظار وثائق جديدة تَظهر، تُعَرِّفنا بهم وبأحوالهم ومواقفهم.

والحق أنّ هناك آخَرين من العلماء، غير هؤلاء الخمسة عشر، ممن هاجروا أو استقروا في الأندلس. وأعني ـ بالنسبة إلى كلا الحالين ـ ما جرى من ذلك حول سِنيّ سقوط غَرْناطة واستيلاء العدو النصراني الصليبي عليها وامتلاك حمرائها بعد غَرْناطتها سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م).

وكما أُشير سابقاً، ربما في أكثر من موضع، أنّ هذا البحث، لا يعتني بالذين هاجروا من الأندلس من الذين بكَّروا أو تأخروا، إلاّ بقدر ضئيل، للإشارة إليه، أو ضرب الأمثلة فيه أو مادة علمية يُنْتَفَعُ بها، ولا سيما ممن تأخر في ذلك، ثم هاجر وكتب في وصف أحوال المسلمين وما احتملوه من مظالم ومحارق وتنكيل مبيد مبير تحت وطأة محاكم التفتيش، من أمثال: ابن عبد الرفيع والشهاب الحَجْري (الحَجَري)، اللذين مرّ ذكرهما في أكثر من مكان من هذا البحث[٢].

وللأسف فإنّ هناك أيضاً مَن بقي في الأندلس ونعرف موقفه وموقعه والتزامه، لكن لا نعرف كثيراً عن مشاركته، بل ولسنا متأكدين من تاريخ وفاته، مما فَوَّت الإشادة به والإشارة إليه والإشهار بتضحيته، من أمثال: الشاعر عبد الكريم القيسي البَسْطي الذي

---

(١) أعلاه، ١٢٢ .أدناه ١٦٣ .

(٢) انظره: الكشاف العام.

جرت الإشارة إليه[١]. ويضاف هنا الإمام العلاَّمة ابن منظور[٢]، الذي يمكن أن يكون توفي قبل سنوات من تاريخ السقوط (بعد سنة ٨٨٨هـ= ١٤٨٣م). ولكن الموقف الذي جرى التعرف عليه يشير ويُمَكِّن ويأخذ إلى إدراجه ضمن مَن لم يهاجروا من العلماء وآثروا البقاء في الأندلس. وكذلك جرى التعرف على بعض العلماء ذوي الأصول الأندلسية، لكنهم سكنوا الشَّمال الإفريقي حيث انتقلوا إليه في تواريخ مجهولة[٣].

لم يتيسر معرفة كيفية وتاريخ وطريق هجرة الجِعْدالَّة من الأندلس إلى العُدْوة ووصوله إلى غَزّة. ولكن يبدو أنّ ذلك تم بُعَيْد سقوط غَرْناطة واستسلامها واستيلاء إسبانيا الكَنَسِيَّة النصرانية عليها، في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ(٢/١/١٤٩٢م). وكان الجِعْدالَّة برحيله يريد الحج. فهل كان ينوي برحيله الهجرةَ مِن الأندلس نهائيًّا؟! أم كان ينوي العودة بعد الحج إلى الأندلس؟ أم هل كان قد أراد الحج الذي هو موسم لقاء عام ومؤتمر يلتقي فيه المسلمون ويتداولون، فيستفيد هو من خلال ذلك، لجلب أي نفع للأندلس، لدفع أو تخفيف بعض ما تعانيه الأندلس؟ كل ذلك غير معلوم. بل غير معلوم أيضاً إن كان قد رحل من الأندلس وحده أم مع أُسرته أم مع آخرين؟ أم مع ابن خالته الجابري الزيعجي؟

وهناك احتمال أنّ أولاد الخالة: الجابري والجِعْدالَّة، هاجرا معاً إلى العُدْوة، ومن الشَّمال الإفريقي فالمشرق. ولعله يوم التقى بنو داود بالجابري[٤] في المَرِيّة وقرأوا عليه، ثم اتجه الجابري مُبْحِراً من بَلَنْسِيَة إلى تونس عام (٨٩٦هـ). فلربما كان الجِعْدالَّة مع الجابري، ثم اتخذا طريقهما للهجرة معاً من الأندلس. فلقد ذكر صاحب "الثَّبَت" أنّه (أبا جعفر أحمد بن داود البَلّوي) قرأ على الجِعدالَّة في مسجد المَرِيّة - كما سبقت الإشارة إليه قريباً - من غير

(١) أنظره: الكشاف العام.

(٢) ثبت البلوي، ٢١٦. البسطي، ١٣٤. نيل الابتهاج، ٣٢٣.

(٣) درة الحجال، ٢/٣٥، ١٥٣، ٣/٢٨٥.

(٤) ثبت البلوي، ٢٠٧-٢٠٨.

أن يذكر تاريخ ذلك. مثلما يذكر أنه التقى بالمَرِيّة بشيخه الجابري دون أن يقرأ عليه، وهو متجه إلى المُنَكَّب برسم الجواز إلى العُدْوة، كما سبق بيانه[1]. فهل كان الجِعْدالَّة يعيش في المَرِيّة ام كان مرافقاً لابن خالته الجابري أو ربما كانا في حالة واحدة من المعيشة فيها أو السفر إليها؟ ولكن يبدو الآن أنّ الجِعدالّة لم يهاجر مع ابن خالته الجابري، إذاً لكان ذَكَر ذلك صاحبُ "الثَّبَت" حين تحدث عن هجرة الجابري إلى تونس من مدينة بلنسية الأندلسية.

إذ بالنسبة إلى تاريخ رحيل الجابري الأمر واضح، ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الجِعْدالَّة الذي يمكن أن يكون التحق فيما بعد في تاريخ متأخر عن تاريخ سقوط غَرْناطة، المذكور آنفاً، بابن خالته الجابري الذي أبحر من بلنسية إلى تونس عام (٨٩٦هـ)، ومنها إلى المشرق فغزّة حيث يُتوفى كل من الجِعْدالَّة وابن خالته الجابري في المدينة نفسها والتاريخ والحدث وهو في غزّة في شعبان من عام ٨٩٧هـ (يونيو= حزيران ١٤٩٢م). فيقول صاحب "الثَّبَت" عن الجِعْدالَّة[2] كما قال مثله عن الجابري[3].

وإذا كان من المحتمل أن يصاحب الجِعْدالَّةُ الجابريَّ في هجرته المذكورة، فمن المحتمل أكثر أن يكون التحق به فيما بعد، وإلاّ لكان صاحب "الثَّبَت" قد ذكر هجرتهما معاً. وقد تحدث عن كليهما وذكر أخذه عنهما، فكلاهما من شيوخه.

---

(١) ثبت البلوي، ٢٠٨ .

(٢) ثبت البلوي، ٢٠٦ .

(٣) ثبت البلوي، ٢٠٨ - ٢٠٩ .

الخلاصة

الجِعْدالَّة

مولده : (لعله في مالَقة أو غَرْناطة) سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠ ـ١٤٤١م) .

هجرته : بُعيد الاستيلاء على غَرْناطة سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) .

وفاته : في غَزّة : شعبان، ٨٩٧هـ (يونيو = حزيران ١٤٩٢م) .



٥ . الجابريّ

أبو مُحَمَّد عَبد اللَّه الجَابري الزَّيْعَجِي

أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن حُمَيْد الجابري، الشهير بالزَّيْعَجي . وهو ابن خالة الجِعْدالَّة المهاجر الآخَر[١]، ومثلُه أَحدُ العلماء الخمسة عشر الذين رفضوا نبذ بيعة الأمير أبي الحسن علي بن سعد لبيعة ابنه أبي عبد الله الصغير، أواسط رمضان سنة (٨٨٨هـ)[٢] .

والجابري الزَّيْعَجي أحد شيوخ أبي جعفر بن داود صاحب "الثَّبَت" . قرأ عليه في غَرْناطة ولقيه بعد ذلك بالمَرِيّة، وابن داود مُتَوَجِّه إلى المُنَكَّب يريد الجواز إلى العُدْوة فتلمْسان، يوم الأحد ٢٤ من المحرم ٨٩٤هـ(٢٨ / ١٢ / ١٤٨٨م)[٣]، ربما كان الجابري مقيماً فيها (المَرِيَّة) .

ولقد توجّه الجابري بعد ذلك إلى تونس من بَلَنْسِيَة، شرقي الأندلس، ميناء على البحر المتوسط، عام ٨٩٦هـ(١٤٩١م) .

وفي آخِر العام سافر إلى المشرق ونزل دمشق، ثم انتقل إلى غَزّة، قاصداً الطُّور، يريد الإبحار إلى الحجاز الشريف لتأدية مناسك الحج، لكنه توفي في غَزّة في شعبان ٨٩٧هـ(يونيو = حزيران ١٤٩٢م) .

إنّ جُلَّ هذه المعلومات مستخلصة مما دوّنه أبو جعفر أحمد بن داود عن شيخه الجابري الزَّيْعَجي في" ثَبَته" الذي يتحدث فيه عن آخِر لقاء به بمدينة المَرِيَّة، فيقول:" ولقيته بعد

---

(١) أعلاه، ١٤٨وبعدها.

(٢) المعيار المعرب، ١١ / ١٤٨ ـ ١٥٠ . وإن كان يسميه الزليجي، وصحتها الزيعجي. كذلك: نهاية الأندلس، ٢٠٢ .

(٣) أعلاه، ١٤١ .

ذلك بالمَرِيَّة ولم أقرأ عليه ولم أطلب منه الإجازة إلى أن فارَقْتُه رضي الله عنه وكافأ أياديَهُ، مُتَوَجِّهي إلى المُنَكَّب برسم الجواز إلى هذه العُدْوة، يوم الأحد الرابع والعشرين لشهر الله المحرم فاتح عام أربعة وتسعين وثماني مائة، والحمد لله حمداً كثيراً كما هو أهله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الأكرمين وسلم تسليماً كثيراً ".

وبعد ذلك توجه إلى تونس من بَلَنْسِيَة في الطُّرّاس عام ستة وتسعين وثماني مائة بعد استيلاء الكفر على الأندلس، فأقام بها إلى أن سافر إلى المشرق في الطُّرّاس في أواخر عام ستة المذكور[١].

فهل كان الجابري الزَّيْعَجي يبتغي من وراء رحيله من الأندلس تأدية مناسك الحج والعودة بعد ذلك إلى الأندلس؟ أم أنها كانت هجرة، مثل بقية العلماء الآخَرين الذين هاجروا من الأندلس في ظروفه الصعبة المحتاجة - أشد ما تكون الحاجة - إليه وإلى أمثاله؟ لكن الذي يبدو أنها كانت هجرة، إذ لو أراد البقاء، ما كان يتوجه إلى الحج في هذه الظروف الراهنة الواهنة الطاحنة التي يمر بها الأندلس.

فلعله كان ينوي العودة، أو يعود إلى الأندلس، بعد حَجِّه. وقد حاول جلب عون له، أو تقديم فائدة، أو السّعي وراء ما يخفف من المعاناة المُثْقِلَة النازلة المذهلة له، ذلك كله ممكن. وإن كان غير واضح إذا كان رحيله هذا أو هجرته من الأندلس قد تمت بمفرده أو مع أسرته أو مع ابن خالته الجِعْدالَّة، الذي كانت وفاته مثله: تاريخاً ومكاناً وظروفاً! ولله الأمر من قبل ومن بعد؟

(١) ثبت البلوي، ٢٠٨ - ٢٠٩.

الخُلاصة

الجَابريّ الزَّيْعَجي

مولده: ؟

هجرته: من الأندلس، من بَلَنْسِيَة إلى تونس بحراً سنة ٨٩٦هـ (١٤٩١م).

وفـاته: في غَـزّة: شـعبـان سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م)، أي بُعَـيْـد سـقـوط غَـرْناطة واستسلامها، والاستيلاء عليها وعلى حمرائها بعدة شهور، وبتاريخ ابن خالته الجِعْدالَّة نفسه الذي سبق الحديث عنه.

* * *

٦ . ابنُ الأَزرَق الأَصْبَحِيُّ

أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الأزرق الأَصْبَحيّ الأندلسي المالَقي، ثم الغَرْناطي.

أَولِيَاتُه: تعريفه وتقديمه: هو الفقيه القاضي المؤلف الشاعر[١]، قاضي الجماعة بغَرْناطة، ابن الأزرق الأَصْبَحيّ. وهو غير سَمِيِّه وكَنِيِّه وعَصْرِيِّه: أبو عبد الله محمد بن الأزرق (الأزرق) الوادي آشي الكاتب الأديب الشاعر[٢].

ولد قاضي الجماعة ابن الأزرق الأَصْبَحيّ في مدينة مالَقة[٣] - التي سقطت بيد النصارى الإسبان أواخر شعبان سنة (٨٩٢هـ) - في تاريخ مجهول، ربما سنة ٨٣١هـ (١٤٢٨م)[٤].

تَلَقّى ابنُ الأزرق الأَصْبَحيّ العلمَ في الأندلس، على أيدي شيوخ عصره وتفقه بهم في مالقة وغَرْناطة - بجانب ما تلقاه على أيدي غيرهم، خارج الأندلس، خلال أسفاره. منهم في الأندلس أبو عبد الله محمد بن يوسف المَوّاق (٨٩٧هـ)[٥]، وأبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي (٨٥٧هـ ؟)[٦]، قاضي الجماعة وصاحب كتاب " جنة الرضا في التسليم لما قَدَّر اللّه وقضى"، وكتاب " الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض"، كأنه ذَيَّل به إحاطة ابن الخطيب[٧]، وغيرها. وعُرِفَ ابن عاصم بابن الخطيب الثاني[٨].

---

(١) نفح الطيب، ٢/ ٧٠١.

(٢) البسطي، ١٢٣، ١٢٩ - ١٣١. كذلك: أزهار الرياض، ٣/ ٣٢٢. نفح الطيب، ٢/ ٧٠١.

(٣) الضوء اللامع، ٩/ ٢٠.

(٤) بدائع السلك، مقدمة المحقق التي أفدت منها بعض القضايا المتعلقة بابن الأزرق الأصبحي.

(٥) أنظره: الكشاف العام.

(٦) أزهار الرياض، ٣/ ٣١٦ - ٣٢٠، ٣٢٢. نفح الطيب، ٥/ ١٩، ٦/ ١٤٨.

(٧) أزهار الرياض، ١/ ٥٨، ١٤٥، ١٧١. نفح الطيب، ٦/ ١٤٦.

(٨) أزهار الرياض، ١/ ١٨٦. نيل الابتهاج، ٣١٣. جنة الرضا، مقدمة التحقيق، ١/ ٤٨ - ٤٩.

استمر ابن الأزرق الأَصْبَحي في طلب العلم حتى غدا من كبار العلماء والأُدباء والكتاب والمؤلفين، وله باع غير قصير في الشعر. وتولى عدة وظائف في الأندلس. وقد تولى القضاء (رسميًّا) في مالَقة وغَرْناطة ووادي آش، وتولاه (رسميًّا) في بيت المقدس، كما تولى الإفتاء. وأورد له أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (فاس، ٩١٤هـ) صاحب "المعيار المعرب" في جامعه بعض الفتاوى[١]. وتولى التدريس تطوعاً، وهو مألوفُ علماءِ عصره في الأندلس - وكذلك خارجها، من بلدان العالم الإسلامي - فكان له في الأندلس تلامِذَة، منهم:

١ - أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي، الذي نَعَتَ أُستاذَه وحَلاّه بأوصاف العلم والفضل والفهم[٢]. كما يُورد عنه المَقَّري في "أزهار الرياض"، من كلام الوادي آشي المذكور: " سمعتُ شيخنا الإمام سيدي محمد بن الأزرق الأَصْبَحي رحمه الله بمجلس تدريسه من الجامع الأعظم بغَرْناطة ". " وكان [ابن الحداد الوادي آشي] رحمه الله ممن حل بتلمسان بعد أخذ غَرْناطة أعادها الله، وحصلت له بها مصاهرة مع أعيانها بني مرزوق، ثم آلت إلى مقاطعة، حسبما ذكر ذلك في بعض ما له من النظم "[٣].

٢ - أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن داود البلوي الوادي آشي[٤]، صاحب " ثَبَت البلوي ".

ولابن الأزرق الأَصْبَحي مؤلفات كثيرة مفيدة في أكثر من ميدان في علوم عصره، وهو من علمائها، كالفقه والعقيدة والتاريخ والأدب والسياسة والشعر. ومن مؤلفاته " شفاء العليل (الغليل) ". ويقول المَقَّري عنه: " ومن أعظم تآليفه شرحه الحافل على مختصر

---

(١) المعيار المعرب، ١١/ ١١١، أزهار الرياض، ٣/ ٣١٨ . نفح الطيب، ٢/ ٧٠١ .

(٢) أزهار الرياض، ٣/ ٣٠٣، ٣٠٤ .

(٣) أزهار الرياض، ٣/ ٣٠٥، ٣١٦ .

(٤) بدائع السلك، ١/ ٢٢ . نفح الطيب، ٢/ ٧٠٣ .

خليل . . . وقد رأيت جملة من هذا الشرح بتلمسان وذلك نحو ثلاثة مجلدات[١]، و"روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام"، مجلد ضخم فيه فوائد وحكايات، وقفت عليه بتلمسان وحفظت منه ما أنشده لبعض أهل عصره "[٢]، وكتاب" بدائع السلك في طبائع المُلْك"[٣]، وغيرها. وهو أحد العلماء الخمسة عشر الذين رفضوا نبذ بيعة الأمير أبي الحسن علي بن سعد لابنه محمد أبي عبد الله الصغير، بل وشهد عليها[٤].

ولقد أشاد المَقَّري بابن الأزرق الأَصْبَحي ـ الذي اطلع على كثير من مؤلفاته بتلمسان وقرأ فيها ونقل منها ـ في أكثر من مكان، وأشاد كثيراً جدًّا بعلميته وقابلياته وحتى مَلَكَته الإنشائية (العلمية)، بل نوه حتى بشاعريته[٥]. وحَلاّه بأوصاف مهمة: " هو الإمام العلاَّمة الخطيب الحجة الأعرف المؤرخ الناظم الناثر الراوية قاضي الجماعة بحضرة غَرْناطة، أعادها الله دار إسلام، سيدي أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الشهير بابن الأزرق الغَرْناطي"[٦]. فلا بد لابن الأزرق الأَصْبَحي إنشاء جيد وآراء تدل على روحه العلمية الطيبة السمحة[٧]. وله ملكة شعرية قوية وخيال واسع وعاطفة متجاوبة حية طرية ندية.

وقد تولى السفارة التي كُلِّف بها من الأندلس إلى خارجها، وهي ذات عَلاقة وُثْقَى بموضوع البحث وهجرته من الأندلس، وهو الموضوع الذي يجري التفصيل فيه، فهو مقصود هذا البحث: "هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غَرْناطة، ظروفها وآثارها".

---

(١) نفح الطيب، ٢/ ٧٠١. أزهار الرياض، ٣/ ٣١٧-٣١٨.

(٢) نفح الطيب، ٢/ ٦٩٩-٧٠٠. أزهار الرياض، ٣/ ٣١٨.

(٣) نفح الطيب، ٢/ ٦٩٩. أزهار الرياض، ٣/ ٣١١.

(٤) المعيار المعرب، ١١/ ١٤٨-١٥٠.

(٥) نفح الطيب، ٢/ ٧٠٢ وبعدها. أزهار الرياض، ٣/ ٣١٩.

(٦) أزهار الرياض، ٣/ ٣١٧، ٣١٩.

(٧) نفح الطيب، ٢/ ٧٠٠.

هِجْرَتُهُ مِنَ الأَندلس

غير واضح تماماً تاريخ خروج أو رحيل أو هجرة الإمام العلاَّمة الفقيه ابن الأزرق الأَصْبَحي من الأندلس، مثلما كانت ولادته مجهولة التاريخ، وإن كان من الممكن تحديدهما (الولادة والهجرة) بأقرب ما يكون للواقع والحقيقة. لكن تاريخ وفاته معروفة ومحددة التوقيت: اليوم والشهر والسنة، حيث توفي في بيت المقدس وهو على قضائها يوم الجمعة ١٧ ذي الحجة سنة ٨٩٦هـ(١٤٩١م).

تَحَدَّدَ ذلك مِن قِبَل عالِمَيْن معاصِرَيْن: السَّخاوي (٩٠٢هـ) في "الضوء اللامع" وأبو اليُمن عبد الرحمن (٩٢٨هـ) في" الأُنْس الجليل"[1]. وهذا يعيننا على تخمين ولادته. فإذا كان عمره خمساً وستين سنة فتكون ولادته عام ٨٣١هـ(١٤٢٨هـ). كما يعيننا ـ نوعاً مّا ـ في إلقاء بعض الضوء على تاريخ خروجه من الأندلس، بجانب حوادث الأندلس وتواريخها، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

يقول المَقَّري في" أزهاره" حين الحديث عن سقوط غَرْناطة:"وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تلمسان، منهم القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرق صاحب" الشرح العجيب على مختصر خليل"، وكتاب" السياسة المُلَخَّص من مقدمة تاريخ ابن خَلدون"، وفيه زيادات بديعات، وكتاب" روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام"، وغير ذلك. وارتحل من تلمسان إلى المشرق، وسنُلُمُّ بذكره "[2].

كما يقول وهو يقدم ترجمته:" وقد ارتحل ـ رحمه الله ـ إلى تلمسان عند غلبة العدو الكافر على معظم ما بقي بيد المسلمين من بلاد الأندلس، ثم ارتحل منها إلى المشرق ولم

(١) الضوء اللامع، ٩ / ٢١ . كذلك: مقدمة: بدائع السلك.

(٢) أزهار الرياض، ١ / ٧١ .

أقف على وقت وفاته، إلاّ أنّه كان ارتحاله لتلمسان بعد التسعين وثمان مئة بلا شك، وغالب ظني أنّ ذلك في أواخر العشرة التي كَمَلت بها تسعُ مئة للهجرة النبوية، والله أعلم. ولم أتحقق الآن هل دخلها، أعني تلمسان، بعد أخذ غَرْناطة أو قبله وقد قدمنا أول هذا الموضوع وقت أخذها "[١].

لقد خرج أبو عبد الله محمد بن الأزرق من الأندلس طالباً للنجدة سنة (٨٩٢هـ)، بعد سقوط مالَقة ـ مسقط رأسه ـ أواخر شعبان من هذا العام المذكور إلى الشّمال الإفريقي، إلى تلمسان فتونس، ثم القاهرة. كان ذلك بتكليف من الزَّغَل، وعليه ربما يكون خروجه، من الأندلس ـ لهذا الغرض ـ منذ بداية حصار مالَقة في جُمادى الثانية ٨٩٢هـ(يونيو= حزيران ١٤٨٧م)، متوجهاً إلى تلمسان[٢].

ولكن في تونس لم يتحقق لابن الأزرق أيُّ شيء، لوفاة المرسَل إليه قبل أو بعد وصوله تونس. فهل عندها عاد إلى الأندلس؟ فصدر عنها ثانية نحو سنة (٨٩٥هـ) إلى مصر ـ عَبْرَ تلمْسان وتونس، للغرض نفسه ـ طلباً للنجدة من سلطانها. لكنه لم ينل من ذلك مأرباً أو يحقق مطلباً، بل أمَّلُوه خُلَّباً، فاتجه إلى الحج وعاد إلى القاهرة، حيث انتهى الأمر بتوليه القضاء لبيت المقدس، حتى وفاته في التاريخ المذكور أعلاه.

ولكن لا أَبْعُد أن يكون ابن الأزرق اتجه في سفرته أو سفارته الأُولى ـ كان مستعجلاً للنجدة بعد أن لم يحصل على شيء في تونس وفي حياة حاكمها ـ إلى القاهرة يطلب النجدة من حاكمها[٣]، حيث وصلت سفارة أندلسية إلى القاهرة أواخر هذا العام

---

(١) أزهار الرياض، ٣/ ٣١٨. الكشاف العام: استسلام غرناطة.

(٢) نبذة العصر، ٢٣ ـ ٢٤. نفح الطيب، ٤/ ٥٢٠. نهاية الاندلس، ٢١٦.

ويَذْكُر ابنُ الأزرق في بدائع السلك زيارته لتلمسان (سترد الإشارة إليه)، ولكن غير معلوم تاريخها. فهل كان ذلك قبل هذه السفارة؟ بدائع السلك، ٢/ ٧٣٦.

(٣) نهاية الأندلس، ٢١٦.

(٨٩٢هـ) في ذي القعدة[١]. فلا بد أنها سفارة ابن الأزرق هذه، التي لا نعرف إن كان سافر وحده أم رَأَس وفداً، وبعدها عاد إلى الأندلس.

ولا بد له أن يعود ـ سواء بعد أداء حجه أم بدونه ـ والأَوْلى بدونه، وأدَّاه في سفرة أخرى عن طريق تونس ليكلم حاكمها ثانية ـ إن تم أولاً ـ فلم يتيسر له.

وينسجم قول المَقَّري في" نفحه" مع هذا الفهم وما يأتي منه في إمكانية عودة ابن الأزرق ثانية إلى تلمسان فتونس فالقاهرة، من أجل الموضوع نفسه. وهذا على اعتبار أنّ لابن الأزرق رحلتين من الأندلس، كانت الأُولى رسمية، حيث عاد من القاهرة ـ بعد زيارة تلمسان وتونس في الذهاب والإياب ـ بدون نتيجة. ثم رحل ثانية أو هاجر هذه المرة، بعدما رأى تكالب العدو وتردي الأحوال وتفاقم المتاعب.

فإذا كانت سفارته في المرة الأُولى رسمية، فمفاتحته لتلك الجهات هذه المرة شخصية. فيقول المقري:" ودخل تلمسان لَمّا استولى العدو على بلاد الأندلس، ثم ارتحل إلى المشرق، فدخل مصر واستنهض عَزائم السلطان قَايتْباي لاسترجاع الأندلس، فكان كمن يطلب بَيْض الأَنُوق أو الأَبْيَض العَقُوق. ثم حج ورجع إلى مصر، فجدد الكلام في غرضه، فدافعوه عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس، فتولاه بنزاهة وصيانة وطهارة "[٢].

---

(١) نهاية الأندلس، ٢١٧ ـ ٢١٨، ر٢٢٠،

(٢) نفح الطيب، ٢/ ٧٠٢.

الأَنُوق: طائر العُقاب (الذكر والأنثى): بيضها عزيز. وفي المثل:" هو أعزّ من بيض الأَنوق"، لأنها تُحرزه في أوكارها التي تكون في القُلَل الصعبة (القمم العالية البعيدة الوعرة)، وتقوم هي بحراستها، فلا يمكن الوصول إليها وهي لا تَسمح به.

الأبيض العَقُوق: (الأبْلَق العَقوق).

الأَبْلَق: ما فيه سواد وبياض من الخيل، وهو الذكر. والعَقُوق: الحامل. فيقال:"كَلّفني بَيْضَ الأَنُوق والأَبْلَق (الأبيض) العَقُوق"، وهو مثل يضرب لِمَا لا يمكن ولِمَا لا يكون.

فيكون لابن الأزرق ثلاث محطات في وجهته خلال الرحلة أو الرحلتين: تِلِمْسان وتونس والقاهرة. وهي جميعاً محطات كانت ضمن مهمته الرسمية أو التطوعية، إذا أخذنا بوجود رحلة ثانية، هي هجرته من الأندلس. وهذا ما أَميل إليه وأراه منسجماً مع تواريخ الرحيل، حيث ترك الأندلس أولاً بتكليف رسمي من أبي عبد الله محمد بن سعد الزَّغَل سنة(٨٩٢هـ)، ثم بعد مروره بتلمسان وتونس ـ دون جدوى ـ يذهب إلى القاهرة التي وصلها في السنة نفسها. فهل يجوز أن يبقى في القاهرة حتى يؤدي حجة سنة (٨٩٥هـ)؟ أي بعد أكثر من ثلاث سنوات، ثم يعود إلى القاهرة فيُوَلَّى قضاءَ القدس حيث تكون وفاته في ١٧ ذي الحجة سنة (٨٩٦هـ). فيكون قد قضى في القاهرة زيادة على ثلاث سنوات، وهو يؤدي مهمة رسمية كُلِّف بها تتطلب غاية السرعة والاستعجال وإيصال الجواب. بجانب أنّ هذا يعني أنّه منذ خرج من الأندلس سفيراً مِن قِبَل الزَّغَل إلى هذه البلدان الإسلامية ـ تلمسان وتونس والقاهرة ـ لم يعد إليها مرة أخرى حتى وفاته خارجها، فأي سفارة هذه؟

وعلى هذا فالأظهر أن يكون عاد إلى الأندلس في السنة نفسها، أو على أقصى تقدير في السنة التالية (٨٩٣هـ). ثم بعد أن بقي مدة في الأندلس، حاول أن يصنع شيئاً ـ فلم يجد نفعاً، لسفارته المشرقية المذكورة ـ لكنه هاجر من الأندلس سنة (٨٩٥هـ) أو التي بعدها، حيث مرّ بالطريق نفسها ـ تلمسان وتونس ـ حتى وصل إلى القاهرة.

والظاهر أنّ رحيله أو انفصاله عن الأندلس كان عن طريق أحد الموانيء الأندلسية: المُنَكَّب أو المَرِيَّة أو مالَقة، بحراً إلى وهران فتلمسان فتونس فالقاهرة.

والآن نعود إلى الموضوع ببعض المعلومات الأُخرى والتفاصيل. وعلى ذلك يكون قد زار هذه المدن الثلاث (تلمسان وتونس والقاهرة) مرتين، أو بعضها أكثر.

أما زيارته لفاس فليست لها عَلاقة بهذه القضايا، حيث ـ حسب النصوص ـ يكون قد

زارها خلال أو بعد أو قبل ذلك بنحو عشر سنوات، وربما قبلها كانت زيارته لتلمسان، متابعاً أو دارساً أو طالباً للعلم، إذ نجد في كتابه" بدائع السلك في طبائع الملك" الإشارة لذلك[1].

وبعد سقوط مالَقة بيد النصارى الإسبان، (أواخر شعبان ٨٩٢هـ= أغسطس / آب ١٤٨٧م)[2]، وذلك بعد الحصار الشديد برًّا وبحراً الذي استمر ثلاثة شهور ومُنع أيٌّ نوع من المَدد، رأى أهلُها فيها الأهوال مثلما أبدوا بُطُولة في دفاعهم المجيد عنها، استعملوا فيها المدافع، حتى" فني ما عندهم من الطعام فأكلوا المواشي والخيل والحمير، وبعثوا الكتب للعُدْوتين وهم طامعون في الإغاثة، فلم يأتِ إليهم أحد. وأَثَّر فيهم الجوع وفشا في أهل نجدتهم القتل، ولم يُظهروا مع ذلك هلعاً ولا ضعفاً، إلى أن ضعف حالهم ويئسوا من ناصر أو مغيث من البر والبحر. فتكلّموا مع النصارى في الأمان كما وقع ممن سواهم، فعوتبوا على ما صدر منهم وما وقع من الجفاء، وقيل لهم لَمّا تحقق العدو التجاءهم: تُؤَمَّنون من الموت وتُعْطُون مفتاحَ القلعة والحصن، والسلطان ما يعاملكم إلاّ بالخير إذا فعلتم. وهذا خداع من الكفار. فلما تمكن العدو منهم أخذهم أَسرى؛ وذلك أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة، ولم يَبْقَ في تلك النواحي موضع إلاّ وملكه النصارى"[3].

ويقول صاحب" نبذة العصر" : إنهم أكلوا حتى ورق الشجر والجلود وغيرها " فحينئذ أذعنوا وطلبوا الأمان فاحتال عليهم العدو حتى دخل البلد بمكر ومكيدة وأَسَرَهم كلَّهم وسبى نساءهم وأولادهم واحتوى على جميع أموالهم وفَرَّقَهم على أهل دخلته وقواده وكان مُصابهم مصاباً عظيماً تحزن له القلوب وتَذْهَل له النفوسُ وتذوب وتبكي مصابَهم العيونُ

---

(١) بدائع السلك، ١ /١٩، ٣٩، ٢ /٧٦٤ وبعدها.

(٢) نفح الطيب، ٤ / ٥٢١ . نبذة العصر، ٢٥ . نهاية الأندلس، ٢١٧ .

(٣) نفح الطيب، ٤ / ٥٢٠ - ٥٢١ .

بالدّماء، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وكان استيلاء العدو على مدينة مالَقة في أواخر شعبان عام اثنين وتسعين وثمانمائة"[١].

وصاحبُ مالقة عند سقوطها ـ في التاريخ المذكور ـ هو أبو عبد الله محمد الزَّغَل الذي استقر لمدة ثلاث سنوات في عاصمة مملكته ومعقله: مدينة وادي آش GUADIX، فتركها إلى أَنْدَرَش ANDARAX في منطقة البُشَرّات ALPUJARRAS، ثم إلى المَريّة .ALMERIAثم ترك الزَّغَلُ الأندلسَ نهائيًّا في شوال سنة (٨٩٥هـ) أو بعدها ـ مع أُسرته وحاشيته وبطانته ـ إلى المغرب، فنزل وهران بالجزائر، (فواعجباً وأي عجب). ثم اتجه إلى تلمسان ليستقر فيها[٢]، مثلما اتجه إليها ـ ماراًّ أو مستقراًّ بها ـ العديد من علماء الأندلس المهاجرين. تلك هي الأحداث التي يتحدد إلقاء أضواء أخرى عليها.

إذاً فلما لم يتمكن الزَّغَل من نجدتها وإنقاذها (مالقة) أرسل العلاَّمة الشيخ ابن الأزرق قاضي الجماعة بغرناطة إلى أكثر من جهة، طلباً للإغاثة والنجدة. وليس فيما تقدمه المصادر ـ التي تحدّثت عن ابن الأزرق وهجرته أو سفارته ـ معلومات كافية واضحة شاملة لتقديم ما يلزم لها. ومن مجمل الأخبار يمكن ترجيح أنّ ابن الأزرق قام بأكثر من سفارة إلى خارج الأندلس. الأُولى كانت رسمية، حيث سافر عن الزَّغَل إلى تونس عِبْرَ تِلِمْسان، ثم اتجه إلى القاهرة. ويبدو أنّه عاد إلى الأندلس، ثم سَفَرَ الثانية إلى مصر خلال الاتجاه نفسه، عَبْرَ تِلِمْسان وتونس. وتلك محطات كانت تُقْصَد ولو عبوراً في الذَهاب والإياب، سواء كانت له سفارة واحدة أو سفارتان أو أنّه أكمل المهمة في التوجه من تونس إلى القاهرة، ثم عاد إلى تونس فالأندلس، كما أشير إليه توًّا.

(١) نبذة العصر، ٢٥. نهاية الأندلس، ٢١٦ ـ ٢٢٠.

(٢) نبذة العصر، ٣١، ٣٥. نفح الطيب ٤ / ٥٢٤, نهاية الأندلس، ٢١٤، ٢٢٧ ـ ٢٢٨، ٢٣٤.

وخلال السفارة الأُولى زار بعض المدن بعيداً عن هدف السفارة ومهمتها أو لأداء قَصْدِ رِفْدٍ لها، مثل زيارته تِلِمْسان خلال سيره، مثلما أدى فريضة الحج. وإن كانت قضيةُ حَجِّهِ في هذا الوقت لديّ تحفظ كبير جداً حولها، وحيث يصرح السخاوي أنه قضى حجه سنة (٨٩٥هـ).

ولولا أنّ وفاة ابن الأزرق كانت في بيت المقدس بتاريخ ١٧ ذي الحجة سنة (٨٩٦هـ)، وهو على القضاء بها، بعد أن وصلها في رمضان العام نفسه، ربما لأمكن القول إنه كانت له ثلاث سفارات.

وأمام ذلك، وكونه بعد زيارته مصر أدى فريضة الحج، فلا بد أو لعل ذلك، تم في موسم حجه ٨٩٥هـ، ثم عاد إلى القاهرة، حيث تولى قضاء بيت المقدس. وكان الأَوْلى به أن يعود إلى الأندلس ليقوم بمهمته هناك. أو هل عاد فعلاً إلى الأندلس بعد حجه، ثم هاجر من الأندلس إلى المشرق متجهاً إلى القاهرة عبر المحطات المعهودة: تلمسان وتونس؟ فإنَّ في كلام المَقَّري السابق إشارة واضحة إلى أنه ترك القاهرة وعاد إليها ثانية ليكرر الكلام في موضوع النجدة من حاكمها، الذي استرضاه بالمعسول من الوعود والنَّدي من الكلام والمألوف من المبررات، وهو يرغب في صرفه، وبعد استرضائه وإقناعه بذلك. وإلا فهو (قايِتْباي) وأمثالُه، لِمَن جمع تلك الحشود وجهز تلك الجيوش وأنفق هذه الجهود؟ ويقف هذا مع ما ذكره الشِّهاب الحَجْري (الحَجَري) عن المنصور الذهبي وابنه[1]. فلا أقلّ، كان عليه أن يتولّى تقديم شيء مؤثّر فعال ملموس، وهو في موقع يستطيع الكثير المتنوع المأمول.

أو هل يكون (ابن الأزرق) قد فعل ذلك ـ وعاد إلى الأندلس ثم صدر ثالثة إلى المشرق، هجرة نهائية أخيرة، حيث وُلِّيَ القضاء ووصل القدس في رمضان سنة (٨٩٦هـ). فإن يكن تَرَكَ الأندلسَ في هذا العام (٨٩٥هـ) ـ للمرة الثانية ـ أو الذي يليه ـ في المرة الثالثة ـ هو

(١) ادناه، ١٧٦ وبعدها.

أكثر انسجاماً مع بعض النصوص التي وردت، خاصة عند المَقَّري في نفحه وأزهاره، كما مر بعضها أو كما سيأتي بيانه. وعلى هذا أو أمام بعض هذه النصوص يمكن القول إنّه قام بسفارتين، أو إن شئت القول، بهجرتين، أو ربما ثلاث، والأول أقرب وأكثر ترجيحاً اعتباراً، حسب ما يمكن استنتاجه مما يتوفر من النصوص.

فهل يكون قد أدى فريضة الحج في هجرته الأولى أو سفارته التي ترك فيها الأندلس سنة(٨٩٢هـ)؟ أم في هجرته الثانية التي يُظَن، بل ويتضح أنها تمت سنة(٨٩٥هـ) أو في التي بعدها. والأنسب أن تكون تمت في السنة التي بعدها (٨٩٦هـ)، ويكون قد أدى فريضة الحج في هجرته الأولى وفي موسم حج (٨٩٥هـ) حسب نص السخاوي في "الضوء اللامع" كما سبق ذكره[1]، وإلاَّ فيكون قد أداه في السفرة أو الهجرة الثانية ـ إن كانت ـ حسب تاريخ تأديته الحج، الذي يحدده السخاوي كذلك سنة (٨٩٥هـ). وهو الأنسب إذا اعتبرنا أنّ له هجرتين، وهذا ما أقدمه وأرجحه وأثبته، حسب المتوفر. وإلاّ فهي ثلاث.

فالسفارة الأولى إذا كانت بتكليف من سلطان غَرْناطة أبي عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزَّغَل، بُعيد سقوط مالَقة أواخر شعبان سنة (٨٩٢هـ)، أو حتى منذ بداية حصارها في جُمادى الآخرة من العام المؤرخ، والمرجح أنّها تمت في هذا العام نفسه. إذ بعد سقوط مالقة استقر الزَّغَل في مدينة وادي آش، التي بقيت في طاعته، مَعْقِلاً له وعاصمة لنحو ثلاث سنوات، حتى سقوطها بيد النصارى الإسبان في أوائل صفر سنة ٨٩٥هـ(يناير = كانون الثاني ١٤٩٠م). وأمام هذا الوضع خضع الزَّغَل إلى الملك الكاثوليكي فرناندو (الخامس)، الذي دخل وادي آش أوائل صفر سنة (٨٩٥هـ)[2]. وهذا يجعل سفارة ابن الأزرق الثانية ـ إن كانت ـ تطوعية. فإنّ الزّغَل قد عقد معاهدة سرية مع الملكين

---

(١) الضوء اللامع، ٩ / ٢١ .

(٢) نبذة العصر، ٢٧ .

الكاثوليكيين ليستقر تحت حمايته ـ في مدينة أَنْدَرَش ANDARAX ـ مقابل مغانم أو فُتاتها يحصل عليها، وضَمَن لنفسه ولأتباعه ولأبنائه ذلك. فهو لا يحتاج إلى توجيه سفارة يتحملها أحد لطلب النجدة، كيف وقد استسلم هو واستلم الثمن الرخيص البخس الذليل. لكنه بعد قليل جاز البحر من المَرِيَّة إلى المغرب (لعله نحو أواخر شوال ٨٩٥هـ) فنزل وهران فتلمسان مستقراً فيها نهائيًا، كما سبقت الإشارة إليه، وتوفي فيها سنة ٨٩٩هـ (١٤٩٤م). وماذا كان سيفعل هذا الزَّغَل (الشجاع؟ أو بمعنى الغِش أو ضَعْف الرؤية؟) بالنجدة العسكرية لو أتت؟ إن كان سيكون في استقبالها أو موجوداً في الأندلس أصلاً، بعد الذي صنعه!!!

ويقول المَقَّري: إنّه في شوال ٨٩٥هـ خرج العدو الصليبي "وتوجه إلى وادي آش، فأَخرج المسلمين منها ولم يبق بها مسلم في المدينة ولا الرَّبَض وهدم قلعة أَنْدَرَش وحاف على البلاد، ولما رأى ذلك السلطانُ الزَّغَلُ وهو أبو عبد الله محمد بن سعد عم سلطان غَرْناطة بادر بالجواز لبر العُدوة، فجاز لوهران ثم لتلمسان واستقر بها، وبها نسله إلى الآن يُعرفون ببني سلطان الأندلس"(١). فهل يكون ابن الأزرق قد خرج في المرة الثانية من الأندلس مع الزَّغَل، واستمر ـ بعد تلمسان ـ متجهاً إلى القاهرة فالحج فقضاء بيت المقدس؟ وهذا ما أَراه بعيداً جداً، بل وغير ممكن.

فإذا قلنا إِنّها كانت سفارة واحدة، فأين يكون قد أنفق زهاء ثلاث سنوات؟ حيث أدى فريضة الحج سنة(٨٩٥هـ)، صَدَر إلى مكة المكرمة من القاهرة بعد أن يكون قد ترك الأندلس سنة (٨٩٢هـ)؟ حيث كان قد توجه إلى تونس من الأندلس. ولعله قد مرّ بتلمسان وغيرها، بل لا بد من ذلك بشكل طبيعي.

---

(١) نفح الطيب، ٤/ ٥٢٤. نبذة العصر، ٢٧-٢٨، ٣١، ٣٥. نهاية الأندلس، ٢١٤، ٢٢٧-٢٢٨، ٢٣٤.

فكيف إذاً يمكن أن تكون هذه السفارة ـ سفارة ابن الأزرق ـ وصلت القاهرة أواخر سنة (٨٩٢هـ) قادمة من الأندلس، ومروراً بتلمسان وتونس، ويكون قد وصل إلى تونس قادماً من الأندلس ـ قبل وصوله القاهرة ـ في الأيام الأخيرة قبيل وفاة حاكم تونس أو بُعَيْد وفاته، التي تُؤَرَّخ في رمضان سنة (٨٩٣هـ)؟ ومعلوم أنّ خروجه من الأندلس في سفارته كان في شعبان سنة (٨٩٢هـ) ـ قبيلها أو بعيدها ـ ليسير حثيثاً من أجل هذه المهمة المستعجلة الخطيرة الكبيرة، ليصل تونس نحو رمضان سنة (٨٩٣هـ) مستغرقاً في تلك الرحلة ـ من الأندلس إلى مدينة تونس ـ ما يزيد على سنة! وإذا كان وصول هذه السفارة إلى القاهرة أواخر سنة (٨٩٢هـ) ولم يحقق منها شيئاً، فكيف لا يعود إلى الأندلس، وعلى الأقلّ بهذا الجواب، أي جواب، بل لم يفعل ذلك ويبقى في القاهرة سنوات، ثم يذهب إلى الحج ويعود إلى القاهرة ليطلب ما يعتاش به، وظيفةً أو غيرها، ثم يقبل وظيفة القضاء في القدس حتى وفاته في ١٧ ذي الحجة سنة (٨٩٦هـ)؟

إذاً فالأنسب أن تكون له أكثر من سفارة. وفي هذه السفارة الأولى يكون متعجلاً للحصول على نجدة والعودة بأي جواب، فيمر بتلمسان فتونس. فلما لم يجد شيئاً أو مهد لشيء وحتى يتهيأ ما ينجزه في جولة أخرى يذهب إلى القاهرة لمثلها، فلما لم يجد أملاً، نراه يعود إلى تونس في الأيام الأخيرة لحاكمها الذي توفي في رمضان سنة (٨٩٣هـ). فلم يحصل على شيء فيعود إلى الأندلس ليصلها في هذه السنة نفسها، ثم يترتب عليها ما قد يأتي من الأحداث والمناشط والمهمات حسب الحاجة.

فالظاهر إذاً ـ في السفارة الأولى ـ أنه لم يتيسر عَرْضُه طلب النجدة من الحفصيين، على حاكمها أبي عمرو الحفصي، حيث توفي قبل أن يَتِمَّ لابن الأزرق ذلك سنة ٨٩٣هـ (١٤٨٨م)[1].

---

(١) الحلل التونسية، ابن السراج، ١/ ٤ /١٠٨٩ـ١٠٩٠ . درة الحجال، ٣/ ٢١٠ . الضوء اللامع، ٥/ ١٣٨ . الأعلام، ٤/ ٢١٣ .=

فإذا أخذنا بترجيح ذَهاب ابن الأزرق إلى القاهرة، في هجرته أو سفارته الأولى سنة (٨٩٢هـ)، وبعد عدم الحصول على نجدة من تونس، توجه بعدها ـ مجتهداً دون تكليف، أو لعله بتكليف ـ إلى مصر[١]، للاستعانة بملكها الأشرف قايِتْباي (٩٠١هـ= ١٤٩٦م)[٢]، ولكن لم يجد منه شيئاً، رغم أنّ قايِتْباي كان يملك جيشاً قويًّا، سخيًّا في الإنفاق عليه، لإعداده للمهمات الحربية. وهذا يذكرنا ـ مرة أخرى ـ بما كتبه الشهاب الحَجْري (الحَجَري) عن أحمد المنصور الذهبي السعدي وقوته العسكرية، فيقول الحَجْري الشيخ أبو العباس أحمد آفوقاي الأندلسي في كتابه المسمى " رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب"، وهو كتاب مفقود نقل عنه صاحب " نزهة الحادي" ما معناه: " أن جزيرة الأندلس استردادها من أيدي الكفرة سهل واسترجاعها منهم قريب، ولما دخلتُ أيامَ المنصور مراكُشَ، وجدتُ عنده من الخيل نحو من ستة (صحتها: تسعة) وعشرين ألفاً، فلو تحركت هذه لفَتْحِها لَفَتَحَتْها ولاستولى عليها في الحين. انتهى بالمعنى ونقلته من حفظي، وكذلك أنقال]نُقول [هذا الكتاب كلها من حفظي والله وليّ التوفيق"[٣].

=وهذا قد يفتح بابا للقول إنّ ابن الأزرق حاول أن يفعل شيئا في ذهابه إلى القاهرة ـ ماراً بتونس ـ فلما لم يجد جوابا عاد إلى تونس فالأندلس. أو لعله كذلك عاد ثانية من الأندلس إلى تونس فالقاهرة. ثم ترك القاهرة عائدا إلى الأندلس، في رحلات مكوكية. ثم كانت هجرته النهائية من الأندلس ولم يعد إليها. وهذا يعني أنّ له ثلاث رحلات، وكانت هجرته ثالثة الأثافي.

(١) بدائع السلك، ١/ ١٥ .

(٢) الأعلام، ٥/ ١٨٨ .

(٣) نزهة الحادي، ١١٨ . كذلك: نهاية الأندلس، ٥٠٣ . من تراث الأدب الأندلسي الموريسكي، كتاب العزّ والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ١٦/ ١٩ . هنا: ٧٨، ١٦٦ .

ثمّ توفر النص ـ منقول مباشرة على ما يبدو ـ في مصدر مهم، هو: " جواهر الكمال في تراجِم الرجال "، ٩٣ . والحجري يورد ذلك عند وصوله مراكش بالمغرب، بعد هروبه من الأندلس سنة (١٠٠٧هـ) أواخر أيام السلطان أحمد المنصور الذهبي(٩٨٦ ـ ١٠١٢هـ) ورؤيته كتائب الجيش فيقول ما نصّه: "وعندما تُلِيَتْ=

ثم إذ اتجه ابن الأزرق إلى الحج، فإنّه لا يبعد أن يكون قد أدى هذه الفريضة في موسم حج العام نفسه (٨٩٢هـ). ثم يعود إلى القاهرة فتونس، لكي تنسجم التواريخ والأحداث والتواجد في الأمكنة. وهذا قد يشير إلى أنه عرض الأمر على الأشرف قايِتْباي مرتين، كما يُفْهَم ذلك من كلام المقري السابق في" نفحه". وهذا في حالة ترجيح وقبول واعتماد قيامه بهجرتين أو سفارتين، الأولى(٨٩٢هـ)، والثانية(٨٩٥هـ أو ٨٩٦هـ). ويغدو من الصعوبة بمكان ألا يكون الأمر كذلك. فإذا كان الأمر كذلك وأدى فريضة الحج سنة(٨٩٢هـ) فيمكن أن يكون قد عاد إلى الأندلس، وهاجرها سنة(٨٩٦هـ) أو قبلها إلى تلمسان فتونس فالقاهرة وعرض على سلطانها طلب النجدة في الحالتين أو كرر ذلك بعد عودته من أداء

= كتائبُ المسلمين يومَ العيد وتجندت الأجناد جاء مِن عند السلطان كاتب يَحْسَب كلَّ قائد وأصحابَه يعملهم في ديوان ويعرضهم على السلطان وسألت الكاتب عن نهاية ما بلغ العدد، فقال لي: تسعة وعشرون ألفاً، فقلت: لو أنّ السلطان ذهب بمن معه من الجيش لاستنقذ بلاد المسلمين من يد النصارى". انظر كذلك: زهر البستان (مخطوط)، ١٠٧.

عمل الشهاب الحجري - بعد وصوله المغرب - ترجماناً لدى السلطان الذهبي، ثم لابنه السلطان زيدان(١٠٣٧هـ)، (الأعلام، ١/ ١٩٨)، وابنيه: عبد الملك (١٠٤٠هـ) والوليد (١٠٤٥هـ). والظاهر أنّ الشهاب اتجه للحج بعد هذا التاريخ، فأداه في موسم حج سنة (١٠٤٦هـ) وعاد إلى مصر، وفيها ألف كتابه المفقود " رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب" ثم اختصره أو بعضه ضمن كتابه" ناصر الدين على القوم الكافرين"، الذي فرغ من تأليفه يوم الجمعة ٢١ ربيع الثاني سنة ١٠٤٧هـ. ناصر الدين، ٦. (مدريد)، ١٢، ١٨٦. وهو الذي سماه أيضاً: "السيف الأشهر على كل من كفر" ناصر الدين، (مدريد)، ١٣، ١٩٠. ظاهرة تعريبية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ١١-١٢/ ٣٣٩. من تراث الأدب الموريسكي، الصحيفة نفسها، ١٦/ ١٣. ثم اتجه إلى تونس مستقرًا بها حتى وفاته سنة (١٠٥٢هـ)، إلاّ إذا تأكد لنا حجه قبل وفاة المقري (١٠٤١هـ). وعلى هذا فيبدو أن من الصعب فهم عبارة الشهاب الحجري أنّه التقى بالمقري في مصر الواردة في تعريبه لكتاب" العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع" الذي كتبه بالإسبانية (القشتالية) موريسكي آخر هو الربَّاش: الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي والذي ما يزال مخطوطاً، ونص العبارة هو:"وقد صح من كتب التواريخ التي أجمعها العلاّمة الشيخ أحمد المَقَّري في كتابه بمصر في الكتاب الجامع للتواريخ على بلاد الأندلس أعاده الله إلى الإسلام". (العز والرفعة والمنافع [مخطوط]، ٢٥٠).

الحج في موسم (٨٩٢هـ)، يكون الأمر أكثر انسجاماً مع النصوص التي وردت لدى المَقَّري في" نفحه" و" أزهاره" ـ وهو أكثر مَن أوعب ذلك وأتحفنا به وقدمه لنا، في هذه القلة من النصوص والغموض في الأحداث والندرة في الأخبار ـ والتي يشير فيها إلى أنّ ابن الأزرق ترك الأندلس لمّا استولى العدو على غَرْناطة، محاصراً إياها ونازلاً مَرْجَها. وفي كلتا الحالتين ـ أو العرضين أو تكرارها مرتين ـ لم يجد تلبية .فيقول المقري في" نفحه": " ودخل تلمسان لَمّا استولى العدو على بلاد الأندلس، ثم ارتحل إلى المشرق، فدخل مصر واستنهض عَزائم السلطان قَايِتْبَاي لاسترجاع الأندلس، فكان كمن يطلب بَيْض الأَنُوق أو الأَبْيَض العَقُوق. ثم حج ورجع إلى مصر فجدد الكلام في غرضه، فدافعوه عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس، فتولاه بنزاهة وصيانة وطهارة "[1]. وهو النص الذي سبق اقتباسه توًّا، ويُفهم منه: أن ابن الأزرق خرج عند استيلاء العدو على الأندلس، نحو السقوط أو قبيله بقليل، وأنّه ـ إذا قبلنا ترجيح سفرة (أو هجرة) ثانية على الأقل ـ يكون قد أدى حجه في موسم (٨٩٥هـ) أو (٨٩٦هـ).

ثم يقول المَقَّري كذلك في خَتام ترجمته لابن الأزرق[2]: " ولنختم ترجمته، بل والباب جميعاً، بقوله رحمه الله تعالى عند نزول طاغية النصارى بمَرْج غَرْناطة (المَزارع والمَراعي حولها) أعادها الله تعالى للإسلام بجاه النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام:

مَشُوقٌ بخَيماتِ الأَحبّةِ مُولَعُ ... تُذَكّره نَجْدٌ وتُغْريه لَعْلَعُ

مَواضِعُكم يَا لائمينَ علَى الهَوَى ... فلم يَبْقَ للسُّلْوانِ في القلبِ مَوْضِعُ

ومَنْ لي بقلبٍ تَلْتَظي فيه زَفْرةٌ ... ومَنْ لي بجَفْنٍ تَنْهَمي منه أدْمُعُ

رُوَيْدَكَ فارقبْ لِلّطائفِ مَوْضِعاً ... وخَلِّ الّذي مَن شَرُّه يُتَوقَّعُ

---

(١) نفح الطيب، ٢/ ٧٠٢.

(٢) نفح الطيب، ٢/ ٧٠٤.

وصـبـراً فـإنَّ الصَّـبـرَ خـيـرُ غنيـمَـةٍ ويـا فَـوْزَه مَن كـان للصَّـبـرِ يَرْجِعُ
وبِتْ واثقـاً باللُّطف مِن خـيـرِ راحمٍ فـأَلطافُـهُ من لَمْـحَـةِ العَـيـنِ أَسرعُ
وإن جـاءَ خَطْبٌ فـانتظر فَـرَجَـاً لَهُ فَـسـوفَ تـراهُ في غـدٍ عنك يُرفَـعُ
وكن راجـعـاً لله في كلِّ حـالـةٍ فليسَ لنَـا إلاَّ إلى الله مَـرْجِـعُ"[1]

وهذه النصوص وأمثالها ـ كما سيأتي تفصيله وإيراده فيما بعد ـ تؤيِّد وتؤكِّد سفرته أو سفارته أو هجرته الثانية وتحدد تاريخها، ولو بشكل تقريبي. فهي تعني أنّه عند دخول فرناندو (فردناند) الخامس الصليبي مَرْجَ غَرْناطة كان ابن الأزرق في الأندلس، علماً أن دخول مَرْج غَرْناطة هذا كان في ١٢ جُمادى الآخرة سنة ٨٩٦هـ(٢٣ / ٤ / ١٤٩١هـ)[2]. وإن كان هذا يشير إلى أنّ ابن الأزرق هاجر الهجرة الثانية من الأندلس بُعيد هذا التاريخ، وإلى احتمال أنّه حج في الهجرة الثانية ـ إن رَجَحَتْ ـ سنة (٨٩٥هـ)، كما أشير إليه ـ حَسَبَ السَّخَاوي ـ أو سنة (٨٩٦هـ)، بعد دخول فرناندو الصليبي مَرْجَ غَرْناطة.

الهجرةُ الثَّانية

والظاهر أنّها تطوعية، فأعْتَبِرها لذلك هجرة. كان الأَوْلى أن يُدْرِك كلَّ هذا، بعدما خبر الأحوال وضعفت إمكانية الحصول على نجدة، ولمن وكيف؟وحتى لو حصل، فمتى تصل الأندلس لتدفع تلك القوة الصليبية الباغية العاتية، المدفوعة بالقوة الكبيرة من أوربا وبرعاية البابوية. وإن كان عدم إقدام هؤلاء الملوك على النجدة مأخذاً كبيراً عليهم. وهناك أكثر من يمكنهم رِفْدَها، بإنقاذها أو معاونتها أو إيقاف الأذى عنها أو على الأقل إيقافه أو تخفيفه.

(١) نفح الطيب، ٢ / ٧٠٤ . أزهار الرياض، ٣ / ٣١٩ .

(٢) نفح الطيب، ٤ / ٥٢٤ . نبذة العصر، ٣٧ . نهاية الأندلس، ٢٣٦ .

ومثل ابن الأزرق ـ وقد ألف كتاباً أو أكثر في السياسة مثل: "بدائع السلك في طبائع الملك" المطبوع في جزئين ـ لا بد أنّه على وضوح في ذلك[١].

وعلى هذا الفهم ـ الهجرة الثانية ـ يكون قد عاد إلى الأندلس بعد هجرته أو سفارته الأولى، كما أشير إليه فيما سبق. ثم لَمّا رأى استيلاءَ العدو على الأندلس واستطالتَه (اعتداءه) هَجَر الأندلس سنة (٨٩٥هـ أو ٨٩٦هـ).

والتاريخ الثاني قد يكون أكثر انسجاماً مع النصوص التي تتلاقى في أنّه ترك الأندلس عند أَخْذها أو أَخْذ غَرْناطة أو حتى مَرْجَها. وقد يُفهم أنّ هذا الاعتبار مقصود به أيضاً منذ أحاط العدو بمدينة غَرْناطة في ١٢ جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ (٢٣/٤/١٤٩١م) وبنى مدينة عسكرية بقربها هي مدينة شنتفى SANTA FE[٢] (الإيمان المقدس) تأكيداً لصليبية الحرب، أتمها بعد ثلاثة شهور، قريباً من غَرْناطة، ونزل مرج غرناطة يخرب ويحاصر ويدمر. وهذا الحصار وحده وقبل غيره استمر ما لا يقل عن سبعة أشهر[٣]، هي أشهر القتال. وكان قد ضرب الحصار عليها قبل ذلك بشهرين.

ثم تلت ذلك مفاوضات الاستسلام والموافقة عليها، ثم الاستسلام ثم الاستيلاء على غَرْناطة وحمرائها والدخول إليها، بتفصيلات كثيرة متوفرة. وهذا كله ـ مع أَشْهُر القتال ـ قد استغرق نحو تسعة شهور وتم في أوائل (٨٩٧هـ). فيكون ـ حسب النصوص ـ من المعقول أن تكون هجرته من الأندلس سنة (٨٩٥هـ) أو ـ على أبعد تقدير ـ (٨٩٦هـ). وأرى هذا أكثر انسجاماً.

---

(١) نفح الطيب، ٢/٦٩٩ . أزهار الرياض، ١/٧١، ٣/٣١٨ . كذلك: بدائع السلك، ١/٣٩ (حيث يناقش محقق الكتاب في دراسته هذا اللون من كتب ابن الأزرق). نهاية الأندلس، ٤٩٠ .

(٢) نبذة العصر، ٣٧ . نهاية الأندلس، ٢٣٦ .

(٣) نفح الطيب، ٤/٥٢٤ .

وبما أنّ الزَّغَل كلّفه بالسفارة للنجدة، بُعيد سقوط مالَقة سنة(٨٩٢هـ) أو خلال أحداثها، يكون إذاً قد قام بسفارتين أو هجرتين، الأولى سنة (٨٩٢هـ)، والثانية سنة(٨٩٦هـ) أو حتى (٨٩٥هـ). ولقد جرت مناقشة هذا الأمر وتأكيده وإثباته فيما سبق، أكثر من مرة من جوانب مختلفة، مُدَعَّماً بالنصوص والمناقشات والحجج، بأُسلوب يعتمد على النصوص وعلى ما يمكن أن يُستَنْبَط منها ويُفْهَم من خلالها، مرتبطاً بالظروف والمهمة، اعتماداً على بعض القضايا المنطقية التي تنسجم مع كل ذلك.

وإليك بعض النصوص التي تؤكد تركه للأندلس ـ وهو ما سبق إيضاحه، لِيُقَدَّم هنا مُؤَكَّداً، مع نصوص أخرى مهمة تقوي ذلك ـ بعد محاصرة العدو الصليبي غَرْناطة ونزوله مَرْجَها واستيلائه عليها، وهي نصوص سبق اقتباس بعضها أو جزءاً منها. ويشار هنا إليها ويقتبس ما لم يرد آنفاً ويورد مع ما يكون من تعليق. فيقول المقري في نص سبق اقتباسه مُؤَكِّداً هذا: " ودخل تلمسان لَمّا استولى العدو على بلاد الأندلس"[١]. فبجانب النص السابق الذي يخص الأشرف قايِتْبَاي والذي سبقت الإشارة إليه أكثر من مرة، بل واقتباسه، يختم المقري ترجمة ابن الأزرق ببعض أبيات له مضى إيرادها قريباً[٢]. كما يقول المقري في أزهاره: " وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تِلِمْسان، منهم القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرق ... "[٣].

وكذلك يقول صاحب" نيل الابتهاج" مثل هذا المعنى حيث يوجِز ذلك، فيذكر أنّ ابن الأزرق" ارتحل إلى تِلمِسان لما استولى العدو على بلده"[٤].

---

(١) نفح الطيب، ٢ / ٧٠٢ .

(٢) نفح الطيب، ٢ / ٧٠٤ . أزهار الرياض، ٣ / ٣١٩ .

(٣) أزهار الرياض، ١ / ٧١ .

(٤) نيل الابتهاج، ٣٢٤ .

فالعبارات واضحة في موعد خروج ابن الأزرق من الأندلس، والإشارة إلى تاريخ ذلك - ولو دون تحديد - مرتبط بالأحداث التي نعرف تواريخها. وحتى عبارة المقري في " أزهاره " : " وهؤلاء خرجوا" التي تخص بني داود، وكذلك صدر الخبر" وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تلمسان " ليست بعيدة عن هذا المعنى من عدة وجوه وتبديلات واضحة قوية. ومجمل العبارات أنهم - هؤلاء العلماء - عند أحداث السقوط يشير لذلك ويوضحه ويقويه. إذ سبق هذه العبارات حديث عن أخذ بلاد الأندلس وسقوطها[١]. كما أنّ العلماء الذين ذكرهم بعده في النص السابق كلهم كانت هجرتهم من الأندلس خلال أحداث السقوط الأخير، وفي ترجمة المقري له في " نفح الطيب "[٢]، والمقري نفسه يذكر دخول العدو إلى مَرْج غَرْناطة مُحَدِّداً تاريخَه كما سبق اقتباس ذلك غير بعيد[٣].

وتلخيص ذلك كله:

أنّ صاحبنا ابن الأزرق كان قاضي الجماعة بغَرْناطة للسلطان أبي عبد الله محمد (الثاني عشر) ابن سعد المعروف بالزَّغَل، حين كانت على طاعته. ولَمّا جرت منازعات بين الزَّغَل وبين ابن أخيه أبي عبد الله الصغير - آخر ملوك غرناطة، محمد (الحادي عشر) ابن أبي الحسن علي بن سعد[٤] - سلَّمها إلى الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٧هـ(١٤٩٢م).

وبعد ثورة هذا الصغير، بأهل حي البَيّازين ALBAICIN بغرناطة على عمّه الزَّغَل ووقوف غَرْناطة ضده، تركها - مع قاضيه ابن الأزرق - لابن أخيه، متجهاً إلى وادي آش GUADIX.

(١) أزهار الرياض، ١/٦٧ - ٧١.

(٢) نفح الطيب، ٢/٦٩٩.

(٣) نفح الطيب، ٢/٥٢٤. أزهار الرياض، ٣/٣١٨.

(٤) انظر: قائمة النسب. أعلاه، ١٧٤,٨١ .ادناه،١٨٣ .

وكان خروج الزَّغَل من غَرْناطة في ٢٤ ربيع الثاني سنة (٨٩٢هـ)[١]، لنجدة بعض المناطق المحاصرة من قبل طاغية النصارى الملك الكاثوليكي فرناندو (فردناند) الخامس FERNANDO V (FERDENAND) ملك أرغون ARAGON. ثم بلغ الزغل أنّ صاحب البَيَّازين (أبو عبد الله الصغير)، ابن أخيه قد بايعته غرناطة التي كانت للزَّغَل، والذي قصد وادي آش. وكانت ثورة غَرْناطة، ثم توجه الزَّغَل إلى وادي آش في الخامس من جمادى الأولى سنة (٨٩٢هـ)[٢].

ويذكر المقري أنّ حصن مالَقة قام بدعوة صاحب وادي آش، فارتحل صاحب قشتالة(فرناندو) إلى مالقة ونازلها برًّا وبحراً وقاتله أهلُها قتالاً شديداً وحاصروها وطال الحصار حتى نفدت الأقوات وشددوا عليهم الحرب بالمدافع ودخلوا عليهم المدينة واشتد الأمر عليهم ومنعوا الداخل إليها وإن دخلها جماعة من المرابطين" وضيقوا عليهم بالحصار إلى أن فني ما عندهم من الطعام فأكلوا المواشي والخيل والحمير، وبعثوا الكتب للعُدْوتين [لعلها: الأندلس والمغرب، بنو وطّاس، أو المغرب والجزائر، بنو زَيَّان] وهم طامعون في الإغاثة فلم يأت إليهم أحد "[٣].

واستمر الحال حتى سقطت مالَقة - بعد حصار ثلاثة شهور - أواخر شعبان (٨٩٢هـ)[٤]. واستمرت الحرب سِجَالاً بين الزَّغَل وفرناندو حتى تنازل الزغل للملك الكاثوليكي وبايعه ودخل تحت طاعته أوائل صفر (٨٩٥هـ)" وجميعُ ما كان في حكم صاحب وادي آش صار للنصارى في طَرْفة عين، وجعل في كل قلعة قائداً نصرانيًّا، وكان (وكُلٌّ) قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم الكفار مالاً من عند صاحب قَشْتالة

---

(١) نفح الطيب، ٤ / ٥١٩ .

(٢) نفح الطيب، ٤ / ٥٢٠ .

(٣) نفح الطيب، ٤ / ٥٢٠ .

(٤) نفح الطيب، ٤ / ٥٢١ . نهاية الأندلس، ٢١٧ .

إكراماً منه لهم بزعمهم، فَتَبًّا لعقولهم، وما ذلك منه إلا توفير لرجاله وعُدَّته ودفع بالتي هي أحسن"[1].

وترك (الزَّغَلُ) متخلياً عن وادي آش، آخر معقل. فاستقر في أَنْدَرَش ANDARAX (في منطقة البُشَرَّات ALPUJARRAS)، مُعيناً للعدو[2] *، ثم كان رحيله من الأندلس نهائيًّا مع أسرته وأتباعه من ميناء المَرِيَّة إلى المغرب فوهران ثم تلمسان، مستقرًّا بها حتى وفاته[3].

والظاهر أنّ سفارة ابن الأزرق كانت بعد خروجه مع الزَّغَل من غَرْناطة - ٢٤ ربيع الثاني ٨٩٢هـ - متجهاً إلى وادي آش آخر موطن له وقبل ثورة أهل غرناطة - ٥ جمادى الأولى ٨٩٢هـ - متجهاً (ابن الأزرق) إلى تونس - مارًّا ببعض المدن، منها تلمسان بالجزائر - لكنه على ما يبدو لم يجد نفعاً فلم ينتظر واتجه إلى القاهرة (كما هي مهمته) لاستنجاد سلطانها الأشرف قايِتْباي فوصلها في ذي القعدة (٨٩٢هـ)، فَلَمْ يَلْقَ استجابةً فِعْلِيّة. ولعله عاد مسرعاً مارًّا بتونس مرة أخرى ليعيد الكلام مع أميرها الحفصي أبي عمرو عثمان في أيامه الأخيرة، فلم يُسْعِفْه الظرفُ أو الوقتُ أو لم يجد تجاوباً، حيث توفي أبو عمرو عثمان الحفصي أواخر رمضان سنة (٨٩٣هـ)[4].

وبين وصول ابن الأزرق مصر (ذو قعدة ٨٩٢هـ) ووفاة السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان (أواخر رمضان ٨٩٣هـ) أكثر من عشرة شهور - يتخللها موسم الحج - ما يكفي

---

(١) نفح الطيب، ٤ / ٥٢٤ .

(٢) نهاية الأندلس، ٢٢٧ .

* لكن أليس هذا غريباً وعجيباً أن ينقلب المحارب الشجاع لعدو دينه الذي أنزل بأهل ملته كل ألوان التنكيل الوحشي وسفك وفتك بهم، ثم يتحولُ مُعيناً له يبايعه على الطاعة!!! فلا أقل - في الغلبة واليأس وقلة المعين - أن ينسحب وينزوي عاجزاً.

(٣) نفح الطيب، ٤ / ٥٢٤ . نبذة العصر، ٣٥ .

(٤) الحلل التونسية (ابن السراج)، ١ / ٤ / ١٠٨٩ - ١٠٩٠ .

ويناسب للقيام بالحج والوصول إلى تونس ـ عبر القاهرة، ولعله أعاد الكلام مع سلطانها قايِتْبَاي ـ قبل وفاة أبي عمرو الحفصي. وبعد ذلك ـ الأظهر والأوجب والأنسب ـ أنّه عاد إلى الأندلس وبقي فيها حتى وقت آخر. وإن كان الأفضل ألاّ يكون أدى حجه هذا الوقت للمهمة المستعجلة التي حملها والاهتمام بالنجدة المأمولة والعودة ـ متعجلاً مسرعاً جداً ـ بجوابها إلى الأندلس. وهذا يجعل من الأوفق أن يكون حجه سنة (٨٩٥هـ)، كما ذكره السخاوي. والأرجح: لا بد أن يكون رَجَع إلى الأندلس حال تمام المقابلات، ودون أن يحقق شيئاً، ويكون وصوله إليها خلال سنة ٨٩٣هـ. ثم لما احتل الملك الكاثوليكي فرناندو مَرْج غَرْناطة وذلك: " وفي ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بحملاته إلى مَرْج غَرْناطة، وأفسد الزّرع ودوخ الأرض وهدم القرى وأمر ببناء موضع بالسور والحفير وأحكم بناءه. وكانوا يذكرون أنّه عزم على الانصراف، فإذا به صَرَفَ الهمة إلى الحصار والإقامة، وصار يُضيّق على غَرْناطة كل يوم. ودام القتال سبعة أشهر واشتد الحصار بالمسلمين، غير أنّ النصارى على بعد، والطريق بين غَرْناطة والبُشَرَّات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شُلِّير، إلى أن تمكن فصل الشتاء، وكَلَب البرد ونزل الثلج، فانسد باب المرافق وقُطِع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد "[١].

فإمّا أن يكون خروج ابن الأزرق الأَصْبَحي أو هجرته أو سفارته ـ متطوعاً محتسباً هذه المرة ـ من الأندلس سنة (٨٩٥هـ) (أو في رجب أو شوال أو في جمادى الآخرة ٨٩٦هـ) متجهاً إلى المغرب، مقيماً مدة في تلمسان (ولعله كرر ذهابه إليها)، ثم متجهاً إلى القاهرة، عبر تونس. وهو ما ينسجم مع النصوص المتوفرة التي تعطي لهذا التوجيه ترجيحاً.

---

(١) نفح الطيب، ٤ / ٥٢٤ وبعدها. نبذة العصر، ٣٧ . لكن فرناندو قبل ذلك حدث أن حل ونزل هذا المرج في رجب سنة (٨٩٥هـ). نفح الطيب، ٤ / ٥٢٣ . ثم كرر ذلك في ٣ شوال سنة (٨٩٥هـ) ورحل عنه بعد أيام. نفح الطيب، ٤ / ٥٢٤ . نبذة العصر، ٣٤ .

وهناك في مصر حاول ـ ولعله ألح على الأشرف قايتْبَاي ـ العمل بتقديم العون للأندلس، ولكنه كما يقول المَقَّري: " فدخل مصر واستنهض عَزائم السلطان قَايتْبَاي لاسترجاع الأندلس، فكان كمن يطلب بَيْض الأَنُوق أو الأَبْيَض العَقُوق "[١]. وظل هناك حتى سقطت غَرْناطة بيد العدو الصليبي ـ ودخلها مستولياً عليها في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ (٢/١/١٤٩٢م) ـ بعد نحو تسعة شهور من خروجه بجيشه إلى حصن غَرْناطة في (١٢ جمادى الآخرة سنة ٨٩٦هـ) وإلى مرج غَرْناطة في (الثامن عشر من جمادى الآخرة عام ٨٩٦هـ). ثم إنّ ابن الأزرق لم يجد أي نفع هناك من الحاكم المصري، ثم دافعوه بتوليته قضاء بيت المقدس ـ ترضية، وهو عنهم بعيد، إلاَّ أنْ يكون هو قد اختار ذلك ـ وبقي فيه حتى وفاته (١٧ ذي الحجة سنة ٨٩٦هـ)، أي قبيل توقيع معاهدة الاستسلام الذليل، استسلام غَرْناطة في التاريخ المذكور توّاً أعلاه (٢١ محرم ٨٩٧هـ = ٢٥ نوفمبر / تشرين الثاني ١٤٩١م)، بينما دخول غَرْناطة والاستيلاء عليها كان بعده في (الثاني من ربيع الأول ٨٩٧هـ = ٢ يناير / كانون الثاني ١٤٩٢م).

* * *

وهكذا كانت حياة ونهاية ابن الأزرق الأَصْبَحي (أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن الأزرق الأَصْبَحي، الصيغة التي كتبها بنفسه)، طريداً شريداً. ويتوفى ابن الأزرق في غير بلده ربما بعيداً عن أهله ودياره ومآربه، بعد أن أخفق في تحقيق أية نُصرة للأندلس في سفارته الأولى وسفارته (هجرته) الثانية. وكان بإمكانه ألاَّ يخفق في نصرتها ببقائه في الأندلس مع أهلها، يقويهم، ليقفوا معه ويقتدوا به ويتقووا بمكوثه.

* * *

---

(١) نفح الطيب، ٢/٧٠٢.



الخُلاَصة

ابن الأَزْرق الأَصْبَحي

مولده: في مالَقة سنة ٨٣١هـ (١٤٢٨م).

هجرته: **الأُولى**: (سفارته الأُولى) من الأندلس بعد سقوط مالقة (إلى تونس فالقاهرة) أواخر ربيع الثاني أو أواخر شعبان أو بعده سنة (٨٩٢هـ)، ووصل القاهرة في ذي القعدة العام نفسه، فلم يجد شيئاً. وإلى هذه السفارة والموقف منها، يتوجه وصف المقري. نفح الطيب، ٢ / ٧٠٢ المذكور أعلاه: " فدخل مصر واستنهض عَزائم السلطان قَايِتْبَاي لاسترجاع الأندلس، فكان كمن يطلب بَيْض الأَنُوق أو الأَبْيَض العَقُوق " .

الثانية: هجرته بعد سقوط وادي آش أوائل صفر ٨٩٥هـ (أوائل ١٤٨٩م) أو مع الزَّغَل الذي ترك الأندلس لعله أواخر شوال ٨٩٥هـ. نبذة العصر، ٣٥ . نفح الطيب، ٤ / ٥٢٤، أو بعيداً عن ذلك، قبله أو بعده.

وفاته: وهو على قضاء بيت المقدس في يوم الجمعة ١٧ ذي الحجة سنة ٨٩٦هـ (أواسط سبتمبر= أيلول ١٤٩١م).

* * *

٧ ـ المُؤَرِّخ أبو عَبد اللّه مُحَمَّد

ابن الحَدَّاد الوَادِي آشي

الفقيه الأديب المؤَرخ

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي ثم الغَرْناطي، نَزيل تِلِمْسان المحروسة.

هكذا يَرِد اسمه في أماكن متفرقة، مما كتبه عنه المَقَّري في "نفحه" و" أزهاره" . وهو أهم مَن يُقَدِّم عنه مِن المعلومات المتوفرة. فالمعلومات عنه قليلة والمصادر شحيحة، وجُلُّ ما نعرفه مأخوذ مما كتبه المَقَّري. والذي أعان المقري على ذلك أنّه نشأ وتعلّم وعاش في تلمسان وتردد عليها. وهي مستقر الوادي آشي بعد هجرته من الأندلس، حيث عُرف بعلمه.

وعدم توفر المعلومات عنه (الوادي آشي) في المصادر الأندلسية، أنّه في أول جلوسه مجلس العلماء، شُغِلَت الأندلس بالأحداث التي قادت إلى سقوطها، وانشغال أهل التأليف عن ذلك. وإن كان هذا لا يُذْهِب الغرابة في ضحالة المعلومات عنه، وهو بهذه المكانة وشخصيته مرموقة متعددة الجوانب. ولكن الأمل أن نجد عنه فيما كُتب في تِلِمْسان وأُلِّف عنها وعن علمائها. وقد كانت عاصمة علمية مهمة، أيام بني زَيَّان. وربما يكون رحيل بعض علماء الأندلس إليها ـ مروراً أو طلباً للعلم أو استقراراً ـ أحد روافدها وعواملها ومكوناتها.

لم أتعرف على مكان وتاريخ ولادة ابن الحداد الوادي آشي المؤرخ. وهو ما يُمَيِّزه من غيره ممن يشاركونه كنيته واسمه وآشِيَّته. ولعله وُلد في مدينة وادي آش GUADIX، من أعمال غَرْناطة، ثلاثة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي منها، وكانت فاضلة بالعلم

وحافلة بالعلماء[1].

وأُقَدِّر تاريخ ولادته أواسط القرن التاسع الهجري. ولا بد أنّه تلقى العلم في وادي آش ثم انتقل إلى الحاضرة غَرْناطة، استزادةً واحتواءً للعلم فيها. وتلقى العلم على يد علماء عصره وتفقه بهم وترقى بعلميتهم. منهم: ابن الأزرق الأَصْبَحي، وربما على يد ابن عاصم صاحب كتاب "جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى"، الذي أَطلق عليه الوادي آشي نفسُه لقبَ ابن الخطيب الثاني[2]. وبقي كذلك حتى بلغ مبلغ العلماء وتصدر للتدريس والإقراء. فكانت أحداث الأندلس الأخيرة، التي قادت إلى سقوطه والتي ربما ساهم ببعضها بأي أسلوب، ثم انتهى الأمر بهجرته من الأندلس ـ في تاريخ غير واضح ـ إلى تلمسان مع علماءَ آخرين، واستقر فيها قاضياً بقية عمره، ربما مع أسرته.

لكن المقري يخبرنا أنّه تزوّج في تلمسان من أُسرة بني مرزوق، غير أنّ زواجه هذا ـ ولأسباب نجهلها ـ انتهى بالطلاق. ويشير المقري لذلك بقوله: " وكان رحمه الله ممن حَلَّ بتلِمْسان بعد أخذ غَرْناطة أعادها الله وحصلت له بها مصاهرة مع أعيانها بني مرزوق، ثم آلت إلى مقاطعة، حَسْبَمَا ذكر ذلك في بعض ما لَه من النَّظْم، وكان له نَظْمٌ لا بأس به. فمن ذلك قوله رحمه الله، بعد بيت سقط من حفظي، مُضَمَّنُه أنّ الناسَ لامُوه عندما طَلَّق بنت ابن مرزوق، وأَظُنُّه هكذا:

يلومُونَنِي الأَقوامُ مِن بعد ما سَطَا	عَليَّ ابنُ مـرزوقٍ ومَنَّ بإنفاقِ
فقلتُ لهم كُفُّوا المَلاَمَ فإنَّني	تركتُ ابنَ مرزوقٍ وأَمَّمتُ رزَّاقي"[3]

---

(١) التاريخ الأندلسي، ٥٥٨ .

(٢) أزهار الرياض، ١ / ١٨٦ .

(٣) أزهار الرياض، ٣ / ٣٠٥ . من الممكن استحلاب بعض الأسباب من هذا الجواب!!!

فهل أنّ هذا زواجُه الأول، أم أنّه تزوّج في الأندلس قبل هجرته منها، أم أنّ أُسرَته ذهبت في الأحداث أو تأخر زواجه بسبب تلك الأحداث؟ فإذا كان زواجه في تلمسان هو زواجه الأول فاحتمال أن يكون هاجر من الأندلس وهو في العَقد الرابع من عمره، واستقر فيها يبذل علمه للناس ـ كما كان قبلاً ـ ويتعيَّش من مهنة نسخ الكتب التي اشْتُهِرَ بها[١].

وللوادي آشي شعر جيد رقيق عذب يضعه ضمن أجواد الشعراء ـ وربما المُقِلِّين منهم ـ وقد يكون مُقِلًّا أو فُقِد كثير من شعره، لكننا نجد منه متفرقاتٍ عند المَقَّري في "أزهاره"، وكذلك بعضه في "نفحه". وكانت له تقاييد وتعاليق وتداوين مهمة على أحداث الأندلس وتواريخها وقضاياها جعلت المَقَّري يصفه بالمؤرخ. فهل له مؤلفات في هذا التاريخ وغيره؟ كما له في الفقه والأدب نِتاج معروف منقول وُصِفَ به، ولعله كتب بعض المؤلفات. وقد حَلاّه المقري في "نفحه" بالأديب الكاتب الحافظ المؤرخ، أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي نزيل تِلِمْسان، كما حَلاّه بالفقيه[٢]. لكن الغريب أنّ المقري لم يُفْرِد لأبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي المؤرخ والحافظ والكاتب ترجمةً مستقلّة ضمن أمثاله في "نفح الطيب" كما فعل مع غيره، ولو أنّه قد ذكره أو أَلَمَّ بذكره ـ كما قال ذلك ـ وأورد له شيئاً من كلامه ونِتاجه في "أزهار الرياض" ونُتَفاً عابرة في "نفح الطيب".

وبقي هذا المؤرخ ابن الحداد الوادي آشي، نزيلُ تلمسان كذلك، يُنفق وقته بين الدرس والإقراء والكتابة، يتعيَّش من خط يده ويتولى التدريس في الحلقات ويشارك في بعض المهمات في تلمسان حتى توفاه الله في تاريخٍ نجهله، حسب المعلومات المتوفرة حالياً. ويَظهر أنّه لم يخرج من تلمسان، بعد وصوله إليها. والذي يبدو أنّ ذلك الزواج الذي انتهى بالطلاق قد أثَّر عليه آثاراً متنوعة وجعله يُحس بالغربة والوحدة (وآه وألف آه من الغربة

---

(١) أزهار الرياض، ٣ / ٣٠٦ وبعدها.

(٢) نفح الطيب، ٤ / ٥٠٧، ٦ / ٢٢ .

والوحدة). لعل ذلك جعله يعتزل التَّرْحال، فبقي منسجماً ومفضلاً ومكثراً من النسخ والتقييد، المهنة التي استوعبت كل طاقته ووقته، فكان الأَوْلى به الرحيل إلى غيرها، إلى فاس مثلاً. وهي أقرب إلى عُدْوة الأندلس، بل الأفضل أن يعود إلى الأندلس نفسها كما فعل آل البَقَنِّي[١]. وهكذا يُشير ابنُ الحداد الوادي آشي المؤرخ إلى وحدته وكذلك غربته[٢] في تلمسان:

غـريبٌ في تِلِمْسـانٍ وَحيـدٌ   مِنَ الأَحبـابِ ليسَ لهُ مُشـاكِلْ

وكم فيـهَا مِنَ الأَصحابِ لكنْ   عَدِمتُ بهَا المناسبَ والمُمَاثلْ

ولقد كان الأَوْلى بالوادي آشي أن يبقى في الأندلس - أو يعود إليها - يؤدي دوره هناك، مُقَدِّماً الصورة العملية للعلم، قائماً بالواجب الأكمل للعلماء وموقعهم القيادي في المجتمع الإسلامي. وذلك أفضل وأقرب وأرضى لله تعالى وإلى مهمة العلماء في الحياة الإسلامية.

* * *

والآن لا بد من إلقاء ضوء أكثر على تاريخ هجرته من الأندلس، بالاستعانة ببعض النصوص التي أوردها المقري في "نفحه" و"أزهاره". فالمَقَّري يذكر - فيما سبق اقتباسه[٣] - أسماءَ العديد من علماء الأندلس الذين هاجروها إلى تلمسان جملة واحدة أو أرسالاً متقاربة متلاحقة: "وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تلمسان ... ومنهم الفقيه الأديب حائز قصب السبق في كثرة النسخ والكتابة أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي، وسنذكره إن شاء الله تعالى"[٤]. ولعله يُفهم من هذا النص أنّ رحيل الوادي

---

(١) أدناه، ١٩٨ وبعدها.

(٢) أزهار الرياض، ٣/ ٣٠٨.

(٣) أزهار الرياض، ١/ ٧١.

(٤) نفسه.

آشي كان، قبيل سقوط غَرْناطة (٨٩٧هـ)، في تاريخ مجهول. ولكن نصًّا آخر أورده المقري -في أزهاره كذلك- يُلقي ضوءاً أوضح على تاريخ رحيله من الأندلس: " وكان رحمه الله ممن حل بتلمسان بعد أخذ غَرْناطة أعادها الله ..."[١].

فهل يكون على هذا رحيل الوادي آشي من الأندلس بعد أخذ غَرْناطة، أم أنّ أخذ غَرْناطة كان بعد وصوله تلمسان؟ ولعلنا نفهم بأخذها دخولَ الملكين الكاثوليكيين غرناطة وحمرائها بعد الاستيلاء عليها في الثاني من ربيع الأول النبوي من عام ٨٩٧هـ (٢/١/١٤٩٢م)، كما يشير المقري نفسه لذلك في" نفح الطيب" و"أزهار الرياض"، حين عبر العدو الصليبي الذي" في ثاني ربيع الأول من السنة أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة- استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوف الغدر- وكانت الشروط سبعة وستين "[٢]. ومثله قاله في "أزهار الرياض" : " وكان استيلاؤه على حمراء غرناطة ودخول جيشه لها ثاني ربيع النبوي من عام سبعة وتسعين وثمان مئة. هكذا رأيته في تأليف لبعض المتأخرين ضمَّنه القضية، وألّفه بسببها، على أني رأيت بخط الفقيه أبي عبد الله الوادي آشي ما يخالف ذلك وهو ... وكان الاستيلاء على غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام في محرم عام سبعة وتسعين وثمان مئة. انتهى كلام الوادي آشي[٣]. (على أنّه قد يظهر من كلام بعضهم أنّ الصلح كان في المحرَّم ودخول الجيش القصبة الحمراء كان في ربيع فلا منافاة والله

---

(١) أزهار الرياض، ٣/٣٠٥ .

(٢) نفح الطيب، ٤/٥٢٥ .

(٣) نفح الطيب، ٦/٢٢ . أزهار الرياض، ١/٦٥-(٦٦).

أعلم)"[١].

وحتى لو أخذنا بذلك ـ ولعله الأوفق ـ فيكون ترك ابن الحداد الوادي آشي للأندلس بعد توقيع معاهدة الاستسلام، التي تمت في ٢١ من المحرَّم سنة ٨٩٧هـ (٢٥ / ١١ / ١٤٩٢م). وهو ما يذكره الوادي آشي نفسه فيما ينقله عنه المقري في " أزهاره " و " نفحه " وسبق اقتباسه قريباً[٢]. فهل يكون الوادي آشي وَهِمَ في ذلك أم اختلط عليه الأمر أم اعتبر الاستسلام هو الاستيلاء؟ أُرَجِّح الاحتمال الثالث، حتى لو كان ابن الحداد الوادي آشي في تلمسان ـ بعيداً عن الأحداث ـ أثناء حدوثها. وعلى هذا آخذ باحتمال أنّ هجرة الوادي آشي من الأندلس كانت في المدة بين الاستسلام والاستيلاء، وتَرَك الأندلس بعد الاستسلام مباشرة. وعن فهم الوادي آشي علق المقري في " أزهاره " تعليقه السابق[٣]. وربما كانت هجرته خلال أحداث التفاوض للاستسلام.

وأُخَمِّن أنّ رحيله أو هجرته من الأندلس كان وهو زهاء الأربعين من عمره، يقاربه ويمشي نحوه ويكاد يتعانق معه. واستقرَّ في تلمسان مشاركاً في الحياة العلمية، علماً وأدباً وفقهاً، حتى توفي في تاريخ غير معلوم. ولكن هناك مقطوعات شعرية للوادي آشي يوردها المقري يَرْثي بها كُلِّها أبا العباس أحمد بن يَحيى الونشريسي، صاحب " المِعْيَار المُعْرِب والجامع المُغْرِب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب "، الذي توفي في فاس يوم

---

(١) أزهار الرياض، ١ / ٦٥ ـ ٦٦ . نبذة العصر، ٤٢ .

حديث المقري هنا في " أزهاره " يشير إلى مؤلَّف عن نهايات غرناطة وأحداث الاستسلام والاستيلاء. فيا ترى ما هو هذا الكتاب؟ فهل يشير إلى " نبذة العصر في أخبار بني نصر " المجهول المؤلف أم إلى غيره؟ ولا أُبْعِد هذا الاحتمال الأخير، متلمساً ذلك من أسلوبه. فلعله ـ إن كان ـ يظهر هذا المؤلَّف يوماً مّا ـ الذي يشير إليه المقري ـ من مذخره قريباً، إن شاء الله تعالى.

(٢) أزهار الرياض، ١ / ٦٦ . نفح الطيب، ٦ / ٢٢ . نهاية الأندلس، ٢٥٧ .

(٣) أزهار الرياض، ١ / ٦٦ . نفح الطيب، ٦ / ٢٢ . كذلك: نيل الابتهاج، ٣٢٤ .

الثلاثاء ٢٠ صفر سنة ٩١٤هـ[1]. وهذا يعني أنّ وفاة الوادي آشي بعد هذا التاريخ بمقدار من السنين غير معلوم، تقديرها بسنوات أو بالعقود من السنين، عليه رحمة الله ورضاه، وحتى نلقاه جميعاً في مستقر رحمته، إن شاء الله تعالى.

* * *

الخُلَاصة

المُؤَرِّخ أَبُو عبد اللَّه مُحَمَّد بن الحدَّاد الوَادي آشي

مولده: في مدينة وادي آش، من أعمال غَرْناطة، أواسط القرن التاسع الهجري.

هجرته: إلى تلمسان، بعد أو نحو أحداث استسلام غَرْناطة ٢١ محرم ٨٩٧هـ (٢٥/١١/١٤٩١م) وقبل الاستيلاء عليها في ربيع النبوي ٨٩٧هـ (٢/١/١٤٩٢م)، ترك الأندلس نهائياً.

وفاته: في تلمسان في تاريخ مجهول، لكنه بعد سنة (٩١٤هـ).

* * *

(١) أزهار الرياض، ٣/٣٠٦-٣٠٧.

٨ـ الزَّقَّاق

أَبُو الحَسَن علي بن قاسم بن مُحَمَّد التُّجِيبي

الشَّهير بالزَّقّاق

هو رأس هذه الأُسرة: أُسرة الزَّقّاق، التي توارث أبناؤها العلم وعُرِفوا به. وأبو الحسن هذا هو مقصود وارد في موضُوع هذه الدراسة. فهو من العلماء الأندلسيين ـ وقد استوطن غَرْناطة ـ الذين هاجروا من الأندلس خلال أحداث أيامها الأخيرة، التي قادت إلى سقوطها سنة (٨٩٧هـ). فابنه ـ وهو تلميذه ـ أبو العباس أحمد بن علي الزَّقّاق[١]، أحد أعلام هذه الأُسرة. وكذلك حفيده أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن أبي الحسن بن علي بن قاسم بن محمد التُّجيبي الزَّقّاق (فاس سنة ٩٦١هـ)[٢]، الذي أخذ العلم عن عمه أبي العباس أحمد بن علي بن قاسم المذكور.

وربما منهم من أهل العلم قبل الأب وبعد الحفيد. وممكن أن يكون منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزقاق التُّجِيبي (فاس، سنة ٩٦٨هـ)[٣]. فلم يمكن التعرف على انتساب صلته بهذه الأُسرة الزَّقّاقية، وابن مَن يكون منهم. والاسم ـ بلقبه ونسبه ـ يجعل الاحتمال قويًّا بأنّه من هذه الأُسرة. ولعل مصادر أخرى ليست متوفرة لديّ الآن تحدد ذلك وتؤكده.

(١) درة الحجال، ١/ ٩٣. نيل الابتهاج، ٩١. جذوة الاقتباس، ١/ ١٣٣.

(٢) نيل الابتهاج، ١٨٣، ٢١١. درة الحجال، ٣/ ١٥٠.

(٣) درة الحجال، ٢/ ٢١٢.

قائمة نَسب الأُسرة

أَبُو الحَسَن علي بن قاسم التُّجِيبي الزَّقّاق

(٩١٢هـ)

أبوالعباس أحمد بن علي التُّجِيبي الزَّقّاق

(٩٣٢هـ)

محمد

أبو محمد عبد الوهاب التُّجِيبي

الزَّقّاق (٩٦١هـ)

وقد وُصف الأب أبو الحسن بالفقيه خطيب جامع الأندلس بفاس[١]، وكان من علمائها المعدودين[٢].

والظاهر أنّ أصله من فاس، بها ولد ونشأ وتفقه، ولقد وُصف بأوصاف العلم الكريمة[٣]، ثم رحل عنها إِلى غَرْناطة، فتعلَّم وعَلَّم وتولى الخَطَابة فيها[٤]، واستقر فيها وغَدا مِن أَهلها.

---

(١) درة الحجال، ٣ / ٢٥٢ .

(٢) الأعلام، ٤ / ٣٢٠ .

(٣) نيل الابتهاج، ٢١١ .

(٤) نهاية الأندلس، ٤٩١ .

وفي غَرْناطة أخذ العلم عن شيوخٍ جِلَّة، منهم محمد بن يوسف المَوَّاق (شعبان سنة ٨٩٧هـ)، عالم غَرْناطة[1]، الذي لم يهاجر من الأندلس وبقي فيها يؤدي واجبه ويحمي أهل ملته[2].

وعندما سقطت غَرْناطة سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) هاجرها أبو الحسن الزَّقّاق[3] عائداً إلى فاس ـ تاركاً إياها لمصيرها النَّكِد ومشكلاتها المتراكمة وأحداثها المؤلمة ـ في تاريخ مجهول. لكنه من المحتمل أَنَّ هجرته تمت بعد سقوطها وفي سنة ٨٩٧هـ نفسها وبقي في فاس حتى وفاته سنة ٩١٢هـ (١٥٠٦م).

وكان الواجب البقاء في الأندلس مع أهلها والوفاء بالتزاماته نحو ذلك المجتمع، الذي هو أحوج إليه من الآخرين.

* * *

الخُلاصة

أَبُو الحَسَن الزَّقّاق

مولده: في فاس ـ بها نشأ وتعلَّم ـ في تاريخ مجهول، ثم توجه إلى غَرْناطة واستوطنها.

هجرته: من الأندلس إلى فاس سنة (٨٩٧هـ).

وفاته: في فاس سنة (٩١٢هـ).

---

(١) نيل الابتهاج، ٢١١، ٣٢٤ .

(٢) أعلاه، ١٩٥ .

(٣) نهاية الأندلس، ٤٩١ .

٩ . أَبُو العَبَّاس البَقَنِّي

وهذا أيضاً من أُسرةِ علمٍ معروفة، ظهر منها كثير من الأعلام. فمن خلال المتابعة وُجد اثنان آخران أو ثلاثة من هذه الأُسرة، كما يبدو من لقبهم: البَقَنِّي. والظاهر أنّها أُسرة غَرْناطية، كما يبدو من لقب أحدهم وهو الآتي:

١ ـ أبو الفرج عبد الله ابن الفقيه أبي جعفر أحمد البَقَنِّي الغَرْناطي[١]، من علمائها وأحد المفتين فيها. وهو أحد شيوخ ابن الأزرق الأَصْبَحي (يوم الجمعة، ١٧ ذي الحجة سنة ٨٩٦هـ)[٢]، ومن شيوخ سَماع أبي الحسن علي بن داود[٣] (يوم الاثنين ٥ رجب سنة ٨٩٨هـ)، ومن شيوخ أبي عبد الله محمد الجِعْدالَّة[٤] (شعبان سنة ٨٩٧هـ).

٢ ـ الفقيه أبو جعفر أحمد البَقَنِّي، أبو السابق[٥].

٣ ـ كذلك ورد اسم أبي جعفر محمد البقني، أحد العلماء الأعلام الخمسة عشر الذين رفضوا نبذ بيعة أبي الحسن علي بن سعد لابنه أبي عبد الله الصغير[٦] سنة (٨٨٨هـ). فهل هناك وَهْمٌ أو خَلْطٌ في هذا الاسم والذي قبله أم هما شخصان مستقلان؟

والمَعْنِيُّ هنا هو أبو العباس البَقَنِّي، ليس أحد هؤلاء، بل المقصود شخص آخر غيرهم، ليس هو من بينهم، على ما يبدو. وللأسف لم أتعرف على اسم أبي العباس البَقَنِّي الكامل،

---

(١) نيل الابتهاج، ١٥٩، ٣٢٤.

(٢) الضوء اللامع، ٩/ ٢١. أزهار الرياض، ٣/ ٣١٧. نفح الطيب، ٢/ ٦٩٩.

(٣) ثبت البلوي، ١٩٠.

(٤) ثبت البلوي، ٢٠٢.

(٥) ثبت البلوي، ٢٠٢.

(٦) المعيار المعرب، ١١/ ١٤٩.

أو حتى على الجزء الأول منه، بينما هو الذي يدور عنه الموضوع. وهو من العلماء المهاجرين من الأندلس في فترة السقوط: سقوط غَرْناطة، وخلال أحداث ذلك، وهي شديدة مبيدة.

وأبو العباس البَقَنّي هذا هو الذي يورد المَقَّري حكايته في "أزهاره" حيث يقول: " وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تِلِمْسان ... وممن خرج بفاس من العلماء الفقيه أبو العباس البَقَنّي، ثم رجع إلى غَرْناطة، وقضيته معروفة "[1]. ولم أجد في غير" أزهار" المقري أي شيء عنه. لكن يُذكر أنّ لأبي العباس البَقَنّي مختصر كتاب" الإحاطة" لابن الخطيب[2]. علماً أنّ هناك مختصراً آخر للإحاطة[3].

فالمَقَّري يقول: " إنّ قضيته معروفة". وهذا يعني أنّ قصة أبي العباس البَقَنّي مشتهرة شهرةً جعلت المَقَّري لا يوردها. فلعلها كانت متداولة لدى الناس في فاس، أيام كان نزيلَها، حيث أقام المَقَّري فيها نحو خمسة عشر عاماً حتى سنة (١٠٢٧هـ). ومع ذلك لم أجد أي مزيد عن أبي العباس البَقَنّي ولا عن قصته التي كانت معروفة جدًّا في زمنه، بل وبعده لسنوات، حيث إنّ البَقَنّي بعد وصوله فاساً سالماً، عاد إلى الأندلس ثانية. ولعل قصة البَقَنّي من النوع الغريب أو الشديد المثير، إلى حد جعل لها هذه الشهرة، وكانت من النوع الذي

---

(١) أزهار الرياض، ١/ ٧١-٧٢.

(٢) رحلة القلصادي، مقدمة المحقق، ٢٩.

قلت هذا - فيما مضى - اعتمادا على ما أورده محقق كتاب: " رحلة القلصادي"، في مقدمته لها. ولم يكن - وقتها - لديَّ الجزء الرابع من كتاب: " الإحاطة في أخبار غرناطة " ولا كتاب: " ريحانة الكُتّاب ونجعة المنتاب"، المتوفر فيهما صحة هذا الأمر، وكلاهما لابن الخطيب. ثمّ بها - لا سيما " الإحاطة" - تبيّن أنّ " مختصر الإحاطة " ليس لأبي العباس البقنّي المذكور تواً أعلاه، وعلى الأغلب هو من أفراد أسرته، وإنّما هو للفقيه: أبو جعفر أحمد البقنّي. وورد اسمه: العلاّمة أبو جعفر أحمد بن عبد الله البقنّي الأنصاري. انظر: الإحاطة، ٤/ ٤٣٤، ٤٣٦. ريحانة الكتاب، ٢/ ٤٥١. ولعلّ لأبي جعفر هذا كتباً أخرى وربما هو صاحب كتاب: " العدة في شرح البردة ". أي بردة البوصيري.

(٣) نفح الطيب، ٦/ ٨٨، ٧/ ١٠٢. وهو باسم: " مركز الإحاطة بأُدباء غرناطة ".

يستثير الاهتمام والتداول والتناقل والتفاعل. واحتمال أن تكون قصته مهمة أو عظيمة أو تحتوي في طياتها على مأساة دموية، ظلت الأقوام تتناقلها وترويها وتحكيها في مجالسها، حتى بعد إقامة المقري في فاس، أي: بقيت في الناس حية مذكورة مشهورة زهاء قرن ونصف أو زيادة. وقد لا تخلو من يقظة فائقة وبطولة رائعة ومواقف باسقة، حملت إعجاباً ورثاءً ودعاءً.

فمن الممكن أن يكون أبو العباس البَقَنِّي ـ ربما وأُسرته ـ هاجر من الأندلس قبل السقوط، حيث إنّ الذين يَذْكُرهم المَقّرِي في نصه السابق[1] لم يخرجوا كلهم دفعة واحدة، كما تبين من عرض أحداث وقصة ووقائع هجرة كل منهم. كما أنّهم لم يتجهوا جميعاً إلى جهة واحدة، ولم تتم هجرتهم باتفاق منهم جميعاً، فاتجه أبو العباس البَقَنِّي إلى فاس. ولا ندري اشتهار قصته: مما جرى له في فاس، أو ما لقي في الطريق، أو ما وقع له عند عودته إلى غَرْناطة. وهذا أيضاً يشير إلى مكانته من ناحية وغرابة قصته التي أدت إلى اشتهار قضيته.

والظاهر أنّ هجرته كانت في سنة السقوط: سقوط غَرْناطة (٨٩٧هـ) ـ وهو الأغلب ـ أو التي بعدها، وحل بفاس. ولعله لقي عَنَتاً أو أصابه تشتت ـ من أي نوع ـ أو داخله الندم، فعاد إلى الأندلس، ليقوم بواجبه بعدما أدركه ـ لرحيله عنها ـ اللوم الشديد والمحاسبة الذاتية النفسية، لا سيما لمثل أهل العلم المعروفين برهافتهم، فعاد إليها. وربما لم يجد مجالاً في الأندلس فلحقته ولاحقته يد الاضطهاد ومحاكم التفتيش وثِقْلُها الذي لا يقاوم بتلك الأحوال والوسائل. ولعله كان أمراً يخص أسرته، أو اجتمعت عليه كل تلك الأمور. ولكن على كل حال يبدو لي أنّ الأمر يخص محاكم التفتيش والوضع الجديد في الأندلس بعد سقوط غرناطة. كما يبدو أنّه كان مشهوراً ومعروفاً بعلمه ومواقفه ونوعيته في المجتمع الأندلسي، إلى درجة جعلت المقري لا يذكر حتى اسمه الكامل، كما يفعل عادة. وشهرة

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي، ٥٥٨ .

قضيته زادتها شهرتُه هو أيضاً. فغرابة قصته مجتمعة مع مكانته وشهرته وقوة موقفه جعلت قضيته معروفة مشتهرة مألوفة. ومجمل ذلك كله:

أنّ أبا العباس البَقَنّي الأندلسي الغَرْناطي أحد العلماء الذين هاجروا من الأندلس إلى فاس - ربما مع أُسرته - لكنه عاد إلى الأندلس. ورغم إشارة المَقَّري أنّ" قضيته معروفة" فلم أتعرف عليها ولا على اسمه ولا على ملابسات قضيته.

فلا أعلم كم بقي بفاس ثم عاد إلى الأندلس، لكنه لا يبدو أنّه مكث فيها طويلاً. فالمقري(١٠٤١هـ) أدرك قصة البقني حين عاش في فاس - لمدة خمسة عشر عاماً حتى ١٠٢٧هـ - وسمع عنها. لعلها كانت من القوة والشيوع والذيوع جعلتها شائعة معروفة مشهورة، حتى هذا التاريخ وربما بعده، بأي عدد من السنين أو عقودها. ويا ليت كان المقري قد رواها لنا، إذاً لحُفظت وعُرِفت. ولم أجد في غير المقري حتى أي ذكر عنها، بل ولا عنه. ولعل يوماً يأتي نجدها في وثيقة من الوثائق المذخورة اليوم، أو المدفونة في خزائن الكتب، وليست مذكورة عند أحد من الدارسين والباحثين والمؤلفين.

* * *

الخُلاَصة

أَبُو العَبَّاس البَقَنِّي

مولده : في غَرْناطة في تاريخ مجهول.

هجرته: من الأندلس إلى فاس في تاريخ مجهول، ربما بعد الاستيلاء على غَرْناطة في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ(٢ / ١ / ١٤٩٢)، أو بعده بمدة، قلَّت أو كثرت، ولكنه عاد إلى الأندلس - غَرْناطة - في تاريخ مجهول، في السنة نفسها.

وفاته: في غَرْناطة في تاريخ مجهول.

* * *

١٠. أَبُو العَبَّاس الدَّقُّون

أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف الصِّنْهاجي الشهير بالدَّقُّون. (فاس، مَهَلّ شعبان، سنة ٩٢١هـ = ١٥١٥م).

لم أجد معلومات واضحة عن أبي العباس الدّقُّون[١] مما يخصه فيما يتعلق بموضوع " هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غَرْناطة، ظروفها وآثارها "، أي بهجرته من الأندلس إلى فاس، عدا إشارات عارضة عن هجرته من الأندلس، لا عن كيفيتها وزمنها ومَعِيَّتها، غير شذرات.

وحسب المصادر التي توفّرت لديّ، أتلمس أندلسيتَه بصعوبة، وذلك من خلال تلمذته على الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم الشهير بالمَوّاق الأندلسي الغَرْناطي (شعبان ٨٩٧هـ)[٢]. كذلك ومن خلال قصيدة الدّقُّون نفسه - في نَدْب الجزيرة الأندلسية - التي يوردها المقري في " أزهاره "[٣]، وحيث يصفه المقري بالأندلسي، فهو إذاً أندلسي، رحل إلى فاس وأقام بها حتى وفاته (٩٢١هـ).

ولقد وُصف أبو العباس الدّقُّون بأوصاف علمية وفقهية وأدبية: "الخطيب الأُستاذ المحدِّث الراوية ... وكان أديباً نحويًّا فاضلاً"[٤]، كما حَلاّه أحمد بابا التُّنْبُكْتي في " نَيْله " بـ" الفقيه الأستاذ الراوية الشاعر الخطيب بجامع القَرويين بفاس"[٥]. فلا بد أنّ له مشايخَ أو أساتذة أخذ عنهم في الأندلس والمغرب، مثلما له تلاميذ فيهما، عادة معروفة وسنة جارية

---

(١) درة الحجال، ١/ ٩٢ . نيل الابتهاج، ٨٨ . جذوة الاقتباس، ١/ ١٣٣ . الأعلام، ١/ ٢٣٢ .

(٢) نيل الابتهاج، ٨٨، ٣٢٤ . درة الحجال، ١/ ٩٢، ٢/ ١٤١ . انظر: الكشاف العام.

(٣) أزهار الرياض، ١/ ١٠٤-١٠٨ .

(٤) درة الحجال، ١/ ٩٢ .

(٥) نيل الابتهاج، ٨٨ .

وسمتاً كريماً.

أخذ الدّقُّون عن العديد من العلماء في الأندلس بغرناطة، منهم الإمام المَوّاق الذي روى الدقون فهرسته[1]، وأخذ عن العلاّمة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي ثم الفاسي[2] (٩١٩هـ) في فاس[3].

ولا بد أنّ للدّقُّون تلاميذ، ومن تلامذته في فاس محمد بن أحمد بن بوجمعة المَغْراوي(٩٣٠هـ) المعروف بشَقْرون[4]، الذي أَلَّف جزءاً لطيفاً جمع شقرون فيه ما رواه عن شيخه الدقون وإِجازته له. فالدّقُّون إذاً أندلسي غرناطي، ولد ونشأ في غَرْناطة، وأخذ العلم عن مشايخها ثم رحل من غَرْناطة مهاجراً من الأندلس إلى فاس، في تاريخ لم أتبينه. واستقر في فاس وعُرِف بعلمه حتى عُدّ من علمائها، وتولى الخَطابة في جامع القَرويين فيها. ويُذكر أنه هاجر من الأندلس إلى فاس مع أبيه[5].

والظاهر أنّ هجرته كانت بعد سقوط غَرْناطة(٨٩٧هـ)، ومحتمل أن يكون ذلك وهو في سن الكهولة. وهو ما تُرَجِّحُه القصيدةُ ومقدمتُها، التي نظمها وكتبها أبو العباس الدقون والتي نقلها المقري كلها مع المقدمة في" أزهار الرياض"[6]، ولم أجدها في مصدر آخر.

والظاهر أنّ الدّقُّون قالها بعد هجرته من الأندلس، وقد شاهد سقوطها ودخولَ العدو فيها وأَخْذَها من المسلمين. وفيها يحث أهل فاس ويندبهم لها وللمهاجرين منها إليها

---

(١) نيل الابتهاج، ٨٨.

(٢) ثبت البلوي، ٤٥٠، ٤٥٤ وبعدها. درة الحجال، ٢/١٤٧. نيل الابتهاج، ٣٣٣.

(٣) نيل الابتهاج، ٣٣٣.

(٤) درة الحجال، ١/٩٣، ٢/١٥١.

(٥) الأعلام، ١/٢٣٢.

(٦) أزهار الرياض، ١/١٠٣-١٠٨.

ويشرح لهم ما جرى. ويذكر بعض أحداث السقوط وتاريخها. ويقول في تقديمها، كما يبين ذلك المقري في "أزهاره"، ما يُوَثِّق أندلسيتَه ويوضح مشاهدته للأحداث، بل وربما مشاركته في ذلك: " ومن نظم الشيخ الفقيه الأُستاذ المُقْرِيء الخطيب الفذّ الأوحد سيدي أبي العباس أحمد الدَقُّون رحمه الله قصيدة في نَدْب الجزيرة تُذَكِّر النفوسَ بشجوها فترسل العيونُ دموعَها الغزيرة، افتَتَحَها بنثر نصه:

"الحمد لله على كل حال والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله خير آل؛ أما بعد، فيقول خديم أهل الله تعالى عُبيد الله أحمد بن محمد الأندلسي، الشهير بالدقون، لطف الله به بمنه كرمه:

"إنه لَمّا غابت شمس الجزيرة الخضراء بأخذ الحمراء قَرَعْتُ باب النُّدْبة لِمَا تقدم من الصحبة فقلت أبياتاً صَدَرَتْ من قلب كئيب مُبْكيةً كل لبيب أريب، وسميتها بالموعظة الغراء بأخذ الحمراء، مبيحاً لمن رغب فيها ولم يرغب عنها أو استحسن شيئاً منها أن يحدِّث بها عنِّي، وذلك بعد إتقان لفظها وحفظها وفهم وعظها ولحظها وإن كنتُ لا أُحْسِن أن أقول وربما أُعْزَى بها إلي الفُضُول، لكنِّي لا أُعْدَم المثيل"[1].

ثم يورد المقري القصيدة. والقصيدة نفسها تشير بوضوح وتأكيد وجزم أنّه هاجر إلى فاس بعد أحداث السقوط واستيلاء العدو الصليبي عليها، وأكثر من ذلك تصريحاً وتوضيحاً وتأكيداً وتحديداً. وعلى ذلك فالقصيدة مع مقدمتها متعددة الفوائد ومُسَجِّلة لجمع من الوقائع وتضم قضايا الدقون نفسه، وتعتبر وثيقة لا للتعرف على هجرته وتاريخها وحسب، بل وتُلْقي ضوءاً على الأحداث كذلك، لأنها تَحكي وقائع صادقة وتروي تلك المآسي الدامية والاعتداءآت الباغية والمكائد الداهية. ومن الممكن أن تضاف إلى ما يُعرف بقصائد رثاء المدن، التي عَرَفها الأندلسيون، وإليك بعض أبياتها:

---

(١) أزهار الرياض، ١/١٠٣-١٠٤-١٠٨ .

أَمِنْتَ مِن عكْسِ آمالٍ وأحوالِ وعشْتَ ما بين أعمامٍ وأخوالِ

ولا ابتُليتَ بما في القلبِ من نكدٍ فالجسمُ مشتغل من غير أشغالِ

وكيف لا وبِقَاعُ الدّين خاليةٌ من أرض أندلسٍ من أجْل أهوالِ

عمَّت فغَمَّت قلوبُ المسلمين فيا للمسلمين مِن اعداءٍ وأَنكالِ

جاشت بها من جيوش الكفر ما دَرَسَتْ بهم معالمُ أخيارٍ وأقيالِ

أهلُ الشجاعة أهلُ العلم أهلُ تقىً أهلُ النَّفَاسةِ في قولٍ وأفعالِ

عنهم وفيهم أحاديثُ النبيّ بدتْ وهم معاقلُ قولِ الله للتالي

رُهبانُ ليلٍ وفُرسانُ النّهارِ فَمَنْ يُلْمِمْ بساحتهم يظفرْ بآمالِ

لا عيبَ فيهم سوى أنّ المضافَ لهم يسلو عَن اهلٍ وأوطانٍ وأموالِ

فهل ترى بعد هذا النفسُ سَائِلةٌ وكيف تسأل عن وصفٍ وعن حالِ

تالله لَمَّا يَزَلْ في القلبِ مِن أسفٍ ولو أكونُ حليفَ المنزل الخالي

أو يفتحَ اللهُ في نصرٍ يَمُنُّ به فالله باقٍ يَقِي مِن كل مُحْتالِ

قد رام إطفاءَ نورِ الله مجتهداً وباذلاً كلَّ ما قد حَاز من مالِ

سَطَا بجيشٍ كموج البحر في عُدَدٍ نَعم وفي عَدَدٍ من رَهْطِ أبطالِ

مُؤَيَّداً باجتماع المِصرَ يتبعه شرُّ الخلائق مسروراً بإقبالِ

يَسْبي المسامعَ بالأنفاض مُشْبِهةً وقْعَ الصّواعق في هدٍّ وزلزالِ

يَبْني ليهدمَ ما الإسلامُ شَيَّدَه والوصف يُعْجِزُ مَن يُدْعى بِقَلْقَالَ

فـهـو المُقـاتِـلُ فـي الأبـراج مُنْتَـقِـلٌ	إلْفَ النُّحـوسِ وتغـيـيـرٍ وتَرْحـالِ
فاسـتـوطن المَرْجَ لا يَنْوي الرّحـيلَ ولا	يَخْشَى المُغِـيـثَ بسَـهْلٍ أو بأجـبـالِ
والمسلمـون من الأَضـغـان قـد مُلِئَتْ	قُلُوبُـهُـمْ وأَبَـوْا تَـسْـديـد أخـلالِ
سَـدُّوا مـسـالـك أرزاقٍ ومنـفـعـةٍ	كـدُودة القـزِّ فـي نَسْجٍ لسِـرْبـالِ
ثم اسـتـغـاثـوا: ألاَ فُـرسـانُ عـاديـةٌ	قـال الصّـدى: لستَ ذَا رمح ونَبَّـالِ
والصـيـفَ ضـيـعـتَ مـا أمَّلتَ من لَبنٍ	فـفـارِقِ الجَـبْـحَ مِن تدخـيـن نَحّـال
وارحَـل بنحْلك نحـو الغَـرْب في كـرمٍ	مِن قـبـلِ وضْـعـكَ في قَـيْـدٍ وأغْـلالِ
فاستمكـنَ الرُّعبُ في الأكـبـاد واتَّفَقَتْ	بعـد اخـتـلافٍ علـى تأمـيـن أرذالِ
واحـتـلَّ غَـرْناطـةَ الغـرّاءَ قـد عَـدِمت	حَبَّ الحـصـيـد ونـصـرَ الله والآلِ
كأنها الشـمسُ في أُفْقِ العُلـى كُسِفتْ	فـهـل علـى طَلَلٍ ترمـي بأبطـالِ
وهـل تعـود ليـالٍ قـد سَلَفْنَ بهـا	ونحن لا نشـتـكـي تنكيـدَ ضُـلاّلِ
فـلا المسـاجـدُ بالتـوحـيـد عـامـرةٌ	إذ عَـمَّـروهـا بنـاقـوسٍ وتِمـثـالِ
ولا المنـابـرُ للـوعّـاظ بـارزةٌ	للأَمْـر والنّهْـي أَو تذكـيـر آجـالِ
ولا المكـاتـب بالصِّـبـيـان آنسـةٌ	تتـلو القُـرآن بأَسْـحَـار وآصـالِ
فلنُكْـرِمْ الآن مَـنْ يَنْـزِلْ بمنزلـنـا	فـالدّهـرُ ذو دُوَلٍ فـاسْـمَـع لأمـثـالِ
إخـوانـكم رفَـعُوا أيدي الضـراعَـةِ مَعْ	كَـسْـر القُلُـوب فـلا يُلْقَـوْا بإخـمـالِ
يا أهـل فـاسَ أمـا في الغـيـر مـوعظَـةٌ	إنَّ السَّـعـيـد لَمـوعُـوظٌ بأَمـثـالِ

كيف الحَيَاةُ إذِ الحَيَّاتُ قد نفَحَت	على السواحل أم هَمَّت بإرسالِ
ولا سبيل إلى التِّرياق غيرُ تُقىً	والحزم في سَعَةٍ من قبل إعجالِ
والأخذُ بالجِدِّ في جَمْع القُلُوب على	بذل النّصيحة أو إبداء أَدْخالِ
والزُّهد في هذه الدنيا وزُخرفها	والأمر بالعرف معْ تحسين مِقْوالِ
فمن يَبِتْ في أمان الكلب منتصباً	لسُخطِ مَوْلىً ولاَ عذرٌ بأثقالِ
والهِجرة الآن قد عادت كما سبقتْ	فافْهَم تفاصيلَ أقوالٍ وإجمال
واحتلْ بذهنك ولْتَسْمَعْ نصائحَ مَنْ	قد طَبّ مَنْ حَبّ لَمْ يُوصَفْ بمُحتالِ
في صدر سبعٍ على التسعين زائدة	شمسُ الجزيرة غابت بعد إكمالِ
ليقضيَ الله أمراً كان قَدَّره	والأمرُ لله في قولٍ وأفعالِ
وقد وعظتُ ولو أسمعتُ لانتشرتْ	سحائبُ الدّمع لم تُقْلِع عنِ انزالِ
فليشتغل كُلُّ مسكين بمهجته	والله يحفظنا من كل مِهْوال
ثم الصَّلاة على المُختَار سيدنا	مُحَمَّد والرِّضا عن آل أوْ تَالي

والقصيدة أطول من ذلك، فهي ستة وستون بيتاً نقلتُ منها ما هو ألصق بالأحداث وتواريخها وعن مشاهدته في موضوع السقوط، وكذلك مقدمتها التي يؤكد أبو العباس الدَّقُّون هو نفسه أندلسيته بوصف نفسه بالأندلسي. فإذاً يكون أبو العباس الدَّقُّون قد هاجر الأندلس بعد أن شاهد أحداث السقوط، سقوط الأندلس واستسلام غَرْناطة، التي لم تذهب بعد قتال ولا عن عجز عنه ولا عن خوف منه. ولكن ضاعت وضُيِّعت وذهبت واستسلمت بتهاون حكامها وتفرّق من أهلها وتخريب العدو لمزارعها، خلال حصاره الطويل لها الذي

زاد عن سبعة أشهر. كل ذلك بروح صليبية تبنت سياسة التخريب والتدمير والتنكيل الذي لا حدود له، بلا أدنى مُثُل أو دين أو فطرة. وكان هناك استعداد للقتال لو حَزَم الحاكم أمره لوجد من يذود عنها ويذوب لها ويقف سداً منيعاً لحمايتها وقوة لرد عدو الدين وحجبه دونها.

فلو أنها ذهبت بعد ذلك قتالاً وفداءً واستشهاداً ـ كما جرى للعديد من المدن الأندلسية قبلها ـ لكان أفضل وأجدى وأبقى. ولكن غَلَب على الحاكم وحاشيته وبطانته الوهنُ، الذي هو حُبُّ الدنيا وكراهية الموت[1]. فحملهم ذلك على التفريط في واجبهم نحو بلدهم وأهليهم ودينهم وحقوقه عليهم، لكنهم أضاعوها بالإفراط في أنانيتهم ومصالحهم ودنياهم، مشبوهة مذلولة رخيصة، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك وأبعد منه، إلى الحد الذي سبق شرحه[2] من التخلي والتدني والتولي، بعد ذلك الصنيع الشنيع الفظيع؛ التواطؤ مع العدو البغيض الذي لا يَرضى بغير الإدالة والإزالة والإبادة المدمرة لكل مَن وما هو مسلم.

جرى كل هذا، بينما كان السلف يُنصرون بالرُّعب شهراً، وهم في قلّة من العَدَد والعُدَد، ذلك يوم كان الجهاد في سبيل الله عندهم ذِروة سَنام الإسلام. والأجيال دوماً بحاجة لذلك، أما اليوم فقد ذهبت هذه لتحل بدلها تلك. فاستبدلوا: ﴿الذي هُوَ أَدْنَى بِالذي هُوَ خَيْرٌ﴾[3]. علماً أنّ الأندلس لم تخل من راية جهاد.

---

(١) من حديث شريف أخرجه أحمد (المسند ٥ /٢٧٨)، وأبو داود (السنن ٤ / ٤٨٣ ـ ٤٨٤، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام. كذلك: جامع الأصول ١٠ /٢٨ . وتمامه: " يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوَهَنَ، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت ".

(٢) نهاية الأندلس، ٢٥٠ ـ ٢٨٠ .

(٣) سورة البقرة، ٦١ .

إذاً هؤلاء الأمراء - أمثال أبي عبد الله الصغير - ماذا ينتظرون إلاّ سنن الله تعالى الغالبة المحكمة الحتمية التي لا تتخلّف: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[1]. والشواهد ماثلة خلال حوادث التاريخ بقرونه المتلاحقة الشاملة المتطاولة. وهو ما كان معلوماً مقدماً، وواضحاً حتى للأَعْمَى والأَصَمّ والأَحْمَق، بل هم: ﴿ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[2].

* * *

الخُلَاصة

أَبُو العَبَّاس الدَّقُّون

مولده : في غَرْناطة، في تاريخ مجهول.

هجرته: من الأندلس إلى فاس، بعد الاستيلاء على غَرْناطة وحمرائها سنة (٨٩٧هـ).

وفاته : في فاس سنة (٩٢١هـ).

---

(١) سورة فاطر، ٤٣ .

(٢) سورة الفرقان، ٣٤ .

١١. أَبُو الحَسَن البَيّاضي

أَبُو الحَسَن علي البَيّاضي (٩١٢هـ)

أبو الحسن علي بن (أبو) القاسم بن علي بن محمد بن أحمد البَيّاضي الأنصاري الأندلسي. والمعروفون من أُسرة البياضي هذه ثلاثة:

الابن: المذكور أعلاه، والحديث يدور حوله وله[١].

أخوه: محمد بن أبي القاسم بن علي بن محمد بن أحمد البياضي.

الأب: أبو القاسم بن علي بن محمد بن أحمد البياضي.

لكن الحديث هنا يدور عن أولهم: أبو الحسن، والأخبار التي توفرت لدي - رغم قلتها - تدور حوله.

يُذكر أن أبا الحسن البياضي من أهل مدينة بَلِّش مالَقة VELEZ MALAGA الحصن الشرقي لمدينة مالَقة MALAGA [٢]. لم أتعرف تاريخ مولده، لكنه حصل على إجازة أبي عبد الله المُجَاري، رواية بَرنامَجه - له ولأخيه ولأبيه، وحَمْلهم له عنه - في رجب (٨٥٨هـ)[٣]. فربما تكون ولادة أبي الحسن البياضي في العقد الثالث من القرن التاسع الهجري. ولا بد أنه تلقى العلم في بلده، ثم رحل إلى حضرة غَرْناطة، شأن أهل العلم المشتغلين به والقائمين عليه. يدل على ذلك تلمذة البياضي لمشايخه، منهم: أبو عبد الله محمد المُجَاري الأندلسي، المتوفى يوم الأحد (٢ جمادى الآخرة سنة ٨٦٢هـ)[٤]، الذي

---

(١) درة الحجال، ٣/ ٢١٢.

(٢) برنامج المُجَاري، ٤١، ٧٣.

(٣) برنامج المُجَاري، ٤١، ٨١.

(٤) ثبت البلوي، ٢٠١.

يُحلّيه أبو الحسن البياضي نفسُه حين يسأل أستاذه المُجَاري إجازة بَرنامَجه " فإنني سألت الشيخ الفقيه الإمام القُدْوة الأُستاذ المتفنن المقريء الصادر عنه في تلاوة كتاب الله العزيز من الإتقان والحفظ وتحقيق المخارج وتجويد اللفظ ما صَيَّرَه عَلَم أعلام القراء وأحق أهل زمانه بالتصدي والتصدر للإقراء الحاج الرحال المسنِد الجليل أبا عبد الله محمد بن محمد بن علي المُجَاري رضي الله عنه وأرضاه وسلك بي وبه بَلَّ هدايته ورضاه "(١).

كما يُحَلّيه الجِعْدالَّة (غَزَّة: شعبان سنة ٨٩٧هـ) ـ تلميذ آخر للمُجَاري ـ بقوله: " الشيخ الإمام المقرئ الحاج الرحال الأُستاذ المتفنن الراوية خاتمة الرواة بالأندلس أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الوزير أبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الواحد المُجَاري رحمه الله، له البرنامج الحافل المشتمل على أزيد من ثلاثين شيخاً "(٢).

كذلك من شيوخ البياضي: أبو الحسن علي القَلْصادي (٨٩١هـ)(٣)، الذي أجاز تلميذَه أبي الحسن البياضي (أواسط صفر سنة ٨٨٥هـ)(٤). والظاهر أن البياضي كان مهتمًّا بالنسخ عموماً، ولشيوخه خصوصاً، ولا سيما برامج العلماء والشيوخ وطلب إجازة برامجهم له ـ ولأُسرته ـ منهم.

وفي ظروف وتواريخ ومعية مجهولة، ترك البياضي الأندلس مهاجراً إلى المغرب، لعله بعد سقوط غَرْناطة، مستوطناً مِكناسة الزيتون، مستقرًّا ومقيماً فيها وجالساً مجلس العلماء في حلقاتهم حتى أصبح الخطيب في مسجدها الجامع. ولا بد أنه تولى التدريس والإقراء والإفتاء، حتى وفاته فيها سنة (٩١٢هـ).

---

(١) برنامج المجَاري، ٨٢ .

(٢) ثبت البلوي، ١٩٩ .

(٣) رحلة القلصادي، ٣٨ .

(٤) عن القلصادي راجع: أعلاه، ١٢٢وبعدها .



الخُلَاصة

أَبُو الحَسَن البَيَّاضي

مولده: في مدينة بَلِّش مالَقة في نحو العقد الثالث من القرن التاسع الهجري.

هجرته: من الأندلس إلى مِكناسة الزيتون بالمغرب، بعد سقوط غَرْناطة سنة (٨٩٧هـ) بتاريخ قريب من ذلك أو بعيده.

وفاته: في مِكناسة الزيتون سنة (٩١٢هـ).

* * *

١٢. أَبُو عَبد اللَّه العُقَيْلي

أَبُو عَبد اللَّه مُحَمَّد بن عَبد اللَّه العَربي العُقَيْلي

هو الفقيه الأديب المعروف بالشريف العُقَيْلي، الكاتب المُجيد البارع البليغ(١). ولقد وصفه أبو عبد الله بن الحداد الوادي آشي المؤرخ بقوله: "إنه إمام الصناعة وفارس حلبة القِرطاس واليراعة وواسطة عِقْد البلاغة والبراعة، الذي قطف الكمال لَمّا نوّر ورتّب محاسن البديع في درر فِقَره وطوّر، وغَرَف من بحرٍ عَجَّاج واقتطف من خاطر وَهّاج"(٢). كما وصفه بأنه شاعر العصر ومالك زِمَامَيْ النظم والنثر والفقيه العالم المُتْقِن المُتَفَنن العارف الأوحد النبيه النبيل(٣). وقَدَّم ابن الحداد الوادي آشي له قطعاً شعرية متفاوتة، يوردها المقري

---

(١) نفح الطيب، ٤/ ٥٢٩.

(٢) نفح الطيب، ٤/ ٥٤٨-٥٤٩.

(٣) نفح الطيب، ٤/ ٥٤٩.

في "نفحه"[1]، منها أبيات قالها العقيلي لَمّا حاصر النصارى غَرْناطة[2]:

بالطّبلِ في كلِّ يَومٍ	وبالنّفيرِ نُراعُ
وليس من بعد هذا	وذاك إلاّ القِراعُ
يا ربّ جبرَكَ يرجو	مَنْ هِيضَ منه الذراعُ
لاَ تَسْلبَنّي صَبراً	منه لقلبي ادِّراعُ

ومثل هذه القابليات لو أنها خدمت قضية الأندلس وحثت الناس على التمسك بها والجهاد لأجلها، لعُدَّت محاسنَ أدبه وقلائدَ شعره ودررَ مجده، خَدَمَ بها مجتمعَه وحمى أهلَ مِلَّته ورعى حقَ بلده ووعى مسئوليتَه. لكن أدبه ـ شعراً ونثراً ـ كان يَصُبُّ في نهر آخر ويَسْقي شجراً مختلفاً ليعطي ثماراً بعيدة عن الموقع الذي كان عليه أن يقف فيه. وهذه التَّحْلِيات التي قُدِّمت للرجل تشير إلى مكانته الأدبية وجولاته القوية ونِتاجه الكثير في الأدب الذي لعله لم يصلنا منه إلا القليل، وإلا فلماذا؟ لا سيما في هذه الظروف كان عليه وأولى به أن يسلك مسلك الشاعر الأندلسي عبد الكريم القيسي البَسطي[3].

وقد وصفه أبو جعفر أحمد بن داود البلوي الوادي آشي بالفقيه الخطيب الفاضل خاتمة الأدباء بالأندلس[4]. وأورد له المقري أبياتاً أخرى، كما يُورِد له أبياتاً أخرى فيها تورية تدل على باع عال في النظم، وهي:

جُزْ بالبساتين والريّاض فما	أَبهجَ مَرْئيَّها وأَجلاهُ

---

(١) نفح الطيب، ٤ / ٥٤٩ ـ ٥٥٣.

(٢) نفح الطيب، ٤ / ٥٥٠. فأين ومتى يكون القِراع، ولماذا تخليتَ عنه؟

(٣) أنظر: الكشاف العام.

(٤) أزهار الرياض، ١ / ١٠٣.

واعْـجَـبْ بهـا للنَّبـات ولْتَكُ في أَسـفـلِه نـاظـراً وأَعـلاهُ

وقـدِّسِ اللـهَ عنـد ذاك وقُـلْ سُـبحَـانهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُـو

وقد وصفه وحلاّه الوادي آشي بقوله: " بليغ العصر بل الدنيا ومالك زماميْ النظم والنثر بلا ثُنْيا، سيدي محمد العربي أَنْسَأَ اللهُ أجلَه وبلَّغه أمَلَه "[1].

ومعلوم من تاريخ الرجل ـ الذي سيتضح مما يأتي بيانه ـ أنه عاصر أحداث غَرْناطة واطلع على ماجرياتها (مُجرياتها)، بل وعَرَف خباياها، إذ كان كاتبَ ووزيرَ أبي عبد الله الصغير، آخر ملوك غَرْناطة. وهو الذي كتب الكتاب أو الرسالة الاعتذارية الطويلة ـ شعراً ونثراً، ووصلتنا كاملة ـ المعنونة: " الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس"[2]، عن لسان مخدومه أبي عبد الله الصغير إلى صاحب فاس الشيخ الوَطَّاسي محمد بن أبي زكريا يحيى بن زَيَّان الوَطَّاسي (٩١٠هـ). وهو أول ملوك الدولة الوطَّاسية وريثة بني مَرين في المغرب، وهم فرع منهم[3]. كتبها بعد وصولهم إلى فاس، نازحين أو هاربين أو مهاجرين من الأندلس إليها. ويورد المقري في كل من" أزهاره" و" نفحه" نص هذه الرسالة كاملة، يتقدم فيها أبو عبد الله الصغير معتذراً عما اقترفه في حق المسلمين في الأندلس، مبرراً إثمه وعاره وضعفه.

فيقول المَقَّري: " ولا بأس أن نورد كتاب السلطان أبي عبد الله بن الأحمر المخلوع المذكور الذي بعث به لصاحب فاس في ذلك العهد تمهيداً لعذره وتوطئة لمَقْصِده، وتطارحاً على تلك الأبواب وتملقاً وتمسكاً بذلك الجناب وتعلقاً. وهو في الغاية من الفصاحة والبلاغة، من إنشاء الفقيه الأديب الشاعر الناظم الناثر الكاتب المُجيد البارع البليغ أبي عبد الله محمد

---

(١) أزهار الرياض، ٣/٣١٠.

(٢) نهاية الأندلس، ٢٧٨.

(٣) أزهار الرياض، ٣/٣١٠. نفح الطيب، ٤/٥٢٩.

بن عبد الله العربي العقيلي رحمه الله. وسمّاه: بالروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس، ونصه بعد الافتتاح "[١]. ولا أعلم مصدراً أو أحداً آخر نقل هذه الرسالة غيرَ المَقَّري. وهي لا تخلو من الكلفة والصنعة، الموغلة أحياناً ـ في المعاني والكلمات ـ لعل من أسبابها هذا الالتصاقُ بديوان رسمي بليد، مدافعاً عن ذنب أكيد مبرراً عجزاً، بأسلوب غير سديد. الذي كما أضاع فيه جهده أضاع أدبه وبالتالي نفسه وأهله ومن معه. وبدلاً من أن يكون مثالاً كريماً يُحتذى، غدا يدفع عن نفسه ـ وعن مخدومه ـ اللوم والأذى. وأهم من كل ذلك كان عليه أن يحسب وقوفه بين يدي رب العالمين.

ولقد كان الأولى لهذه الشخصية الكبيرة ـ الشريف العقيلي ـ ذات المكانة الاجتماعية والعلمية الرفيعة المؤثرة، وذات الثِّقَل والموقع السياسي المرموق، أن ينصح مخدومه ويُقَوِّمه ـ وقد جرى الثناء عليه في صفاته وقابلياته وأدبه الجيد ـ منذ بدت بوادر الأحداث التي أدت إلى سقوط غَرْناطة، بل منذ تولي أبو عبد الله الصغير السلطة، أو حتى قبلها. فلا يُبَرِّر خُنُوعَه، إن لم تكن خيانته وأنانيته، لا أن يُجَبِّرَه ويبرره ويمرره. كما كان عليه أن يبقى ولا يرحل مع الملك الصغير، ويحاول أن يقنعه ويثنيه عن مسلكه، وكذلك عن رحيله، بعدما ارتكب الإثم والتخلي عن المهمة والتولي (يوم الزحف) في أشد الظروف وأثقل الأوقات، لا سيما بعد تنازله الذليل وحرصه على الرحيل، كان عليه أن لا يكون وليه.

ولكن الغريب أنه لم يكن له دور في المفاوضات. وهل كان له موقف ضدها، لكنه لم يستطع أن يوقفها؟ أو يتخذ موقفاً يواجهها، ويكون مع غيره في ذلك، وهم غير قليل. فهل حاول؟ ثم غير معلوم متى أصبح كاتباً ووزيراً لأبي عبد الله الصغير؟ وإن الذين خانوا وتآمروا وقامروا ـ من أهل الموقع مثله ـ بقوا في الأندلس!! فلماذا؟ من أمثال: القائد أبو القاسم ابن عبد الملك والوزير يوسف بن كُماشة. فهل خالفهم أو واجههم، وكانت الأمور

---

(١) أزهار الرياض، ١/ ٧٢ـ ١٠٢ . نفح الطيب، ٤/ ٥٢٩ـ ٥٤٨ .

تجري أمامه! وهل أنّ مخدومه لم يفوضه في ذلك شيئاً؟

ومهما يكن من أمر، كان المرجو منه أن يكون له من كل ذلك موقف، إن لم يستطع أن يَثني غيره عن التخلي. ما كان عليه ألاّ يتخلى فحسب، بل ويبقى كذلك في الميدان مثلما بقي آخرون. والأمة كلها بحاجة لهذا. ولو جرى التعاون في أي وقت وقضية، ما كان يجري في مثلها. إن كل ذلك لم يحدث، لكن الذي حدث أن عَبَرَ معه إلى المغرب[1]. ويبقى في المغرب حتى يُهوِّن الانهزامَ بتلك الرسالة!!! ولا نكاد نعرف عن أخباره بعد ذلك شيئاً. وهذا كِفْل وأقل العدل لمن يربط مصيره بحاكم هزيل أو ظالم غاشم، يرى بعينه، يصيبه ما أصابه. والحاكم لا يعبأ أبداً بخادمه، ولو باع لأجله نفسَه رخيصة.

فرحل العقيلي مع أبي عبد الله الصغير - ضمن أُسرته وحاشيته، بعد السقوط، مع مليكه - سنة ٨٩٩هـ(١٤٩٣م) من الأندلس نهائيًّا ليستقر في فاس[2]. إذ بعد توقيع معاهدة الاستسلام بتاريخ ٢١ المحرم سنة ٨٩٧هـ(٢٥ / ١١ / ١٤٩١م) تم استيلاء الملكين الكاثوليكيين على غَرْناطة وحمرائها، ودخولهما بقواتهما مع الرهبان والقسس والكنيسة، بتاريخ الثاني من ربيع الأول ٨٩٧هـ(٢ / ١ / ١٤٩٢م). ورحل أبو عبد الله الصغير من الحمراء مع أُسرته وحشمه وأتباعه إلى منطقة البُشَرّات ALPUJARRAS، الهَضْبَة الوعرة ضمن سلسلة جبال شُلِّير الشاهقة (سيرّا نيفادا SIERRA NEVADA، أي: جبل الثلج)، مستقرًّا في مدينة أَنْدَرَش ANDARAX، في ذلة وهزيمة وانكسار. ثم تم اتفاق جديد بين الملك الصغير والسلطات النصرانية في ٢٣ رمضان سنة ٨٩٨هـ(١٥ / ٤ / ١٤٩٣م) على الرحيل إلى المغرب. وكانت كل هذه الاتفاقات الخفية والعلنية، مثل هذه ومثل اتفاق الاستسلام والتمهيدات السرية له، ثم الاتفاق السري الذي يخص الملك المخلوع، قد تمت

---

(١) نهاية الأندلس، ٤٩٢ - ٤٩٣.

(٢) أزهار الرياض، ١ / ٦٧. نفح الطيب، ٤ / ٥٢٨.

على يد الخائنيْن الخانعيْن الذليليْن: القائد أبو القاسم بن عبد الملك والوزير يوسف بن كُماشة!!؟

وهكذا تم رحيله ـ العقيلي مع مخدومه، حيث استقر معه بعد ترك غَرْناطة وحمرائها، في البُشَرّات ـ من أَنْدَرَش، ومن الأندلس نهائيًّا في أوائل ربيع الأول ٨٩٩هـ(أوائل أكتوبر= تشرين الأول ١٤٩٣م)، أي: بعد السقوط والاستيلاء بنحو سنتين، مستقرين جميعاً في فاس عاصمة بني وَطّاس، في أُبَّهة موهومة هي شر أنواع المذلة والمهانة والتدني.

وتنقطع بذلك أخبار العقيلي ـ حسب المعلومات المتوفرة ـ ولا يبدو هنالك شيءٌ مّا عن نشاطه أو موقفه، بل وحتى عن وفاته. وإن كان مخدومه الملك الصغير بقي هناك حتى وفاته بتاريخ (٩٤٠هـ)[١]، أو قبلها، وأحواله غير سارة، هكذا عَرّفنا المقري.

ولقد رأى المقري (١٠٤١هـ) أولاد الملك الصغير في فاس ـ حيث كان مقيماً فيها لنحو خمسة عشر عاماً، حتى رحل عنها سنة ١٠٢٧هـ ـ يَتَكَفَّفُون الناس في وضع يُرثى له[٢]، وإن كان دون رثاء الأندلس بكثير ولا يقارن به أبداً بحال.

فيقول المقري عن مصير هذا الملك الصغير ونهايته، إنّه لما دخل الجيش الصليبي إلى الحمراء خرج منها أبو عبد الله الصغير، إلى مكان اختاره ظاهراً. لكنه كان بترتيب: " وأَمر ـ لعنه الله ـ بانتقال سلطان غرناطة أبي عبد الله إلى قرية أَنْدَرَش، من قرى البُشَرّة، فارتحل أبو عبد الله بعياله وحشمه، وأقام بها ينتظر ما يُؤْمر به، ثم ظهر للطاغية أن يجيزه إلى العُدوة، فأُمر بالجواز، وأَعد له المراكب العظيمة، وركب معه كثير من المسلمين، ممن أراد الجواز، حتى نزلوا بمَلِيلَة من ريف المغرب، ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس ـ حرسها الله ـ وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السؤّال، بعد الملك الطويل العريض،

---

(١) نفح الطيب، ٤/ ٥٢٩. أزهار الرياض، ١/ ٦٨.

(٢) نفح الطيب، ٤/ ٥٢٩. أزهار الرياض، ١/ ٦٧.

فسبحان المعزّ المذلّ المانح المانع، لا إلهَ إلاّ هو "[1]. وهناك في فاس بنى القصورَ - ذوات القصور - الأندلسية، تأكيداً لغيه وغبائه وتخلفه.

أَمِثْلُ هذا يتولى أمر أُمّة[2]، وفي مثل تلك الظروف والأحوال المذهلة؟ فهوَ وأمثاله ابتليت بهم أُمتنا في عصورها وأجيالها وأحوالها. ويقول المقري رحمه الله تعالى في ذلك: " وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه، متلهفاً على ما خلفه، وبنى بفاس بعض قصور على طريقة بنيان الأندلس، رأيتها ودخلتها، وتُوفّي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة، ودُفن بإزاء المصلّى خارج باب الشريعة، وخَلّف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد وعَقِب هذا السلطان بفاس إلى الآن، وعهدي بذريته بفاس سنة ١٠٢٧م، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ويُعَدُّون من جملة الشحاذين، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم[3] "[4].

فهل يستحق كل هذا الرثاء!!؟ وحتى لو استحقه، فهو أقل رثاءً، مع العِبرة في مصير الأندلس الذي ساهموا في صنعه - مع غيرهم - أو على الأقل في كثير منه. فتركوها وحيدة

---

(١) أزهار الرياض، ١ /٦٧ .

(٢) يقترن سقوط الدول وتتابعها في تاريخنا الإسلامي بأسباب متعددة، داخلية وخارجية. والداخلية منها تَوَلّي حكام وقادة في نهايات الدولة - أو هم يحدِّدون مُسْهِمين أو يرسمون نهايتها مشاركين فيها - تجد فيهم الدعة والضعف والانشغال عن قضايا الأمة، تشغلهم صغارُ الاهتمامات وصغائرُ الأمور. أمثال أبو عبد الله الصغير. ومنهم (الأواخر) جيدون في أنفسهم، لكن تغلب عليهم بِطانة خادعة، أو أنّ الظروف لا تواتيهم ولا تمهلهم. وهذه ملحوظة في كثير من دول ذهبت. فهذه وتلك عوامل تأخذ بها - مع غيرها - للزوال، منقرضة لعقمها، لتتلوها الودود الولود. انظر: التاريخ الأندلسي، ٥١١ وبعدها. قارن: الذخيرة (العلمية)، ١ /٢٨، ٣١ - ٣٢ .

ويصح الاستشهاد بأواخر الدولة العباسية والعثمانية، وعلى كل حال فتاريخ الأندلس له خصوصيته في أمور كثيرة خلال مسيرته، بدايةً ونهاية.

(٣) نفح الطيب، ٤ /٥٢٩ .

(٤) وماذا يهم مصير الملك المنكود؟ راجع: نهاية الأندلس، ٢٣٧ وبعدها، ٢٨٦ وبعدها.

تصارع الطغاة، بمن بقي فيها من أهل الجهاد، الذين ربما كانوا يتوقعون مُقَدَّماً أنهم لا يَرُدّون هذا الحال ولا يبدلونه، بل يَرِدُون حقائق المهمات، من أمثال الإمام المَوّاق والشاعر القيسي والفارس موسى بن أبي الغسان. فرفعوا رايته واحتملوا من أجل ذلك الموتَ بقمع محاكم التفتيش، المتفردة بالوحشية في التاريخ الإنساني كله وبالقوة الغاشمة المتنكرة لكل معنى إنساني، غير آبهة له ولا خاضعة لشيء فيه، أو حتى معترفة ببعض معانيه، بل هي بذلك فخورة، وترى أنّها تؤدي به واجباً مقدساً دينياً ووطنياً بزعمهم.

وهذه الوحشية التفتيشية تتكرر على منوالها وأهدافها وغاياتها حتى لو أخذت صوراً أقل أو أخرى متنوعة وهي التي تريد القضاء على هذا الدين يوم حاربت ـ الأندلس رغم ما قدمته لهم ـ ردها الله وهو على كل شيء قدير وبه جدير.

ومن هنا يمكن النظر ـ بموضوعية وإنصاف وعلمية ـ إلى الإسلام وفتوحاته، وأنّ الدعوة إليه ضرورة إنسانية ملحة ـ ماضياً وحاضراً ـ لمستقبلها وحياتها وحضارتها وأمنها.

وهكذا حاربت وتحارب الصليبيةُ وحلفاؤها الإسلامَ ـ بكل ما يتعلق به ـ دون هوادة، مهما اختلفت الأساليب وتنوعت الظواهر، بل ومهما قَدّم لأوربا والغرب وللأندلس ـ إسبانيا والبرتغال ـ وحتى للحضارة الحديثة والإنسانية وكل البشرية مِن قِيَم ومعان ومُثُل وتَقَدُّم مُؤنِس وتَنَعُّم مُرْتَسَم ونبل محترم، حاملاً لها في إهابه التقدم العلمي والتقني والإنساني الحق ومنه اغترفت، وإن أفرغته وجردته وانتزعته من قيمه وأواصره ومقوماته، إلا ما تفلت وتفوَّت عليها. وهكذا شأن مَن لم يحفظ عهداً ولا يرعى فضلاً ولا يبغي للحق الأصيل النبيل مجداً: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِم واللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾[1].

---

(١) الصف،٧-٩ .



الخُلَاصة

أَبُو عَبد اللَّه العُقَيْلِي

مولده: في غَرْناطة في تاريخ مجهول.

هجرته: من الأندلس إلى فاس بالمغرب سنة (٨٩٩هـ)، تابعاً لمخدومه أبي عبد الله الصغير آخر ملوك غَرْناطة.

وفاته: في فاس بالمغرب في تاريخ مجهول.

* * *

وإليك بعض أبيات من الملحمة الأندلسية المؤسية، قلتُها في سقوط غرناطة وحمرائها:

١١- أبو عبد الله الصغيرْ	يبكي مثلَ الصاغرينْ
كيف أصبحتَ الأميرْ	وتُمالي الناقمينْ
أيَّ فرسانٍ هزمتَ	والخيولَ تركبونْ
١٢- فاركبوها للتباهي!!	واشتروها فارهينْ
ولألوان الملاهي	ادفعوا فيها المِئينْ
أنتَ عبءٌ لِشُعوبٍ	تبتغي يوماً تكونْ
١٩- لمن السيفُ الصَّقيلْ	أبيضٌ فوقَ الجبينْ
أم على الجبن دليلْ	حين يَكْوي المتقينْ
خشبٌ أحسنُ منه	لو تولاه البنونْ

* * *

١٣ . الحَسَن الوَزَّان

الحسن بن محمد الوَزّان الزيادي (الزياتي) الفاسي . واسمه عند الأوربيين جان ليون JEAN LEN. ويُسَمِّي نفسَه يوحنى (يوحنا) الأسد الغرناطي . وعُرِف بعد ذلك لدى الدارسين الأوربيين : ليون الإفريقي : . LEON AFRICANUS, LEON LI AFRICAIN .والمعلومات المأمولة لهذا الموضوع غامضة ومتنوعة والتواريخ مرتبكة والمصادر شحيحة، رغم أن بعضها كان محجوباً، إلا أنها بدأت تظهر، لا سيما بعد معرفة كتابه الجغرافي الشهير " وصف إفريقيا " ، الذي وضعه بالإيطالية ثم تُرجم إلى لغات أخرى . ويُعتبر هذا الكتاب بالغ الأهمية وغاية في الدقة وبعيد الأثر في موضوعه، في أوربا خاصة . ويظهر ذلك من النظر في طبعاته وترجماته والدراسات التي صدرت حوله[1] .

وقصة حياة الوَزَّان ـ بعد نزوحه من الأندلس فَتىً، في تاريخ غير واضح، مستقِراًّ مع أُسرته في فاس بالمغرب ـ شائقة، رغم الغموض الذي يغطي كثيراً من جوانبها وتفاصيلها وأحداثها .

---

(١) انظر : مقدمة كتاب : وصف إفريقيا . تراجم إسلامية، ٣٥٤ وبعدها . الأعلام، ٢ / ٢١٧ .

ويبدو الوَزَّان شخصية علمية جادة محبة للإسلام وأهله. وشارك في شبابه في الجهاد ضد الصليبيين، لا سيما البرتغاليين (والإسبان) الذين غزوا المغرب تكراراً[1]. فهو يُبدي كراهيته لهم، لِمَا نال أهلَ دينه وبلده من قِبَلهم في العُدْوَتَيْن (الأندلس والمغرب) من أذى. ويقف الوَزّان مجاهداً ضد هذه الموجات الصليبية، عاملاً على صدها ومشاركاً في مواجهتها ومجنَّداً في جهادها، إذ بلغت ذروتها قبل ذلك في الأندلس وامتدت إلى المغرب وبقية الشَّمال الإفريقي وأقامت محاكم التفتيش فيها!!؟[2].

---

(١) حضر الوزان بعض حروب أبي عبد الله محمد (القائم بأمر الله بن محمد بن علي بن مخلوف، ٩٢٣هـ، مؤسس الدولة السعدية) بالمغرب ضد البرتغاليين، الذين استمرت مهاجمتُهم (والإسبان) المغربَ والشَّمالَ الإفريقي. هاجم البرتغاليون والإسبان - بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) - شواطيءَ المغرب عدة مرات، وكذلك مدن ومناطق أخرى في بقية الشَّمال الإفريقي. وكانت قمة ذلك منه احتلال الإسبان مدناً في الجزائر ومنها وهران. وهي وأمثالها تمثل قمة هذا المد الصليبي الأعمى الحقود الحسود - في تلك الديار، ولم يكن وحيداً - الذي لا يعرف الحدود في الوحشية، مثلما مَثَّلت معركةُ وادي المخازن في المغرب أيام السعديين (يوم الاثنين آخر - منسلخ - جمادى الأولى سنة ٩٨٦هـ = ٤ أغسطس/ آب ١٥٧٨م) قمةً أخرى. حيث جهزت البرتغال وإسبانيا حملة من نحو مئة ألف مقاتل أو أكثر، ضم إلى جانبهم متطوعين من دول أوربية أخرى، منها إيطاليا وألمانيا، بقيادة ملك البرتغال سِبَسْتِيان .SEBASTIAN وأما عدد الجيش الإسلامي فلم يكن يتجاوز أربعين ألفاً. وانتهت هذه المعركة الفاصلة - معركة وادي المخازن أو القصر الكبير - بنصر الله المؤزر للمسلمين وقتل الملك البرتغالي. انظر: درة الحجال، ٢/ ٢٢٣ - ٢٢٥. مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ٣٠٩.

(٢) احتل النصارى الإسبانُ مدينةَ وهران ORANبالجزائر سنة ٩١٤ - ٩١٥هـ (١٥٠٩م)، إذ توجهت حملة بحرية من ١٥ ألف مقاتل، أبحر معها الكردنال خمينس FRANCISCO XIMENES DE CISNEROS رئيس الكنيسة الإسبانية المتعصب الذي اكتوى المسلمون في الأندلس بأحكامه في محاكم التفتيش الإسبانية، ناراً حارقة أفنت جمهرتهم وكبتت تدينهم.

وتولى هذا القس - الدعيّ المدعي بالتدين خادم الحقد ومثيره وراعيه - بمعاونة من معه، بث الهتك والفتك والتنكيل في تلك البلاد وأقاموا فيها محاكم التفتيش ! وكانت هذه الحملة على وهران غريبة وعجيبة، فيها كثير من التفاصيل المتعلقة بما ارتكبوه من وحشيات تتنافى مع كل معنى وتتجاوز مثيلها وتثير أكبر الاستغراب. انظر: درة الحجال، ١/ ٩٢.

وحياة الوَزّان ـ بعد ذلك ـ مليئة بالأحداث والمفاجآت والمغامرات. فلقد قام برحلات متعددة، وكان شغوفاً بها. كان له اهتمام بتسجيل مشاهداته في الرحلات. فسافر إلى أماكن كثيرة، إلى القسطنطينية والمشرق العربي وإلى بلدان متعددة في القارة الإفريقية. وكذلك أدى فريضة الحج، وكان خلالها يُعَرِّج على مدن وبلدان في طريقه. وربما تَحَمَّل بعض المهمات الدبلوماسية إلى جهات. والأمر في هذا بحاجة إلى تدقيقات أو نصوص أكثر.

وكان للوَزّان نشاط سياسي وجهادي عسكري ـ كما ذُكر آنفاً ـ قاده إلى مشاركة في الجهاد، بَذَل فيه وُسْعَه وجُهْدَه ومهجته، وقوفاً ضد الغزو الأوربي الصليبي، لا سيما البرتغالي والإسباني، للشَّمال الإفريقي: بحرِه وبرِه. ولعله التقى بأمير البحر عُرُوج بربروسا BARBAROSSA (بارب روس = BARBA ROSA, BARB ROSE ذو اللحية الصهباء) (استشهد سنة ٩٢٦هـ=١٥١٨م) الشقيق الأكبر لأمير البحر خير الدين بربروسا (٩٥٣هـ = ١٥٤٦م)[1]. والظاهر أنّ الوزان قام بأكثر من رحلة، ولعل له تكليفاً رسمياً لأداء مهمات دبلوماسية، أدى خلالها فريضة الحج.

وأُسِرَ في إحدى رحلاته، خلال عودته من القسطنطينية إلى المغرب ـ عِبْرَ مصر ـ ومن الإسكندرية إلى تونس. وحين رست سفينته عند جزيرة جرْبَة التونسية، هاجمها البحارة الإيطاليون، من البنادقة والصقليين. فوقع أسيراً بيد بحار صقلي إيطالي (بيترو بوفا ديغيليا)[2]، نحو سنة ٩٢٦هـ (١٥١٨م)، وهو في نهاية العَقْد الثالث من عمره أو تجاوزه. فأخذوه وحملوه إلى روما. ولَمّا تبين أنّه من أهل العلم والمعرفة والموهبة، قدموه هدية إلى البابا ليون العاشر LEON X، الذي عَمَّده سنة ٩٢٨هـ (١٥٢٠م). فاهتم به وقربه وأحاطه بالعناية، فأخذ يتولى ـ بتكليف ـ تعليم العربية، ووضع لذلك كتاباً. كما ألف عدة كتب

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ٢٣٠، ٢٣٨ .

(٢) انظر: مقدمة كتاب: وصف إفريقيا، ٢٢ .

باللغة الإيطالية حيث" بعد أَسْره في جزيرة جرْبة، قُدِّم هدية للبابا الذي أحسن وفادته حتى أنّه عمَّده ومنحه اسمَيْه جان وليون، وأنه تعلَّم الإيطالية. وقد ألف ليون في هذه اللغة كتاباً في الجغرافية اعتماداً على مذكراته المكتوبة بالعربية "[1]. ربما من أصل عربي أو لعله بناءً على معلومات ومذكرات وملاحظات أولياته ومادته أو كتاباً مكتملاً بالعربية، وهو غير موجود الآن. ولكن الأصل المعروف اليوم كتبه هو نفسه بالإيطالية، وهو العمل الذي وَصَلَنا، وانتهى من تأليفه في روما سنة ٩٣٤هـ(١٥٢٦م)، ونُشر بالإيطالية أول مرة سنة ١٥٥٠م (في حياة المؤلف) وأعيد نشره بعد ذلك مراراً. وبعد سنين قليلة ظهرت له ترجمات بالفرنسية واللاتينية والإنكليزية والهولندية والألمانية. والآن وقبل مدة ظهرت ترجمته العربية. وأخيراً ظهرت ترجمته الإسبانية.

والوَزّان بهذا شبيه - إلى حد ما، من بعض الوجوه - بالشريف الإدريسي (٥٦٠هـ) الذي وضع مؤلَّفه الجغرافي الأشهر "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، في ظل الملك النورماندي الصقلي النصراني روجار الثاني ROGER II الذي أفاد من ذلك في حياة مؤلفه.

وحَمَل هذا البابا الوَزّانَ على التنصر. وهذا البابا: ليون العاشر LEON X، هوالكردنال السابق جيوفاني دي مديتشي (GIOVANNI DE MEDICI)، الذي شغل منصب البابوية بين سني ١٥١٣ و ١٥٢١، ممن عُرف عنه بيع صكوك الغفران الجديدة INDULGENCE لبناء كنيسة القديس بطرس (ST. PETER'S (BASILICA OF ST. PETER في روما. وفي زمنه ظهرت ما يُعرف بحركة الإصلاح الديني في أوربا وانتشار المذهب البروتستانتي (البروتستانتية PROTESTANTISM) على يد لوثر LUTHER الألماني(١٥٤٦م). وتم تعميد الحسن الوَزّان على يد البابا نفسه في كنيسة القديس بطرس في روما سنة ٩٢٨هـ (١٥٢٠/١/٦م).

---

(١) انظر: مقدمة كتاب: وصف إفريقيا، ١٨.

واتخذ الوَزّان اسماً منحه له البابا نفسُه، فسمّاه باسمه: جان ليون غرناتيني: أي يوحنا الأسد الغَرْناطي، وعُرف باسم ليون الإفريقي، وبه اشتهر[١]، كما ذكره في كتابه "وصف إفريقيا" وسبقت الإشارة إليه[٢]. فقبل الوَزّان ذلك ظاهراً على عادة المسلمين (LOS MORISCOS)في الأندلس، وهو إظهار النصرانية وإبطان الإسلام. وهناك إشارات كثيرة تدل على ذلك. فهو خلال إقامته في إيطاليا ـ البالغة نحو عشر سنوات ـ لم يشارك النصارى حياتهم، وحتى لم يتزوّج منهم، بل يكاد يعيش في عزلة من ناحية حياته الخاصة وأسلوبه في كتبه، منها ما ذَيَّل به قاموسه" فرغ من نسخ هذا الكتاب العبد الفقير إلى الله مؤلِّفه يوحنى الأسد الغَرْناطي المدعو قبلُ الحسن بن محمد الوَزّان الفاسي في أواخر يناير عام أربعة وعشرين لتاريخ المسيحيين الموافق لعام ثلثين وتسعمائة لتاريخ المسلمين وذلك بمدينة بلونيا من بلاد إطاليا برسم المعلم الحكيم الطبيب الماهر يعقوب بن شمعون الوفي الإسرائيلي حفظ الله نعمته آمين"[٣].

وُجِد هذا القاموس (العربي الإسباني اللاتيني) الذي صدر في بولونيا BOLOGNA سنة ٩٣٢هـ (كانون الثاني = يناير ١٥٢٤م) في حياة المؤلف، بل وهو ما يزال في روما أو ربما أثناء تدريسه العربية في جامعة بولونيا. وتحتفظ به مكتبة الإسكوريال EL ESCORIAL، خمسين كيلومتراً شمال غرب مدريد[٤]، ربما هي النسخة الوحيدة.

---

(١) انظر: مقدمة كتاب وصف إفريقيا، ٢٣ .

(٢) انظر كذلك: تراجم إسلامية، ٣٧١ .

(٣) انظر: تراجم إسلامية، ٣٧١ . كذلك: فهرس الأسكوريال رقم ٥٩٨ .
LES MANUSCRITS ARABES DE L'ESCURIAL ,H. DERENBOURG, I,409.

(٤) انظر: مقدمة كتاب وصف إفريقيا، ٢٣ .

وهناك في روما تعلم الوَزّان الإيطالية واللاتينية، وهو يَعرف الإسبانية ـ وطبعاً كان يجيد العربية وينظم بها الشعر ـ كما كان يعرف العبرية وغيرها. وقام بتدريس العربية للعلماء ورجال الكنيسة في روما ودَرّس العربية في جامعة بولونيا الشهيرة الإيطالية، التي تأسست في مدينة بولونيا الإيطالية، وتقع شَمال شرقي إيطاليا، وجنوب مدينة البندقية VENICE، في القرن الحادي عشر الميلادي. وهي ـ وجامعة باريس ـ أقدم الجامعات الأوربية. كما وضع الوَزّان عدة مؤلفات، منها قاموسه وكتابه الشهير: "وصف إفريقيا". وله مؤلفات في ميادين أُخرى لم يصلنا منها إلا القليل، وبعضها في التاريخ. وكانت بعض مؤلفاته قد أتمها قبل وقوعه في الأَسْر.

والحسن بن محمد الوَزّان الزياتي (أو الزيادي) ينتمي إلى أُسرة أندلسية غَرناطية معروفة وبيت مرموق موطنها ومنزلها غَرناطة. وقد يشير لقبه الوَزّان إلى احتمال أنّ أحد أجداده تولى منصباً رسميًّا في غَرْناطة يتعلّق بالأوزان، أو مهنة أو وظيفة، لها عَلاقة بذلك(١).

وُلد الوَزّان في غَرناطة في تاريخ مضطرب اختلف فيه الباحثون، وإن كنتُ لا أُبْعِد أن يكون قبل استسلام أو تسليم غرناطة سنة ٨٩٧هـ(١٤٩٢م)، بعدة سنوات، للملكين الكاثوليكيين فرناندو (فردناند) الخامس FERNANDO (FERDINAND)V ملك أرغون ARAGON وإيزابيلا ISABEL, ISABELLA ملكة قَشتالة وليون.CASTELLA Y LEON

(١) انظر عنه: الأعلام، ٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨ . حياة الوزان الفاسي وآثاره، الحجوي. كان والده تاجر حرير في سوق الحرير ضمن سوق القيصرية (ALCAICERIA) وسط غرناطة قرب خان الفحم CORRAL del CARBON الذي ـ لقربه من سوق الحرير ـ اعتاد أن ينزل فيه التجار القادمون لشراء الحرير وغيره. فلعل الحسن الوزان كان يلعب فيه أو يتردد عليه مع والده لملاقات هؤلاء التجار. وهذا الخان ما يزال قائما وفيه بعض الدوائر السياحية، كما هو الآن مقر لمؤسسة التراث الأندلسي EL LEGADO ANDALUSI . أخبرني بذلك مدير القسم الثقافي فيها الأستاذ عاصم الباشا خلال زيارتي له أواسط فبراير = شباط ٢٠٠١ .

ونشأ الوَزّان هناك في غَـرْناطة الأندلس في ذلك الجـو وأدرك في صـغـره ورأى تلك المآسي الدموية التي وقعت لأهله وأهل دينه وبلده.

وأَحْتَمِلُ أنه لم يكن في نية الأُسرة الوَزّانية الهجرة من الأنـدلس ابتداءً. ونعلم أنه خلال أحداث غرناطة حدثت هجرة غير قليلة للكثير من العلماء والأنجاد والقادة - أفراداً وأُسراً وحاشية - كان بينها أُسرة الحسن الوَزّان، التي هاجرت من غرناطة الأندلس إلى المغرب، لتستقر في مدينة فاس، حيث عُرِفَت هناك وبَلَغتْ شأواً وتولت وظيفة مرموقة. والظاهر أنه بعد نقض المعاهدة - معاهدة تسليم غرناطة - من قبل السلطات الإسبانية النصرانية والملكين الكاثوليكيين والكنيسة، بنداً بنداً وبشكل واضح ومكشوف، وابتداء عمليات المواجهة والتنصير والتهجير والتقتيل والمتابعة والتنكيل، واتخاذ إجراءات قاهرة قامعة مُبيدة، كحرق الكتب الإسلامية بمئات آلافها المخطوطة، عصارة النتاج الإسلامي وخلاصة أقلام العلماء المسلمين وحصيلة الحضارة الإسلامية النيّرة، سنة ٩٠٤هـ(١٤٩٩م) - بعد السقوط بسبع سنوات - وصدور القرارات الجائرة بالحَجْر على ممارسة الأُمور الإسلامية وخنق اللائذين بها، هاجرت أو هُجِّرت أُسر أندلسية كثيرة إلى المغرب، كان منها هجرة الأُسرة الوزانية. أي يكون الحسن الوَزّان قد قارب اكتمال العقد الأول من عمره، أو حوله بسنوات جد قليلة.

كانت المغرب أحد مواقع لجوء الأندلسيين، في الشَّمال الإفريقي. وتقترن في ذلك فاس - التي آوى إليها آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله الصغير وحاشيته، وغيرهم كثير - إيواءً وعلماً ومقاماً، بتونس وتلمسان، مدن علم وتكريم ونجدة. وهناك استمر الوَزّان في تلقي علومه والارتقاء بمعرفته وطاقاته، التي برزت واضحة ناضجة قوية، وتقدم في المجتمع، فتولى فيه مهمات وقام بواجبات وحمل تكاليف.

وكانت فاس عاصمةَ بني وَطّاس. وهي بجانب ذلك عاصمة علمية وسياسية وجهادية. شارك الحسن الوَزّان في كثير من ذلك، وهو في سن شبابه المبكر[١]، التي بدت عليه معه

---

(١) انظر: تراجم إسلامية، ٣٤٥ وبعدها.

سمات النباهة والوجاهة والبداهة في العلم، حتى إنه نَظَم بعض الشِّعر مبكراً. كذلك كان جنديًّا يحب الجهاد ضد أعداء دينه، وشارك في بعض الحملات.

والجهاد كان قائماً وروحه متحركة، وعند أهل الأندلس كذلك، فهي موطن جهاد، لا سيما وقد تربوا في المعترك وظلت نفوسهم متعلقة به حتى بعد الرحيل، استمراراً في الدفاع عن دينهم ضد عدوه وعدوهم. فكانوا لا يفتأون بالقيام به بعد رحيلهم عن الأندلس.

وإذا كان كيفية أَسْر الوَزّان معلوماً فليس معلوماً كيفية إفلاته منه من روما وعودته ـ بعد نحو عشر سنوات من الأسر ـ إلى تونس سنة ٩٣٦هـ (١٥٢٨م) أو بعدها. وبقي حتى وفاته فيها سنة ٩٥٩هـ (١٥٥٢م).

وهكذا يكون الحسن الوَزّان وأُسرته ممن هاجر من الأندلس خلال الظروف المذكورة، وهاجر منها صغيراً، فلا يحتمل مسئولية ذلك. ولعله بعد أن كبر حاول القيام بواجبه، فشارك في الجهاد ضد الذين هَجَّروه مع أُسرته، معاداة لدينه وأهل ملته. ولا بد أن أخبار السياسة النصرانية الإسبانية ضد مُسْلِمة الأندلس ومحاكم تفتيشها كانت تصله. فهل جمع من المعلومات ليضعها في مؤلَّف؟ لا سيما وقد ذُكر أنّ له اشتغالاً بالتاريخ، لعل هذا كان من بينها ففقد.

ومجمل ذلك كله أنّ وِلادة الحسن الوَزّان كانت في غرناطة نحو سنة ٨٩٤هـ (١٤٨٩م)، أو قبلها، أي قبل سقوط غَرْناطة ببضع سنوات. ثم هاجرت أُسرته إلى المغرب ـ لتحل في فاس ـ بعد سنة ٩٠٤هـ (١٤٩٩م). ولعله شاهد حرق الكتب في ساحة أو رحبة باب الرملة (PLAZA DE BIBRAMBLA = PLAZ BIB - RAMBLA) في وسط غَرْناطة (الجريمة الشنعاء النكراء ضد الإنسانية وحضارتها المأمولة طرًّا)، وعمره نحو عشر سنوات أو يزيد. وهناك في فاس نشأ ودَرَج وتعلّم، وظهرت عليه مخايل الذكاء وتقدم في تَعلّمه. ثم تعلّق بالترحال العلْمي والاستكشاف، لا سيما بالجانب الجغرافي والاجتماعي والإنساني. وكان يدوّن ملاحظاته. وشارك في الأحداث والجهاد ضد العدو الصليبي من البرتغاليين والإسبان.

والحمد لله الذي قيض الدولة العثمانية للإسلام في المغرب - وغيره - لتحفظه، بفضل الله تعالى، من المد الصليبي وتحافظ عليه، تجاه غزواتهم وحملاتهم المتكررة وهجماتهم المحمومة. وما نشاط الأساطيل العثمانية في البحر المتوسط وجهاد المسلمين وقيادة المعارك البحرية والأخوين عُرُوج وخير الدين بربروسا عنا ببعيد. وورث عبءَ هذا الجهاد آخرون، منهم أمير البحر طرغول وغيره، شارك في ذلك عدد من المجاهدين المورسكيين وزعمائهم[1].

وفي إحدى رحلاته - وحين العودة إلى تونس - أسره أحد القراصنة الإيطاليين، عند جزيرة جِرْبَة سنة ٩٢٦هـ (١٥١٨م)، وعمره نحو ثلاثين عاماً. وقدمه هدية إلى البابا ليون العاشر الذي تُوفي نحو سنة ٩٣٠هـ(١ / ١٢ / ١٥٢١م)، بعد زهاء ثلاثة أعوام من وصول الوَزّان إلى روما. وليون العاشر هو الذي حَمَلَهُ على التنصّر ومنحه اسمه جان ليون (يوحنا الأسد)، وعُرف به عند الأوربيين (ليون الإفريقي). وعندما تُوفي هذا البابا استمر الوَزّان مقيماً في روما. وبعد نحو عشر سنوات من إقامته هناك أفلت عائداً إلى تونس سنة ٩٣٦هـ (١٥٢٨م) أو قبلها. وعاد إلى إسلامه تقيًّا نقيًّا مخلصاً، ولم يكن إلا كذلك طوال إقامته في روما. ويبدو أنّ هذا مؤكد بكل وضوح، ويُفهم مما ذكر.

وهناك في إيطاليا وضع عدة كتب، منها: " وصف إفريقيا " أنجزه بالإيطالية سنة ٩٣٤هـ (١٠ / ٣ / ١٥٢٦)، بعد ثمانية أعوام من الأَسر. وبعد أن تَعلّم هذه اللغة وغيرها، ونُشر الكتاب مطبوعاً لأول مرة باللغة الإيطالية سنة (١٥٥٠م) في حياة مؤلفه، الذي توفي في تونس، بعد ذلك بعامين.

وهكذا كانت حياة الحسن بن محمد الوَزّان حافلة متفاعلة متأصلة، اتسعت لأُمور متنوعة متعددة كثيرة، قَدمت ثِمَاراً جُلّى وتركت نِتاجاً ثَرًّا وأهدت مواقف نبل كريم ووفاء قيم.

* * *

---

(١) نهاية الأندلس، ٣٨٨ - ٣٨٩ . تاريخ الدولة العلية العثمانية، ٢٤١ .

الخُلَاصة

الحَسَن الوَزّان

مولده: في غَرْناطة نحو ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) أو بعدها.

هجرته: من غَرْناطة إلى فاس مع أُسرته بعد سنة ٩٠٤هـ (١٤٩٩م)، بسنوات قَلَّت أو كثرت. وتم أَسْرُه وحملُه إلى روما سنة ٩٢٦هـ (١٥١٨م). وجرى تعميدُه في كنيسة القديس بطرس في روما سنة ٩٢٨هـ(٦/١/١٥٢٠م). وتمت عودته من روما إلى تونس نحو ٩٣٦هـ (١٥٢٨م).

وفاته: في تونس سنة ٩٥٩هـ (١٥٥٢م).

* * *

ربما هناك أسماء علماء وأنجاد وقادة آخرون ـ أفراداً وأُسراً ومسئولين ـ هاجروا من الأندلس إلى المغرب وغيره، بعد سقوط غَرْناطة واستسلامها والاستيلاء عليها، أو خلال ذلك أو نحوه ـ قبله أو بعده ـ لم أتعرف عليهم، سواء لعدم توفر المطبوعات لدي الآن، لهم فيها ذكر، أو في المخطوطات، معلومة أو مجهولة، أصابها الهجر. والأمل إن شاء الله تعالى أن يقيض لها الله سبحانه مَن ينشرها ويهيئ أسباب ذلك، في وقت قريب، فهو وحده سبحانه وتعالى وليه والقادر عليه إنه سميع مجيب.

أمٌّ بارّة وَلُود رَغْم أسر القُيود

وهذا لا يعني أن كل العلماء والأنجاد والقادة هجروا غَرْناطة - التي هي دار إسلام، ردها الله تعالى - رغم سلطانها النصراني المغتصِب. ولكنها قاومت وواجهت المُلاحقةَ وتحريمَ الممارسة ومنعَ الحرية. واقتضى الوضع الجديد اختفاؤهم من السطح، فاختفوا بجهودهم وأسمائهم، وانشغلوا بمصالح المسلمين: تعليمهم وتماسكهم وتجميعهم وتشجيعهم. فلا نعلم من أسمائهم ولا جهودهم إلا القليل، لكنهم بقوا في الميدان، يؤدون هذا الواجب، وبقوة إيمانية متدفقة.

ولا يُستبعد أن كثرةً منهم قُتلوا شهداء - في أوقات - منذ أوائل سقوط غَرْناطة، في المدن والقرى التي أُحرقت، وفي الأحكام التالية فيما بعد، حين أبت التنصر ورفضته وقاومته وقامت في وجهه، رغم القمع والمفاجأة وقلة العُدة. ولهذا لم يُمْكِنهم الكتابة - لأكثر من سبب - عن حياة المسلمين منذ السقوط، والمصادر قليلة ونادرة وضنينة في ذلك. ولعل الذين كتبوا وألفوا، لم يذكروا أسمائهم، حماية لأنفسهم. ولدينا من هذا النوع مصدر مهم - نجهل اسم مؤلفه، غالباً لهذا السبب - وهو: "نبذة العصر في أخبار بني نصر"[١]، سبقت الإشارة إليه والاقتباس منه والانتفاع به بشكل موسع. وهوشاهد عيان لتلك الأحداث ومشارك فيها.

وربما هناك له أمثلة ضاعت. وليس من المعقول أنّ هذه الأهوال بتفاصيلها لم تستوعبها مؤلفات، لكنها ذهبت. ولعلها موجودة في مكانٍ ما أو محفوظة تنتظر الاهتمام، بل لعلها مدفونة في إحدى المباني القديمة، في الأَسقف والحيطان أو حتى في القيعان وأمثالها[٢].

---

(١) انظر: نهاية الأندلس، ١٩٥-١٩٦، ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها، ٢٥.

وقضية مطاردة الكتاب الإسلامي العام ـ في الأندلس بعد سقوط غَرْناطة، رغم المعاهدة المُوَقَّع عليها من الملكين وأُسرته والقُسس والرهبان والبابا كذلك، التي تحفظ حقوق المسلمين ـ الذي يُعَلِّم الدينَ ويحفظ أصوله وعباداته ويحث على التمسك وحتى في أقل الحدود، وكل ما يتصل بذلك كانت ممنوعة، لكن التأليف في الأركان والعبادات والمقومات هي التي غلبت على المؤلفات رغم قلتها، وممنوعيتها وملاحقة مَن توجد عنده، فضلاً عن مؤلفيها ومعاقبة مَن له بذلك صلة، عقوبة قد تقود إلى التنكيل والتشريد، بل والموت. فانشغل أهل العلم من المسلمين في هذه المرحلة والمحنة والظلمة الحالكة بهذه المهمة ـ الكتابة في الأصول والعبادات والأركان ـ وأنشأوا كتابات جديدة بعد حرق الكتب[1]. فكيف في هذه الظروف تُكتب المؤلفات بالتعريف بحالهم ـ بشكل مكشوف ـ أمام السلطات الإسبانية النصرانية ـ السياسية والكنسية، التي كانت لا تريد لأحد أن يتعرف على هذا الحال، كما هي العادة دائماً. فهي تعمد إلى إنكار الحقائق وتحريفها وقلبها، إيهاماً وتشويهاً متعمداً، مثلما جرى في مآل سفارة مصر إلى الأندلس[2]، وهذا بشكل مصغر. كان ذلك رغم هذا الموقف المتهافت في موضوع السفارة الإسبانية النصرانية إلى مصر وجواب حاكمها، الذي يُعتبر دليلاً على الهزالة والهروبية والأنانية، التي لا تؤهل لحكم بلد مسلم.

وبالنسبة إلى حكام إسبانيا النصرانية فهذا حال معهود، وليس فقط لمثل هؤلاء قديماً، بل يتم في الوقت الحاضر، كما كان يجري بالنسبة إلى مسلمي الاتحاد السوفيتي السابق ومن في فلكها، وهو ما يزال يجري هنا وهناك. وهو سهل على أي مستوى ما دام الإنسان لا يخشى الله تعالى ولا يرقبه ولا يتقيه. وهذا وحدَه يؤكد صدق وعدل ورسوخ طبيعة

---

(١) انظر: الكشاف العام.

(٢) راجع: نهاية الأندلس، ٢٧٢ ، ٢٧٣، ٣٢٤ .

كذلك انظر: أزهار الرياض، ١/ ٦٩ ـ ٧٠ . نبذة العصر، ٤٤ .

الإسلام. وهذا لا يجعل صاحبه بحاجة لِمثْل هذا الاتجاه، فهو لا يستعمله بأي حال، حتى لو توجه ضده.

وما تَوَفَّر مِن مصادر كتبها المسلمون الأندلسيون ـ بعد السقوط ـ قليلة جدًّا، القليل الذي نعرفه كتابات مَن هاجر من الأندلس ـ فيما بعد ـ إلى بلد مسلم، أمثال: الشهاب الحَجَري (١٠٥٢هـ) في أكثر من كتاب، مفقوداً أو موجوداً، ومحمد بن عبد الرفيع ١٠٥٢هـ (١٦٤٢م).

وكل منهما موريسكي استطاع الهروب أو الفرار بدينه من الأندلس، بعد السقوط بما يزيد على قرن. وكتب كل منهما عن حال الموريسكيين كتابات، بعضها عثر عليه ـ ونشر القليل ـ وبعضها ما يزال مفقوداً[١]. فكل منهما يُفَصِّل الأحداث ويقدم معلومات حقيقية دقيقة صادقة عن حال الموريسكيين في الأندلس تحت كَلْكَل محاكم التفتيش الثقيل البغيض المخيف. وهم شهود عِيان عاشوها واحتملوها وذاقوا مرارتها. أرادت السلطات الإسبانية النصرانية بها محو أي أثر للإسلام وحضارته ومجتمعه من الأندلس. ولكن ما يزال رغم كل ذلك، وما تَبَقَّى من تأثيراته قائمة، ليس فقط في الأرض الأندلسية (إسبانيا والبرتغال) بل وفي الذات الإسبانية، التي أخفت تحت جلدها وخلف مساحيقها ووراء زينتها، كثيراً من المعاني المدفونة الغائرة الغامرة، حتى ولو على شكل أي ارتباط نفسي أو عاطفي أو حتى تاريخي، تحسه وتشعر به، بل وتراه[٢]، يتدافع فهماً، تَقَمْقَمَ وتَرَدَّمَ وتَهَدَّمَ. وقد أشار إلى هذا العديدُ من المنصفين[٣].

والأرض الأوربية، وحتى من خلال جرائم محاكم التفتيش، المرتبطة جميعاً بقوة أسسها التي ترد روحها إلى تلك الأرض. ورَحِمَ اللهُ مؤلفينا الذين كانوا يقولون عند الحديث عن

---

(١) انظر: أعلاه، ١٠٤.

(٢) The Moriscos of Spain, 365.

(٣) نهاية الأندلس، ٤١٤ وبعدها.

ذَهاب مدينة أندلسية وحتى بعد ذَهاب الأندلس الصغرى أو الأُولى الكبرى، دعوة: ردها الله للإسلام أو رد الإسلام إليها[1]. ومن يدري ماذا يأتي به الزمان من أعاجيب، وإن كانت لا تخطر على بال، وحتى لو كان هذا من الأحلام، فكم من أُمور كانت بالأمس أحلاماً وصارت حقائق اليوم، مُثُولاً وقياماً:

واللَّيالي من الزمان حُبالَى مثقلاتٍ يَلِدْنَ كلَّ عَجيبِ

وكذلك ما بدأ يظهر من سجلات محاكم التفتيش وبعض المكتشفات كالمقابر الجماعية وبعض الكتابات المنصفة[2]. وحتى هذا القليل الذي نعرفه اليوم كان ـ قبل عقود معدودة جداً من السنين ـ شِبْهَ مجهول أو مجهولاً تماماً.

وهؤلاء العلماء الذين بَقَوْا في الأندلس، عملوا في الحفاظ على الإسلام في نفوس الناس. ومنهم من تُوفي مستشهداً في سبيله. ونشأ بعد ذلك آخرون، ورثوا هذه المهمة وأورثوها، وتزعموا هذا الأمر الذي لا يتولاه إلا من باع نفسه لله رخيصة. ولُدوا وتربوا في ظلمة محاكم التفتيش الباغية وتحت كلكلها الثقيل البغيض، كالأسرة السَّرَقُسْطِيَّة[3]، نسائها ورجالها وشبابها التي تكاد تكون مجهولة، وكالشهاب الحَجْري (الحَجَري)، وابن عبد الرفيع، أو ممن كان أو ظهر فيما بعد وقضى شهيداً، أبى الهجرة ولو اضطر إليها أو قد يضطر إليها. عرفناهم بعد ما هاجروا وكتبوا، ولعل غيرهم قضى هنالك ولم نعرفه. وربما تُظهِرهم وثائق تالية، ومن خلال بعض الدراسات. وعُرف بعض مِن هؤلاء العلماء والزعماء

---

(١) كذلك: أزهار الرياض، ١/٤٦، ٦٣، ٦٩. نفح الطيب، ٤/٤٨٣. درة الحجال ١/٩٢.

(٢) انظر: الكشاف العام. نهاية الأندلس، ٣٣٥، ٣٤٥، ٤١١ ـ ٤٣٢.

(٣) وهي أسرة مورسكية كانت تعيش في سَرَقُسْطة ZARAGOZA، شَمالي الأندلس، استعملت كلَّ جهدها ونفوذها وغناها سراً لخدمة المسلمين. قام بذلك نساؤها ورجالها، ولَمّا كُشِف أمرها أبادتها محاكم التفتيش وقضت عليها ولم تُبْقِ على أحد منها. وجدتُ ذلك في بحث باللغة الفرنسية اطلعت عليه في مدريد نحو ١٩٨٣.

والأنجاد المجهولين الذين قادوا المسلمين في المحنة. وقل مثل ذلك في أسرة بني عامر المورسكية في بلنسية VALENCIA، في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي[1]. وهذه أمثلة، ولا نعدم وجود مثلها كثيرة جداً ووفيرة ومثيرة.

وكان آخِرَ مَن أُعدم ـ فيما علمتُ، عن أحد الإسبان الذين التقيتُ بهم سنة ١٩٨٣م، وهو جده ـ أحدُ الفقهاء(١٨٣٥م). وهو فقيه أندلسي في منطقة مُرْسِيَة MURCIA، ميناء أندلسي على البحر المتوسط. أُعدم أمام ملك إسبانيا نفسه جهاراً نهاراً. وتُمَثِّل هذه السَّنةُ السَّنةَ الأخيرة من عمر محاكم التفتيش الرسمي في الأندلس، والتي بقيت تطارد المسلمين لثلاثة قرون ونصف (١٤٨٠ ـ ١٨٣٥م). وإن كانت لم تنته حقيقةً، إذ جرت بعد ذلك متابعات ومذابح ومجازر، كانت لها مقابر جماعية. حتى صاروا إلى الحال المعروفة، ولم يبق لهم شيء وتوقف الأمر في ذلك وما يتعلق بهم إلى ما هو عليه الآن، وإن لم تنته بعد آثار ذلك التي تظهر في الحقد عليهم بأشكال كثيرة، وكذلك في الدراسات المتنوعة المتسعة الحاقدة.

والقصة الجديدة من اكتشاف مقابر جماعية، لعلها واحدة من القصص الوثائقية التي يقدمها البحث الحديث في موضوع سقوط غَرْناطة وما تلاها من محاكم التفتيش، لفعالها البشعة المترعة بالوحشية المتربعة على أكوام من جثث وجماجم ـ باسم الإيمان ـ ترقص فوقها وهي ثَملة منتشية فرحة، سواء في موضوع هجرة العلماء أو بعده، من الصفحات السوداء التي خَطَّتْها الوحشية الدموية في محاكم التفتيش أو دواوين التحقيق الغاشمة الظالمة.

ولا يجب أن يشعر الباحث بأي حرج في ذكر الحقيقة وذكر القائمين بها من السلطات الكنسية والرسمية في إسبانيا النصرانية (وكذلك في البرتغال) ومن عاونها من أوربا الصليبية بزعامة البابوية. كيف ذلك والكثير من الكُتَّاب الأحرار المنصفين الذين أرخوا

---

(١) نهاية الأندلس، ٣٨٠.

لهذه الأحداث - وفي إسبانيا نفسها - أظهروا بشاعة جرائم محاكم التفتيش السوداء أو دواوين التحقيق، بل هي دواوين التحريق، وهي ترتكب وحشياتها الدموية المأسوية النادرة الفاقرة البائرة، مثل: المؤرخ الإسباني الحَبْر يورنتي LLORENTE الذي عمل أعواماً معهم، ثم سكرتيراً عامًّا في محاكم التفتيش الإسبانية[1]، وفي غير إسبانيا من مناطق أوربا، ومثل الكاردينال الفرنسي ريشليو[2] RECHELEO وآخرون هنا وهناك. والمنصفون - والحمد لله تعالى - غير قليل دوماً.

وهذا الموضوع - عموماً - بحاجة إلى دراسة متسعة وكثرة من الإنصاف وحسن النظرة والهمة الجليلة - حين تَناوُلِها مِن قِبَل أيِّ أحد - التي تُعِين على المتابعة وتدعو إلى الصبر وتأتي بالثمرات المتزنة المرجوة. وهو بحاجة إلى توسع وتتبع أكثر، وتحقيق وتدقيق أوفر، وسَيْر جاد، وتفرغ لمجموعة أو هيئة سخية، لِتُوَفِّر كذلك المصادر والمراجع كافة مطبوعة ومخطوطة معلومة وتبحث عن المجهولة. لعل ذلك يتم - إن شاء الله تعالى وبحمده وفضله - في قابل الأيام، آملين أن تظهر وثائقه ومصادر أخرى حوله، تنصفه وتحدده وتجدده.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد الهادي الأمين، وندعو الله بالهداية لكل ما يرضيه في الحياة الدنيا وإلى يوم يقوم الأشهاد. وأن يمدنا سبحانه بالقوة من عنده للوقوف والمواقف والبحث الرصين ليكون كل ذلك هداية إلى دينه القويم دين رب العالمين وهدية ميمونة مباركة إلى أهل الأرض أجمعين.

بغداد المحروسة، العامرية المعمورة والمُضْيَفة المشهورة.

الجمعة: ٨ ربيع الثاني ١٤١٤هـ - ٢٤/٩/١٩٩٣م

---

(١) نهاية الأندلس، ٤١٧، ٤٢٣.

(٢) انظر: أعلاه، ١١٥.

ضَميمة

بعد البحث الطويل والمتابعة المستمرة والتجول في المواقع والمصادر والمراجع ـ فضلاً عن الخبرة الميدانية لسنين أو لعقود، منذ وقت مبكر، حتى قبل التخصص ـ أمكن بفضل الله الخروج بهذا الموضوع البِكْر المبتكر الجديد، بفكرته ووجهته ومفرداته، في تتبع العلماء الذين هاجروا من الأندلس حول أحداث السقوط ـ سقوط غَرْناطة ـ قبيل وخلال وبُعَيْد ذلك، وتَبَيُّن ظروفِ هذه الهجرة، التي قادت لها وآثارها المتسعة الموسعة الكبيرة الخطيرة التي تخلفت عنها، لا سيما في ذلك الزمان وطبيعة تكوين المجتمع الإسلامي وموقع علمائه عند أهله. ولقد أفادني بحث ودراسة وكتابة هذا الموضوع فائدة جليلة، إذ أطلعني على أُمهات كتب ومصادر مفيدة جديدة. قمت بقراءتها ودراستها ومراجعتها، من ألفها إلى يائها، قراءةَ دراسة وتفهم، وتَفَهَّمْتُ أكثر ـ بوضوح وتميز وعمق ـ على قضايا وأحداث وشخصيات هذه الفترة المعقدة الحرجة الغامضة. فضلاً عن تفتح وتوجه وتنبه لموضوعات أخرى جديدة. وبذلك يكون قد أفدتُ منه في مجال دراستي وبحوثي وتخصصي الأندلسي المَهِيب.

كما أنّ هذا الموضوع أتعبني وشغلني واستوعب الكثير من وقتي، حتى خرجتُ والحمد لله بهذا البحث، الذي أعتبره وثيقة تاريخية علمية معتمدة، غاية في الأهمية، وعوناً ومرجعاً لكل مَن يحتاجه ويهمه ويطلبه. لا يمكن ولا يصح ولا يجوز الاستغناء عنه، بَلْه كونه أساساً ومفتاحاً ودليلاً لكل ما يتعلق به وباحة وقاعدة ومائدة لأمثاله وامتداداته ومتعلقاته في موضوعات التاريخ الأندلسي والتاريخ الإسلامي العام.

وموضوع" هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غَرْناطة، ظروفها وآثارها "، مهم وجدير بالعناية، ولا بد من استمرار المتابعة فيه. فهجرتهم في تلك الظروف لها أبعاد أي أبعاد! وهم كذلك موضوع متجدد في عصور كثيرة، وحتى في الوقت الحاضر. لكن مكانة العلماء

في المجتمع المسلم تجعله ذا ثِقَل أكثر وأثر أكبر وأهمية أجدر.

وظني أن هؤلاء العلماء الأندلسيين المهاجِرين الذين ذُكروا وأمثالُهم ـ في الأندلس وغيره ـ وقد هاجروا من الأندلس، لأي سبب وحجة ومبرر ـ وهو موضوع هذه الدراسة ـ لو بَقَوْا في الأندلس لتغيرت ماجريات (مُجريات) الأحداث: بحربها ومواجهاتها وثمارها. ربما لو حدث ذلك لَمَا اتسعت الهجرة من الأندلس إلى خارجه، ولَمَا لجأ المسلمون فيه إلى أن يكونوا غرباء مورسكيين LOS MORISCOS ـ أو حتى مُدَجَّنين LOS MUDEJARES ـ يُظهرون النصرانية ويُبطنون الإسلام(1). وربما لفشلت أو شُلَّت أو تهشمت قيود محاكم التفتيش وأدواتها ووسائلها في الأندلس كله (إسبانيا والبرتغال)، وعلى الأقل في مملكة غَرْناطة، التي ستكون موئلاً لبقية المسلمين في الأندلس، ترعاهم وتحميهم وتستوعبهم عند الضرورة، كما كانت كذلك أثناء قيام مملكة غَرْناطة. ولعله ـ لو لم تكن هجرة العلماء هذه ـ لبقي المجتمع الأندلسي، على أقل تقدير، جالية متميزة كالجاليات الموجودة في بلدان كثيرة، يُمَثِّل فيها المسلمون أقلية. بينما في منطقة غرناطة ممكن أن يكونوا أكثرية، حيث يُقَدَّر عدد المسلمين في الأندلس ـ وربما في مملكة غرناطة، عند السقوط ـ بين ستة وثمانية ملايين مسلم، إن لم يكن أكثر.

* * *

والحق أنّه لا بد هنا من إبداء ملاحظة مهمة: أنّ دول أوربا الغربية ـ والشرقية كذلك، التي انفرطت قيودها الحديدية الصُّلْبة نهائيًّا، وإلى غير رجعة ـ بتعصبها وحربها لكل ما هو إسلامي، والروح الصليبية التي تعاملت بها مع ذلك، أنها لن تصد المد الإسلامي الكريم

---

(1) أنوي ـ بعون الله تعالى ـ تأليف كتاب شامل عن المورسكيين "الأندلسيون الغرباء". وقد أطلق الفقيه المغربي أحمد بن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني عليهم اسم الغرباء فيما كتبه إليهم سنة (٩١٠هـ).

قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.[البقرة، ١٢٠].

فحسب، ولم توقف عبور ما يتعلق بالعقيدة والشريعة، بل قضت على كل وجود إسلامي فيها وحاربته وخنقته، لا سيما في إسبانيا النصرانية، وحتى وقت قريب[1]. وما كنا نجد - إلى هذا الوقت القريب، إلا ما ندر - أثراً لجالية إسلامية أو ثقلاً أو حقوقاً في بلد أوربي. لكن، ولظروف وأسباب وعوامل متغيرة، بدأنا في القرن الحالي - لا سيما منذ أواسطه - نجد موقعاً لجالية إسلامية، رغم كل الاضطهاد. وورثت أمريكا - شَمالها وجَنوبها، وبقيادة الولايات المتحدة الأمريكية - هذا الأمر[2].

---

(١) حاربت إسبانيا النصرانية الإسلام واستمرت في ذلك إلى حد الغُصة، وحتى بعد ما قضت على كل ما هو إسلامي، بعد أربعة قرون من تلك الحرب بقيادة محاكم التفتيش - سلطة وكنيسة - فلم يكد يبقى - إلا ما ندر - أي أثر في الحياة الإسلامية للإسلام في إسبانيا - أو هكذا أرادت - غير الآثار المشوهة والمكبوتة والمقهورة في الإنسان والمكان والأذهان. وكل هذا الوصف يشمل تلك الأحداث وما تبعها.

أما الكتب التي نَهبت بعضَها واحتجنتها وحبستها، وبقيت قابعة مثلاً في أقبية قصر الأسكوريال EL ESCORIAL، كانت لا تسمح بالاطلاع عليها، بعد أن أحكمت غلقها وأودعتها ظلام أقبيتها ودهاليزها، بجانب ما أحرقت من كنوز فريدة وجهود عتيدة وعلم مجيد. وبقي الأمر كذلك لمدة طويلة. الآثار الأندلسية الباقية، ٣٤٩ . مواقف حاسمة، ٣٢٩ . نهاية الأندلس، ٥٠٤ . وهذا الاتجاه تعدى إلى غير الكتب وشمل بالطبع كل شيء. الحلل الأندلسية، ١ /٣٠٧ . وظهرت هذه الروح كذلك بإهمال حتى الآثار العمرانية التي غدت نهباً للخراب وللامتلاك وللغربان. الآثار الأندلسية الباقية، ١٧٧ - ١٧٨ .

ولم تَعِ هذه السياسة الهوجاء مكانة وأهمية وفائدة هذه الآثار لمصلحتها إلا في أواسط أو أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ابتداءً بالحفاظ عليها وترميمها، لتكون أكبر جذب سياحي في العالم. فإسبانيا اليوم - ومنذ سنين عديدة، تبلغ بضعة عقود - أول بلد سياحي في العالم، بسبب الآثار الإسلامية فيها.

(٢) هذه الروح الصليبية عامة، ترعاها الكنيسة ولا تنفك عن تغذيتها بالفاسد من التوجيه المضلل ومن التحريض المتحامل والملفق من الأباطيل. وسَرَت هذه الروح إلى أجهزتهم المختلفة وحتى التعليم وكتب المدارس. فهي الروح العامة إلا ما ندر. لكن الأسوأ من ذلك، وجود محاكم التفتيش، وقد انتقلت - بروحها وأدواتها وإجراءاتها - إلى القارة الأمريكية، شَمالها وجَنوبها. ظهر هذا في أكثر من مكان وما زال في أي شكل من الأشكال. واضطهادات السود في الولايات المتحدة هي امتداد لهذه الروح، على أساس أنّ هؤلاء السود جُلبوا من القارة الإفريقية - من بلدان إسلامية - عبيداً أرقاء، وفوق الاضطهاد أُجبروا على التنصر. انظر: محاكم=

وعلى الرغم من حسن تعامل المسلمين خلال تاريخهم مع النصارى واليهود وغيرهم - وبشكل واضح في الأندلس، اعترف به ومَجَّده كثير من علمائهم المنصفين - في كل موقع، والانتفاع العلمي والحضاري والحياتي في مجتمعاته لهم، أبقوا على كل ما لهم ورعاية حقوقهم آمنين، أماناً لم يروا مثله ولم يُسمع به، أبقوا حتى على المعابد والآثار الوثنية القديمة التي لا تستعمل[1]. فهم لايكنون للإسلام وأهله ومتعلقاته غير الحقد الأعمى الموروث، وهو ما نسميه بالصليبية. وهم - للأسف الشديد - لا ينفكون يغذونه بكل الوسائل.

وبالنسبة إلى اليهود فخلال كل تاريخهم - بله الذي قبل الإسلام - لم يجدوا تعاملاً حسناً وتسامحاً وإنصافاً إلا يومَ عاش منهم مَن عاش في المجتمع المسلم، والأندلسي منه بالذات. ويكفي دليلاً على ذلك ما جرى لهم في أوربا - وفي قرونها الوسطى - ومحاكم تفتيشها منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وحتى في الأندلس منذ القرن الخامس عشر، يوم انحسر المجتمع الإسلامي في الأندلس. وإذا كانوا قبل ذلك، أيام المجتمع الإسلامي الأندلسي، يَحْيَوْن خَيْرَ حياة رأوها خلال قرونهم الماضية كلها، فهذه هي طبيعة الإسلام وحقيقة هذا الدين الرباني. وهي فروق لا بد منها لاختلاف الطبائع والحقائق والأسس، بين الإسلام العظيم وغيره، وهو أمر طبيعي.

وأما بعدها فقد واجهوا محاكم التفتيش على يد النصارى أنفسهم، سواء في أوربا أو غيرها، وكذلك في إسبانيا، بعد ذهاب السلطة الإسلامية الأندلسية، التي حمتهم ورعتهم

= التفتيش، ٤٧ . ولعلهم بعون الله يعودون إلى دينهم، أقوى انطلاقاً وأكثر إشراقاً وأوعى وأوسع نطاقاً. فقد قامت محاكم التفتيش في بعض مناطق تلك القارة. وهناك بحوث هي بمثابة مقدمات لدراسة هذا الموضوع، تقوم على الوثائق والتتبع العيني والتنقيب عن سجلاتها.

(١) الآثار الأندلسية الباقية، ١١ وبعدها.

وأمنتهم. ولكن مع كل هذا نرى حقدهما الدفين اللئيم القاتم - اليهود والنصارى، أهل الروح الصليبية والعدائية منهم، وما أكثرهم - كيف يعاملون الإسلامَ وأهلَه. وهذا حتى الوقت الحاضر واضح ومكشوف ومتكرر في الحروب الحديثة المبيدة، التي تجري في أي بلد بينهم وبين المسلمين. وفي غير الحروب، تبقى هي كالحروب. ليس هذا فقط، بل اجتمع اليهود والنصارى واتفقوا واتحدوا - وهو أمر عجيب، وما كان ذلك ليكون، لولا أن جمعهما الحقد وحده، والكفر ملة واحدة - ليحاربوا الإسلام وأهله. وما إسرائيل إلاّ عصا هذه الروح الشريرة العمياء تجاه الإسلام والمسلمين ومتعلقاتهم.

فإذا عدنا للحديث عن الهجرة من الأندلس إلى خارجها، فهو اتجاه له عِدة وجوه. لكن هذا الاتجاه الذي جرى - في الهجرة من الأندلس إلى خارجها - كان الأخذ به، بعد سقوط غرناطة واستسلامها والاستيلاء عليها، قويًّا؛ وغدا سُنَّة متبعة لم يجد الكثيرُ فيها حرجاً، بل غدا كذلك أحياناً أملاً مرموقاً وسبيلاً مطروقاً. ولو وقف العلماء منه موقف المواجهة المقتدية ودعوا إلى نبذه، مثل موقفهم من رفض نبذ بيعة أبي الحسن علي بن سعد[1]، التي رفضوها بقوة، لو حدث ذلك، ربما كان سيتغير الحال، ولاعتُبِرت الهجرة من الأندلس أشبه بالفرار يوم الزحف، الذي عُدَّ مِن السبع الموبقات[2] (المهلكات).

(١) انظر: أعلاه، ١٤٨ وبعدها.

(٢) من حديث شريف للرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، أخرجه البخاري ومسلم (متفق عليه) الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي الكريم صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: " اجتنبوا السبع الموبقات ". قالوا: يا رسول الله، وما هنّ؟ قال: " الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ". صحيح البخاري، ٣/١٠١٧. مسلم، ١/٩٢. ويرد الاستشهاد بهذا الحديث الشريف في تفسير الآية الكريمة رقم ١٥ وبعدها في سورة الأنفال: ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ لدى العديد من المفسرين قدماء ومحدثين.

لكني لحسن الظن بهؤلاء العلماء المهاجرين وغيرهم عموماً ـ لمكانتهم وعلمهم وسِيَرهم ـ لا أضعهم هذا الموضع الاتهامي ـ حاشا لله ـ بل أعتبرهم اجتهدوا فأخطأوا. وكان الحدث الجَلَل المفاجئ المتسارع وظروفه الغامضة نوعاً وما أحاط به تجعل الحليم حيراناً، ربما لم يدع مجالا للتروي في اختيار القرار، أما الهجرة الجماعية للمسئولين والجماهير، صحبهم وتبعهم العلماء دون انتظار، جعل هذه الظاهرة تأخذ تلك الصيغة الخطرة. ولعلهم لم يكونوا يتوقعون هذه النتائج والآثار والاعتبار، إذاً لغيروا اجتهادهم، فلهم إن شاء الله تعالى أجر على هذا الاجتهاد، الذي لم يقصدوا الإهمال فيه أو الوقوع في مثل هذا الخطأ أو الوهم. اجتهدوا رأيهم ولم يألوا[1]، والله تعالى أعلم وهو أحكم وأكرم. وهذا كله بجانب الفتوى الونشريسية التي أحاطت بكل ذلك ومهدت له بل وأحكمته كذلك.

ويقف في الجانب الآخر علماء آخرون وأنجاد وقادة لم يرحلوا من الأندلس، وأبوا ذلك أشد الإباء، مع سهولة إنجازه وتوفره لديهم. لكنهم اختاروا الأمثل والأفضل والأجمل. وآمل إفراد هؤلاء العلماء ببحث مستقل راجياً عون الله فيه. ولكن كانت هذه للبحث الحالي ضميمة ـ وهاهي أمامك ـ لا بد من بيانها:

فبالنسبة إلى الهجرة الخارجية، أي إلى خارج الأندلس، فإن هذه الدراسة التي تعتني بهؤلاء العلماء المهاجرين، ليست معنية بمن هاجر منهم من الأندلس إلى خارجها مبكراً قبل السقوط، سقوط غرناطة ٨٩٧هـ(١٤٩٢م) بعقود من السنين[2]. وطبعاً ليس معنياً بمن هاجر قبل ذلك بقرون من علماء الأندلس وأهلها، وسكنوا بلداناً إسلامية

---

(١) قياساً واقتباساً لحديث الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم: " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " (متفق عليه).

أخرجه البخاري، ٦/٢٦٧٦. مسلم، ٣/١٣٤٢.

(٢) من أمثلة ذلك، راجع: برنامج المُجَاري، ٣٠.

أخرى[١] . فذلك ربما كان اعتياديًّا ومرغوباً لأن العالِم يمكن أن يختار أي موقع من البلاد الإسلامية يؤدي فيه واجبه . ولقد أفرد المَقَّري الجزء الثاني من" نفحه" لتراجم بعض الأندلسيين الذين رحلوا أو هاجروا من الأندلس إلى المشرق . فمنهم من عاد إلى الأندلس، ولكن آخرين كثيرين استقروا فيه نهائيًّا، هنا وهناك، ولم يعودوا أبداً حتى للزيارة . فالعالَم الإسلامي كله واحد في ولائه وكلهم إخوة في الله، مرتبطين بدينهم الحنيف ويستظلون بظله . وانتماؤهم واحد تجمعهم آصرة التوحيد عقيدة، والتوحد بشرعه وتعاليمه ومفاهيمه رابطة . وهؤلاء العلماء لاعتبار، يلحقهم من استقر منهم خارج الأندلس، أو من عاد إليها بعد رحلته، لا يجد حرجاً . لكن أحياناً في بعض الظروف يستوجب البقاء في بلد معين، ويبدو له مُرَجَّحاً حتى لو لم يكن موطنه . فكيف في ظروف موجبة لذلك، وهو في موطنه، فهو بدون شك أوجب . كما أنّ هذا البحث ليس معنيًّا بمن هاجر من الأندلس بعد السقوط بعقود كثيرة، من أمثال : الشهاب الحَجْري (الحَجَري) وابن عبد الرفيع وابن غانم وغيرهم، ممن هاجر بعد السقوط بما يزيد على القرن .

فإذا اعتبرنا كل تلك الهجرات للعلماء رحيلاً أو هجرة خارجية إلى خارج الأندلس، فقد كانت هناك هجرة داخلية في أوقات الانتقال من مدينة إلى أخرى ليستقروا فيها من جديد . وذلك اعتيادي ومألوف ومكرر، ولكن الأهم من ذلك الهجرة التي كانت تجري داخل الأندلس من المدن التي سقطت بيد السلطة النصرانية الإسبانية والبرتغالية وخضعت لحكمهم، حيث كان يبقى الكثير من المسلمين في تلك المدن، وهم الذين عرفوا بالمُدَجَّنين LOS MUDEJARES[٢] .وكان هذا اللون من الهجرة ـ للعلماء وعموم المسلمين ـ

---

(١) الأمثلة على ذلك كثيرة . وكما أشير فلقد جعل المقري الجزء الثاني من" نفحه" كله تراجم، لمن هاجر من الأندلسيين إلى خارج جزيرتهم . والعديد منهم لم يعودوا إليه، بل استقروا هنا وهناك من أرجاء العالم الإسلامي الذي اختاروه .

(٢) التاريخ الأندلسي، ٥٣١ وبعدها . انظر كذلك : ٦٠، ٢٣٠ .

يتم وما تزال للمسلمين سلطة سياسية في الأندلس تتمثل في مملكة أو أكثر[1]. ولكن هذه كانت أوضح أيام مملكة غرناطة، قامت في جنوب الجزيرة الأندلسية (الإيبيرية) واستمرت نحو ٢٦٠ سنة، على غير المتوقع وفي كل الحسابات[2]. فكانت مملكة غرناطة ـ السلطة السياسية الإسلامية الوحيدة في الجزيرة الأندلسية ـ مأوى الطريد وملجأ الشريد والملاذ الآمن للمسلمين في تلك الديار، كما غدت مجمع الطاقات وملتقى الإمكانيات ورباط الجهاد ومأوى النَّجَدَات ودار العلم والمعرفة وموطن الفراسة والفروسية.

كل هذه الاتجاهات والأسباب والظروف في الهجرة داخل مدن الأندلس وممالكها ـ لا سيما الأخيرة، غداة قيام مملكة غَرْناطة ـ كانت لها موجباتها ومبرراتها، بل استحثاثها (استحفازها). فالهجرة داخل الأندلس ـ منها وإليها ـ وبالشكل الذي جرى، مألوف ومعهود ومشهود. والبحث الحالي غير معني بها، وكذا ليس معنيًّا بكل أنواع الهجرة من الأندلس إلى خارجه، إنما هو معني فقط بنوع واحد من الهجرة من الأندلس إلى خارجه. هي تلك الهجرة التي تمت لدى سقوط غرناطة ـ قبيلها وخلالها وبعيدها ـ والتي تخص العلماء ـ علماء الأندلس ـ ومن ماثلها. فالعناية ببحث هجرة العلماء بشكل أساسي، ودراسة ظروف ذلك وآثارها وتأويلاتها، هو موضوع هذه الدراسة المعتنية المتأنية المتابعة.

ولقد جرى تتبع هجرة علماء الأندلس حول السقوط وكل ما يتعلق بها ودراسة هذه الظاهرة، وإفراد مَن عُرِفت أسماؤهم وأخبارهم ووجهاتهم، فَوُجِدوا أنّهم يُعَدُّون ثلاثة عشر مُهاجراً. والعديد منهم كانوا مع أُسرهم، النساء والرجال والأطفال. وربما يوجد هناك آخرون غير معروفين لديَّ الآن، يَظهرون من متابعة مصادر أخرى حين تَظْهَر وتُنْشَر، وأخرى قد تكون مخطوطة. كما لا يتناول هذا البحث أُولئك العلماء الأندلسيين الذين هاجروا من الأندلس إلى خارجها قبل السقوط أو بعده بعقود من السنين، كما سبق بيانه.

---

(١) قارن: التاريخ الأندلسي، ٣٣٣، ٣٥١.

(٢) التاريخ الأندلسي، ٥١٩ وبعدها.

ولكن هناك أسماء علماء أندلسيين، تجمعت لديَّ خلال دراسة هذا الموضوع والمتابعات والمراجعات الكثيرة، لا يمكن إلحاقُهم بهؤلاء العلماء الأندلسيين المهاجرين الثلاثة عشر. وأردت أن أُدْرِجُهم في هذه الضميمة. وهؤلاء جعلتهم على ثلاثة أقسام أو أنواع أو أصناف:

أولاً: علماء أندلسيون لم يُعرف حالهم. وهؤلاء علماء عَرفتُ نتفاً أو شذوراً أو نثوراً من أخبارهم، عاشوا أيام الأحداث حول السقوط، ولم أتعرف على أحوالهم ولا على التواريخ المتعلقة بهم والأحداث المشاركين فيها. وأسوق بعض الأمثلة:

١ ـ الشيخ الإمام الكاتب أبو عبد الله محمد بن الجبير اليحصبي الأندلسي. وهذا مثال واضح وصالح على هذا النوع الحالي. واحتمال أنه لم يهاجر من الأندلس، وإن ليس لدينا على ذلك دليل ولا نملك عنه تفصيلاً، إن كان قد أقام أو أخذ بالرحيل[١].

٢ ـ الفقيه أحمد العبادي[٢].

٣ ـ الفقيه الوجيه الأديب أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الشران الغرناطي[٣].

ثانياً: علماء استقروا بالمغرب يحملون لقب الأندلسي[٤]، وقد يشار إلى أصلهم الأندلسي أحياناً. وهذا يعني أن أُسرته أو والده أو جده من الذين هاجروا من الأندلس، ولعله من العلماء. وهناك أمثلة عديدة لهؤلاء، منهم:

---

(١) أزهار الرياض، ٣/٣٠٢ـ٣٠٤، ٣١٣.

(٢) أزهار الرياض، ٣/٣٠٧.

(٣) أزهار الرياض، ١/١٣٣ـ١٤٥، ٣/٣٠٤. نيل الابتهاج، ٣١١.

(٤) تكثر حتى الآن الأسر الأندلسية التي هاجرت إلى الشمال الإفريقي التي ما زال الكثير منها يحتفظ بألقاب أندلسية وهم يحافظون عليها ويعرفون حقيقتها ويعتزون بها، بل إن بعضهم ما زال يحتفظ بمفتاح داره الأندلسي الذي تركه وهاجر إلى المغرب أو بقية بلدان الشمال الإفريقي. والباحث ربما ـ ليس بصعوبة ـ يستطيع أن يلتقي بنماذج من هؤلاء، كما رأيتُه مرة أو أكثر. وربما مثيل ذلك لبعض الأُسر الإسبانية الآن.

١ ـ محمد بن علي بن عدة الأندلسي، لم يُشَر إلى أصله الأندلسي، لكنه يحمل لقبه[١].

٢ ـ أحمد بن قاسم بن علي القدومي الأندلسي، كذلك لم يُشَر إلى أصله الأندلسي وإنما يحمل لقبه[٢].

٣ ـ محمد بن رأس العين الأندلسي، أيضاً لم يُشَر إلى أصله الأندلسي ولكنه ذُكِرَ بلقبه[٣].

٤ ـ أحمد بن شعيب الأندلسي ثم الفاسي (١٠١٥هـ) لم يُشَر إلى أصله الأندلسي لكن جرى الاكتفاء بلقبه منه[٤].

٥ ـ أبو العباس أحمد بن قاسم بن معيوب (١٠٢٢هـ)، لم يحمل لقب الأندلسي لكن أُشير إلى أن أصله من الأندلس، وكان مُؤَقِّتاً في فاس وعاش بها[٥].

٦ ـ إبراهيم بن محمد بن محمد المغربي (٩٨٨هـ) كذلك لا يحمل لقب الأندلسي، لكنه عُرِف بأصله الأندلسي وأُشير إليه[٦].

٧ ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي الرافعي اللخمي الأندلسي الأصل التطواني (١١٠٩هـ)، لم يحمل لقب الأندلسي لكن أشير إلى أصله منه[٧].

٨ ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الغساني الأندلسي الفاسي (١١١٩هـ = ١٧٠٧م) ربما بجانب حمله اللقب أُشير إلى أصله الأندلسي. وأبو عبد الله وزير من المؤرخين وهو

---

(١) درة الحجال، ٢/٢١٣.

(٢) درة الحجال، ١/١٥٦.

(٣) درة الحجال، ٢/١٦٣.

(٤) الأعلام، ١/١٣٥.

(٥) الأعلام، ١/١٩٨.

(٦) الأعلام، ١/٦٧. تاريخ الفكر الأندلسي، ٤٥٨.

(٧) الأعلام، ٦/٢٩٥.

صاحب كتاب" رحلة الوزير في افتكاك الأسير" . تولى مهام دبلوماسية إلى إسبانيا وربما إلى غيرها، وعاش في فاس القرويين[١] .

ثالثاً: علماء أندلسيون هاجروا في أوقات غير معلومة، لكنها على كل حال بعد السقوط وفي تواريخ متفاوتة. وهؤلاء ليسوا ممن أُشير إلى أصلهم الأندلسي فحسب، بل وأُشير إلى هجرتهم من الأندلس بوضوح أو هجرة آبائهم إلى خارج الأندلس إلى الشمال الإفريقي أو غيره بعد السقوط.

ومن خلال المتابعة جرى التعرف على ثلاثة من هؤلاء، هجرتهم متفاوتة التواريخ، وقد يُلحقون بهذا الصنف أو ذاك:

١ ـ أبو عبد الله محمد بن قاسم بن أحمد بن علي القيسي الفاسي، يعرف بالقَصّار (لقباً لا صناعة)، الأندلسي الأصل، الغرناطي النِّجار الفاسي الدار والقرار (١٠١٢هـ= ١٦٠٤م). وقد ذَكَرَتْه عدةُ مصادر وأشار إليه صاحبُ" نيل الابتهاج" في نص سبق اقتباسه، خلال الحديث عن العالم الفاضل المتفهم المَوّاق:"وأخبرني صاحبنا أبو عبد الله القَصّارمفتي فاس اليوم أنه لَمّا استولى النصارى على غَرْناطة ـ دمرهم الله ـ وجدوه بها وهو حيّ فسألوا عمّن هو المقدم بها في العِلْم فأُشير بالمَوّاق فأمروا بإحضاره عندهم فامتنع فكلّمه الناسُ فحضر عند وزير الطّاغية فبسط الوزير له يده فَقَبَّلَها المَوّاق رحمه الله، فلما خرج من عنده أنكره الناسُ، فلم تلبث يد الوزير الكافر المُقَبَّلة أن تَوَرَّمَتْ وتَوَجَّع منها فأمر برد المَوّاق إليه وطلب منه الدعاء "[٢]. ولعل الذي شاهد ذلك وعرفه أو سمع به هو قاسم أبو أبي عبد الله محمد (قاسم)، الذي كان في غرناطة وقت السقوط وهاجر بعد ذلك.

---

(١) الأعلام، ٦/٢٥٦ . نهاية الأندلس، ٥٠٧ .

(٢) نيل الابتهاج، ٨٨، ٣٢٤ . روضة الآس، ٣١٦ وبعدها، ٣٣٢ . درة الحجال، ٢/١٥٣ ـ ١٦٢.

وأبو عبد الله هذا مُحَدِّث المغرب في وقته، أصله من غَرْناطة، خرج أبوه (قاسم) منها لما استولى عليها الإسبان سنة (٨٩٧هـ). ومولده (أبو عبد الله) وسكنه بفاس[١]. وأبو عبد الله محمد القَصّار هذا من أحفاد ابن الأزرق الأَصْبَحي، أحد العلماء المهاجرين الذين تمت دراستهم باستفاضة من هذا الاعتبار، لا سيما ما يتعلق بهجرته[٢]. وابن الأزرق يكون من أجداد القَصّار لأمه[٣].

٢ـ قاسم بن محمد بن إبراهيم الغساني الشهير بالوزير من العلماء، أندلسي الأصل (٩٥٥ ـ ١٠١٩هـ)[٤]. ويصفه المَقَّري ـ وقد التقى به في فاس ـ بـ" الطبيب الماهر الثقة الصالح العلاَّمة سيدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني الأندلسي الأصل الفاسي المولد والنشأة "[٥].

٣ـ أحمد الشريف الأندلسي. والمعلومات التي وجدتها عنه فقط من كتاب" ذيل بشائر أهل الإيمان" الذي أورد اسمه ضمن علماء الحضرة التونسية، فيقول عنه: " جُلِيَ من بلاده لَمّا تغلب عليها النصارى وتوجه إلى بلاد الروم وتوطن ببلاد البوشناق وتفقه على علمائها وانتقل إلى بورصا وأخذ من أجِلَّة علمائها. وكان رفيقه في القراءة المولى يحيى شيخ الإسلام على أيام السلطان مراد فاتح بغداد. وتوجه من هناك إلى بلاد المغرب فتوطن في تونس "[٦]. فتكون هجرته من الأندلس ـ على ما يبدو ـ متأخرة نوعاً مّا. فربما كانت

---

(١) الأعلام، ٧/ ٦ .

(٢) أعلاه، ١٦٣ وبعدها.

(٣) مقدمة كتاب: بدائع السلك، ابن الأزرق، ١٨ .

(٤) الأعلام، ٥/ ١٨٢ .

(٥) نفح الطيب، ٢/ ٢٤٩ . روضة الآس، ٢١٧ . راجع كذلك: درة الحجال، ٣/ ٢٨٩ . ظاهرة تعريبية في المغرب أيام السعديين، بحث: صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ١١ـ ١٢/ ٣٣٢ .

(٦) ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، ١٧٠ .

البوشناق: البوسنا Bosna . ولم يحدد تاريخ وفاته، لكن ممكن معرفة وقته من معرفة تاريخ حكم ووفاة السلطان=

هجرته بعد السقوط بعقود من السنين حيث أقام في مناطق متعددة كما يُفهم من النص المتعلق به. وهو شبيه بذلك ـ إلى حدٍ مّا ـ ربما بهجرة الشهاب الحَجْري وابن عبد الرفيع والرئيس ابن غانم.

والآن يمكن القول: لقد كانت هذه الضميمة أو الضمائم من أسماء علماء ذات أصول أندلسية هاجروا أو هاجرت أُسرهم، لكن ليس لدينا معلومات واضحة عنهم، لعل البحث يأتي بأخبار واضحة عنهم وعن غيرهم، تضعهم ضمن ترتيبهم المناسب هنا أو هناك من العلماء الأندلسيين المهاجرين: موضوع الدراسة.

=العثماني مراد الرابع الذي تولى الحكم من سنة ١٠٣٢هـ= ١٦٢٣م، وحتى وفاته في ١٦ شوال ١٠٤٩ (٩/٢/١٦٤٠م)، فكانت مدة حكمه ١٦ سنة و ١١ شهراً.

تاريخ الدولة العلية العثمانية، ٢٨٥ . الحلل التونسية (ابن السراج)، ٢/١/١١٩ .

(١) أخرجه الترمذي رقم ١٩٨٧ . وأحمد، ٥/١٥٣ .

خاتمة ونتيجة

والآن وبعد أن انتهيتُ من كتابة الموضوع ـ مكثراً حمدَ الله ـ الكتابة الثانية، بل الثالثة، التي استغرقت بضع مئات من الساعات المتواصلة المركزة ـ ولبضعة شهور كثيرة ـ فأعتبره وثيقة علمية معاصرة للتاريخ الأندلسي، لا سيما الفترة الأخيرة وبالذات أحداث السقوط، الغامضة المعقدة الكثيرة التعقيد الشحيحة المعلومات.

وكان هذا البحث ـ بما احتواه ـ كتلة من التوثيقات والتدقيقات والمعلومات المعتمَدة المستمَدة من الأُمهات، ومضافاً إلى معيته ـ بجانب ذلك كله وغيره ـ الشعور بأني أخاطب بهذا التاريخ حاضره، متصلاً وممتدًّا ومترابطاً. كما غدا الموضوع في حجمه، أضعاف الكتابة الأولى والثانية المنقحة، التي كانت جاهزة للطباعة، بعد أن كان في البداية وليداً، نما وكبر. واتسع من بعد، حيث كان نضوجه ـ بمقدار ـ في الكتابة الأولى والثانية، حتى اشتد عوده في هذه الثالثة. فمثلاً عدد المصادر ـ بجانب نوعية الكثير منها وأهميتها، من حيث صلتها بالموضوع ـ غدت أضعاف أضعاف عددها في الكتابة السابقة، وكذلك عدد الحواشي بلغت أضعافاً مضاعفة. كما أعمل الآن (جمادى الأولى ١٤٢١هـ = آب / أغسطس، ٢٠٠٠م ـ فبراير ٢٠٠١)، على مراجعته وتدقيقه وتحسينه لإرساله للمطبعة بصيغته الأخيرة إن شاء الله تعالى.

وأشعر أنني استعنت واستعملت أهم المصادر المعروفة، وبعضها نادر ـ كان منها المخطوط، توفر فضلاً من الله تعالى، الأساسيات منها ـ أكون، بعون الله ومشيئته، قدمتُ غاية الجهد في ذلك، صبراً وسهراً، وقبلها سفراً متنوعاً ومتكرراً ومتعدداً ومُكْلِفاً. يقود ذلك كلَّه الجدُ والصدق والإخلاص، الذي يقوم على الرغبة في العلمية الحقة الأمينة الرصينة وإعطائها مواصفاتها المتأهلة المتأصلة التي عرفها أسلافنا، خدمة لتاريخنا الإسلامي، والأندلسي جزء منه. فهو التاريخ الذي قامت حسناته المباركة وامتدت أفياؤه الندية

وتهطلت ثماره الممتعة، بمقومات هذا الدين ـ الإسلام دين الفطرة، دين الله الحق ـ وارتقت به وبُنيت عليه في إقامة المجتمع الإسلامي، ليكون مناراً للبشرية وملاذاً للإنسانية ومحضناً لحضارتها الوضيئة الأبية. ولا بد من ذلك تماماً في كتابته.

ويوم يقوم هذا المجتمع المتحضر ـ في واقع الحياة ـ يأتي الفيض الكريم والخير العميم للإنسان، ينشده حين يُدركه ويسعى إليه ويضحي من أجله، حتى لَيُصْبِح محورَ حياته وموئلَ حضارته ورغباته الوجيهة الوضيئة ودليلَ إنسانيته، وإلا فهو يستريح إليه ويتذوق ثماره ويتفيأ ظلاله، بل وحتى يستَضيء بنوره، وعلى الأقل في بعض من أموره. وما عدا ذلك فالخشية أن يحقد عليه فيحاربه، ويجهله ـ عمداً أو يتجاهله أو يتجهله ـ فيعاديه، ويبتعد عنه فيباديه بالكراهية والعداوة التي ـ لأسباب أخرى ـ تصل إلى الحقد المتأصل والتحريب المتواصل والتتبع المتقاتل.

وهذا ما حدث في الأندلس بعد تلك العهود الفضلى والأيادي الجُلَّى والسيرة المثلى، ما نالت منهم ولا حرمتهم، بل أحسنت إليهم، التي لم يشهد العالم مثلها ولن يشاهِد ـ لا من قبل ولا من بعد ـ إلا بهذا الدين: الإسلام وحده، ما دام له الولاء والالتزام والإيواء، والذي تقوم طريقته في بناء الحياة الكريمة للبشرية على بناء النفس الإنسانية عموماً والفرد منها كذلك عليه ـ عقيدة وشريعة وسلوكاً ـ لا يَرْضَى به بديلاً ولا عنه تحويلاً، لتقوم الأُسرة نواة المجتمع ولبنة بنائه، وبذلك يقوم المجتمع ويكون كياناً قويًّا بكل أركانه وأعوانه وسلطانه.

فالمجتمع الإسلامي الذي يتحرك بالإسلام ويسير في الحياة عليه، يقتديه ويفتديه، منه تنبع زعاماته المتنوعة: أمراؤه وعلماؤه. وليس له اليوم وجود في الوقت الحاضر، آملين بعون الله قيامه ـ عاجلاً أو آجلاً ـ والسّعي إليه مسئولية أهله وأتباعه، سيما علمائه وأعلامه ومسئوليه.

وحتى إذا قَصَّر أمراؤه أو أساءوا أو باءوا وباعوا، فيبقى علماؤه لمجتمعه قدوة وإمامة وزعامة في حياته وجهاده، وفي ميادينه ملاذاً، وفي المعترك مهمازاً، وفي الأهوال كهفاً معتمداً وأماناً متجدداً، وللإنقاذ مأرباً أو قارِبَ نجاةٍ ويداً. ولا أعني هنا غير علماء الصدق العاملين، وغيرهم عدداً منبوذين وربما في عداد المجهولين المنزوين. وهذا ما رأيناه في عصور التاريخ الإسلامي ومواقعه كافة، حتى الوقت الحاضر. ويقاس صدقُ العالِم ـ والمسلم عموماً ـ بهذا الميزان، وإن اختلفت الاجتهادات. وأينما يذهب ويرحل ويحل يبقى مستقيماً سليماً حميماً: " اتق الله حيثما كنت وأتْبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها وخالق الناسَ بخُلُقٍ حَسَن"[١] ـ زماناً ومكاناً وكياناً ـ لكن لذلك درجات. وهو أمر ميزته الأُمّة وأَحَلّته جماهيرُها الموقعَ المناسب، ووالته جموعُها، لجوءاً واستماعاً واتباعاً. كل ذلك محفوظ ومذكور ومذخور. والشواهد النضرة يَتَفَوَّح عطرُها ويَتَعَبَّق طيبُها عَبْرَ القرون، تحمله صفحات أسفار هذه الحضارة ويَتّضَوَّع مسكُها، بأيدي علمائها الكرام البررة، بَرَوْا أقلامَهم وامتشقوا يَرَاعهم ورَقَموا كتبَهم.

أعِـدْ ذِكْـرَ نَعْـمـانٍ مـراراً فـإنّه   هو المِسْكُ مـا كَـرَّرْتَهُ يَتَـضَـوَّعُ

ومثلما كانت الأمة تهرع إلى هؤلاء العلماء كانوا هم يهرعون إليها، ووقت الشدة أكثر وليس العكس. أما وقت الرخاء فطاعةً وتلقياً وبناءً. والأندلس في ذلك شاهد ناطق ودليل صادق ورقيب واثق.

أندلس الحضارة والنضارة، أندلس الخير والزهر، أندلس السماحة والرجاحة والجهاد والرباط والحركة والنشاط والعلم والمعرفة، أورثت العالَمَ بِرَّها ونورَها وأحكمت الصِّلَة، لتكون مَعْبَراً لهذا كله إلى عالم الظلمة فتنيره، وإلى مواقع الأسر فتكسر قيده وتحرره، لتطلقه في آفاق هذا الكون، إذ يعرف ربه ويئول إلى كلمته الحقة ويواليها، وترفعه بيدها

(١) وهذا أسلوب متبع حين يقع أحد بأيديهم ويكون أسيراً أو سجيناً بيد العدو يفاوض لقاء عروض ومنافع

الرؤوم، تُعلي هامته التي استطالت عبوديتها لآلهة باطلة تنوعت، سَخَّرت نفسَها لتَسْخَر منها يوم تعرف؛ وهي تعرف الإله الحق الله سبحانه وتعالى، له العبودية الحقة التي لا تُورِث غير الحرية الصادقة فتعبده بشرعه، لكن الطواغيت أبت لها ذلك، وزينته خديعة ومكراً وحقداً استمرت تقارعهم. لكن الأمة المسلمة أبت إلا أن تكون مثالاً ومناراً، كلما كانت قوية بدينها، الذي حاربته قُوى البغي لتردها إلى الظلام. لكنها وقفت، رغم تكالب العدو وتدسيس عوامل الضعف إلى الداخل، فعلت فعلها الأثير.

أُمّة ومجتمع وحضارة، تقوم كلما كَبَتْ لتبني وتُعطي وتُعير، ولا تطلب إدانة ولا منة ولا دَيْناً، وارثة ثمار مجتمعه المجيد، غني التجارب منير المُثل عظيم القيم. كانت خلال ذلك كله تَأْوي وتُدني وتُعطي وتوسع وتفسح وتسمح وتسجح، لكنها أحياناً وببعض الغفلة والاستغفال والإهمال والانشغال والتعلق وانحدار في التخلف، وقعت تحت المطارق الحادة، دون ملاذ ولا مأوى، بيدٍ لئيمة. فاجتمعت عليها عوامل داخلية ذليلة وخارجية ثقيلة، ساعدت هذه على تلك وتلك على هذه، فجثث هامدة، حاولت القيام لقوة فيها ـ وإن كانت ثمالة ـ كُبِحت بأيدي الطَّغام صغاراً، وإن كبر ـ لوقت ـ منها الكرسي والتاج والصولجان. أُمّة ومجتمع وحضارة، بأيدٍ ذليلة كليلة هزيلة، هانت عليهم فهو قدرها، وفتحوا للعدو ثَغْرَها وسَدَّت أمام الأحرار نَهْرَها فذهبت، ولعلها تعود بعون الله تعالى وفضله الغامر العميم.

ولولا هذا العدو الماكر الجَحود الحقود ما ذهبت أيامُها، لأن مناطق أخرى عاشت أيامَها فلم تذهب بفضل الله، بما قيض سبحانه لها من مجاهدين وناصرين معينين.

وبلدان الشَّمال الإفريقي أصابها مثل ذلك ـ قبل السقوط ـ لكنها بقيت، وكادت أن تذهب في الطريق نفسها لكنها حُفظت بعون الله تعالى. قيض اللهُ تعالى لها آلَ عثمان الميامين، فردوا عنها الغوائل، بالجهاد المتواصل، لا سيما في البحر على يد العديد منهم،

أمثال الأَخَوَيْن: عُرُوج وخير الدين بربروسا BARBAROSSA وطرغول (درغوث) وغيرهم.

أما أهل الأندلس فقد قيض الله لهم ناصراً ومعيناً ليخفف عنهم بعض المعاناة وينجد الكثير ممن أرادوا الجواز إلى العُدْوة المغربية. لكن قضاءه - سبحانه وتعالى - قد تم ونفذ في ذهاب هذا البلد، وتأخذه الصليبية. ومَن يدري فقد يعود ليسجل الفتح الجديد، معجزةً أخرى متكررة، وبعد أن تُقَدِّم الدرسَ المعتبر وتسجل العِبَر ويكون بها ما ظهر، جارية حسب سنن الله سبحانه وتعالى، تلك التي لا تتخلف ولا تتبدل.

فهل ادُّخِرَت لِمَن هم كذلك أوعى وأَبَر؟

والأندلس رغم ما جرى لها وانكبابها على وجهها لكنها بقيت تجاهد بكل اعتبار، وكل ما وقع لها وما جرى فيها لتحفظ على أهلها الدين وتورثه لأجيالها لقرون تصل إلى بدايات النصف الثاني من رابعها، كيف بقيت، وبمن تعجب، بمن بقي أو بمن ثوى؟

لاتَعْجَبَنْ مِن هالكٍ كيف هَوى   بل فاعجبنْ مِن سالمٍ كيف نجا

ومع ذلك فقد كانت الأندلس مَعْبَراً لجوانب من الحضارة الإسلامية. قَدَّمت الأندلس، إلى العالم علمها وحضارتها، لكن للأسف مجردة من مقوماتها، أَمْرٌ أُرغمت عليه ولا تملك رده، فليس بيدها هذا الزمام، كما سبق ذكره. هدية الإسلام إلى الإنسانية في عالم الأرض، في غيابه وللحاضر في حياته، ليكون خيرُه مستمراً حتى يعود كلية إليه كاملاً لا يسبقه، بعلمه التطبيقي فقط، بل بشريعته وهي له ولغيره أساس. كلّ ذلك ليتبيّن أنّه لا شيء يغني عن شريعة الله، والبعد عنها لا يورث إلا الهلاك والدمار وفيها وحدها الصيانة ومَن يدري لعله مِن عالَم العداوة يقوم النصير. ولقد جرى، فكم من الأعداء مَن أصبح خيرَ الأبناء، أُمماً وشعوباً وأفراداً. وذلك لا يكون إلا بهذا الدين الذي أنزله الله رحمة للعالمين، بكل أجناسهم وألوانهم وانتماءاتهم، لا فضل لأسود على أبيض، ولا لغني على فقير، ولا لعربي على أعجمي، إلاّ بالتقوى أكرمكم عند الله أتقاكم.

حملت الأندلس خلال القرون الثمانية من عمرها ـ في العالم وفي القارة الأوربية، في أيامها الحوالك ـ رايةَ الحق والنور والخير، لتقدم لهذه الحضارة الحالية بعض خيراتها ـ وهي التي رفضت تمامها ـ لتنعم بها البشرية. فكيف إذاً لو أقبلت على أرضها الطاهرة وأشجارها الباسقة وحدائقها الزاهرة، تَعُبُّ منها، تنهل وتَعِلُّ؟ وكل حركة خيرة ونيرة صادقة وأثارة من علم لديها، كانت منها لصلة بها. ومَن يَطَّلِع على تاريخ الحياة والأحداث والنمو العلمي والنهضة والإصلاح والتفتح في أوربا، يدرك ذلك بكل وضوح. بل لقد اعترف بهذا كله كثرة كاثرة من علمائها المنصفين، من بلدانها كافة واقروا به بقوة وتكرار وإصرار.

ومثلما كانت الأندلس ـ مهمة فتحها وفهمها ـ نادرة وتحمل مسحة أو نسمة معجزة باهرة، أن يتم ذلك الفتح المبين في تلك المدة القصيرة والعُدَّة الزهيدة والعَدد القليل ـ كانت كذلك، قريباً من هذا لأي حَدٍّ، في بقائها كل تلك القرون وفي تلك الظروف، فذلك يبين من قوة بناء الإسلام للإنسان وحياته ومجتمعه، ورصانة ما يصنعه من بنيان في حياة الإنسان، طُهْراً واستقامة وارتقاءً، رَغم ما حدث من تدهور غير قليل، من مبانيه ومعانيه ومراميه.

فكم من دولٍ ومؤسسات، بل وحضارات وأُمم تزول وتدول وتنتهي، ولا تُورِث غيرَ مخلفاتٍ بالياتٍ في كثرتها ـ غير أثارات متهافتة، معبرة عن ذاتها ـ مفتقدة الأصالة والاستقامة والقَوامة. ذلك واضح في الماضي والحاضر، كالدولة الرومانية ومثيلاتها. وانظر في الوقت الحاضر الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي، بقوته العاتية المتجبرة، كيف تساقط ككومة من رمال هشيماً تذروه الرياح. مثلما نرى آثارها الحضارية بعد ذهابها، وربما يأتي غيرُها من مثيلاتها ليدور في فلكها، حتى يأذن الله بقيام مجتمع الحقيقة وحضارته الإنسانية النضرة، يُعبر عن أصالة نفسه مُقَدِّما حقيقة مبناه ومعناه ومحتواه.

والمِسْكُ ما قد شَفَّ عنه ذاتُهُ   لا ما غدا يَنْعتُهُ بائعُهُ

ومثلما تمتعت الأندلس واقفة بازدهارها عظيمة، لم تضعف دوماً، وترددت بين هذا وذاك، حسب خط بيان الالتزام بدينها ومقدار الأخذ به والتمسك بمقومات بنائه، مرت بها ظروف وتداولتها صروف، وعاشت في ذلك وتمتعت بالخير، ما دام لدينها الولاء، المتكامل الشامل، ينقص من ذلك بمقدار ما ينقص من الأخذ به. ولكن يبقى البناء يمد بالقوة ويغري بالعودة ويأخذ بالجهد المبذول المشهود.

ومثلما مرت بالأندلس عهودُ ازدهار واستقرار ونِتاج مليء بالبناء والعطاء والإعلاء، مرت بها كذلك فتراتُ ضعف وتمزق وانكسار وتفرق وتدهور وتخرق، كان بسبب ارتخاء الحبل المتين والانفلات من بعض شعائر وشرائع رب العالمين والارتماء في أرضية أعداء الدين، طمعاً في دنيا سال لها بالضعف اللعاب وهَفَت نحوها نفوسٌ قُلَّب، مَلَكَت الزمام وجَمَعَت حولها أنفاراً قد يوصف بعضهم - أوقاتاً - من الخونة اللئام.

فإذا لم تجد الأُمةُ في الأُمراء مَن يقف بقامته، مديداً حُبُّه لمجتمعه، وليداً جُهْدُه لملته، وشديداً بأْسُه في حمايته، لوقت؛ قام مِن العلماء مَن سَدَّ الثُّغرة وأبى الهجرة، ونحو فئتهم كانت النفرة، فشدوا أيادي المجتمع وجمعوا شمله وحفظوا أهله ورفعوا درجات أمله. فاحتفت بهم الأمة وحَفَّت بهم جماهيرها واحتفلت طَرِبَةً بمواقفهم المضحية بأعز ما لديهم، حانيةً حُنُوَّ الأُبوة الوفية على الأبناء أو حنو الأمهات المرضعات على فطيمهن. فرفعوا بتعاليم الإسلام قدوة بها، تعلماً وتعليماً فيه الاقتداء، استحثوا في الأمة قوةَ الفطرة ومخزونَ الصحوة ومدخراتِ النخوة وروحَ الجهاد المستقرة. استجابت لها الإمارة العزيزة بالإيمان الممتلئة بالأُخُوَّة المرتقية، في العُدوة المغربية، دفعت عن أهل الملة في الأندلس بدافع الجهاد الخالص، فردت أمواج الأعداء الصليبية على أعقابها، كان ذلك منذ أيام الطوائف.

فإذا ما تيقظت روحُ الإمارة وارتقت في ذاتها المعنى الشرعي الرباني القرآني، فاهتزت نفوسُها وَرَبَت في قوتها، ضربت في كل ميادين الحياة الأمثلة المتفردة والتَّوْق إلى احتضان

معاني هذا الدين متجردة، وأعطت عناية بارة ليست مترددة. فأقبلت كذلك تجاهد وتبني، التقت الأُمة بعلمائها فأدت المهمة وجَلَت الظلمة المدلهمة وأقامت حياتها بالهمة.

ويومَ تَصَفَّت هذه وَوَجَدَتْ في إخْوة العُدوة المغربية، إمارةً وعلماءَ ومجتمعاً، جازت الزقاق للنجدة خالصة، يوم غدت الأندلس جزءاً منه - بل وبدون ذلك - مثل أيام المرابطين والموحدين، أو يوم كانت عوناً ملتزِماً بدون ارتباط رسمي أيام المَرينيين.

فإن تعدد الدول وانقطاع الارتباط السياسي لم يؤثر ولم يغير، فأهله والمغرب في أُخُوَّةٍ تؤدي الواجبات من كل نوع. وأهل الأندلس، قلةٌ مِن علماءٍ وغيرهم مَن لم يذهب للعلم والتلقي والحج إلى المشرق، في سياحات ومهمات وإقامات دائمة، ذلك الذي كان بسبب الأُخُوّة الإيمانية، وكلاهما كان كذلك. كان دفع العدو بها ممكناً والحرب في أشد الظروف وأقساها سِجالاً، وإلا فهي أيامُ نصر مؤزر.

فلما ضعفت تلك الأمداد (الإمدادات) تغيرت الأحوال وكثرت الأهوال. ولعل أبرز أسبابها عبءُ الجهاد الذي حملوه في الأندلس، وسبب من الضعف والانشغال بالذات أحياناً.

ومع ذلك فيوم كانت الجبهة الداخلية في الأندلس قوية بدينها، تُطَوِّع أمورَها له وتُقدِّم دنياها لأجله وترميها وراءها بأوزارها وأثقالها، تسير قوية بشريعتها، كانت بأمرائها وعلمائها - بل وحتى بدون أمرائها - تبني وتعلي وترد العدو وتقوم وتقيم. ولكن إذا كثر ذلك وانشغلت الأمة به، شغلتهم هذه الأمور ووزعتهم وأنهكتهم، فانتظر الذَهاب.

ووقوف غَرْناطة مملكةً، لمدة تزيد على قرنين ونصف (٦٣٥ -٨٩٧هـ) في هذا الخضم، تصارع وتقارع وتنتصر، أمام أمواج عاتية من الصليبية الأوربية البابوية، دليل على نوع البناء وقوة الأصالة فيه والنبالة في ذاته. وأحياناً كثيرة حتى مع الانشغال بالداخل والارتخاء في بعض الأنحاء هنا وهناك. مما يجعل الحديثَ عن أسباب السقوط - سقوط غرناطة وذهاب

السلطة والدولة ـ ليس منحصراً ومقتصراً فيما داخلها من اللهو ومقتضياته والفرقة والتناحر ـ رغم عبئها وثقلها وتوهينها ـ فإفرادها وحدها يجعل القراءة والكتابة والدراسة سطحية متعجلة مُهْمِلة. وإنما هناك أسباب داخلية وخارجية متشابكة، متفاوتة الأثر ـ في هذه وتلك، منها الأشد ـ أتت بها متلاقية إلى هذه النهاية، ذهاب السلطان ثم محاولة القضاء على الإيمان، بشكل لم تَرَ البشرية مثله، ويوم تعرفه سيختفي سؤال التعجب الاستنكاري المستغرب: كيف لم يبقَ للإسلام في الأندلس موقع أو أتباع أو جالية؟ ليقوم غيره: كيف يمكن أن يبقى؟ ومع كل ذلك فإنّ الداخلية كانت بيدهم سهلة لو أرادوا علاجها، عند توفر أسبابها، وهناك استعداد كامل للاستجابة، وكانت هذه ستبني مواقع المواجهة والمقاومة والتثبيت ضد العدو. والدليل بقاء المسلمين في الأندلس يدفعون عن الدين والإيمان والإسلام وهم أقوياء بعد السقوط، نساءً ورجالاً وشيوخاً وأطفالاً، رغم ما أبدعوا فيهم من أساليب الموت والتدمير والإبادة بأقسى وأعنف وأقوى الأحكام.

وفي أيام غَرْناطة الأخيرة، لَمّا انقطع مدد الإخْوة من العُدْوة المغربية وتكاثر وتكالب الموج المعادي المتلاطم الأَهْوَج، وطال الأمد في الانشغال والخصومات والنزاعات والتحارب في الداخل ـ وأعني بين المنتزين ـ كانت الأمة في الوقت نفسه تقارع العدو وهو يفترسها وتنخلع من أنيابه وتخلع النصر ـ بعون وفضل الله ـ في أحيان من مخالبه. كانت تفعل ذلك وهي تصطرع فيما بينها، وكان العدو ينكل بها أشد التنكيل، ويقسو بوحشيته عليها، هاتكاً فاتكاً سافكاً. ومع ذلك ما كانت تخافه، بل هي تحاربه، وإذا حاصرها يُنهكها ويُجيعها ويُخرب تالفاً أقواتها ومزارعها ويدمر حاصلاتها ويطيل عليها ذلك دون حرب، يخافها معها، لمعرفته ضراوتها وخساراتها فهو المنتصر الخائف لأنّه ليس باستحقاقه انتصر لكنه لتفوقه العَدَدي والعُدَدي. أين هذا من تعامل المسلمين معهم، حتى في أحلك الظروف مقهورين، أو في أبهاها منتصرين، وفي كل الأحوال متسامحين.

فكان هذا العدو البغيض يتبع أساليب منحرفة دنيئة في خستها، لا يَعرف لذلك حدوداً وليس عنده قيود، وهو مع ذلك يقدم الموهوم من الوعود، بالإغراءات والتعهدات ويبحث عن عملاء يناصرونه، طابوراً خامساً، يخونون أمتهم ويخدعون أهلهم ـ ودوماً كان المسلمون يرفضون ذلك، إذ يأبى عليهم دينُهم أمثالَه، وما أكثر الشواهد ـ ويَجُرُّونها نحو الهاوية بثمن بخس زهيد تافه، وهو الذي لا يقوم له ثمن، يبيعون أغلى شيء بأتفه عملة. وللأسف، فلكم لَحِق الأمة مِن هؤلاء، رغم ملتهم، لا سيما في الأوقات العصيبة!!؟

هذا العدو الماكر الناكر الفاجر، لا يعرف وَعْداً ولا خُلُقاً ولا ديناً ولا قِيَماً ولا عُرفاً ولا سَمتاً، بل يملك الوحشية والدجل والغدر. وربما هو الذي وَقَّع المعاهدةَ ولا ينوي إلا ذلك، وإن أقسم ووقع وجدد وطوع وأكثر وأوسع، وهو دَيْدَنُهم. ولكن أول ما فعله هذا العدو الماكر هو الغدر والنَكْثُ والخُلْفُ الذي لا يَعرف حدوداً، بل ومتعطش له، إذ وَجّه ذلك ضد مَن اختار هذا الدين، من القادمين واللاحقين من أهل البلاد. وهذا واضح في العقود الأخيرة من عمر مملكة غَرْناطة. إلى الرمق الأخير، كانت الأمة بعلمائها تستطيع الحرب حتى النهاية، رغم التفاوت بينها.

هو يشير بوضوح إلى قوة بناء المجتمع الإسلامي، رغم عوامل الضعف الخارجي والداخلي، تفت وتهد، كانت فيها جوانب ومواقع قوية، قوةً يخافها العدو. كل ذلك يجري وهو مدجج ومزود ولديه كل أسباب القوة، المادية المتكاثرة المتفوقة، بجانب المدد الأوربي البابوي، عند استسلام غَرْناطة واستيلائهم عليها. لكن مع ذلك لم يجرؤ الملكان الكاثوليكيان ـ أحدهما أو كلاهما ـ الذَهاب إلى غَرْناطة، وحتى بعد أن اطمئنا، ما كانت لهما جرأة المَبيت ليلاً فيها، وهما تحت سقوف وسيوف أسلحتهم[1] . ألا ما أَجْبَنَ هؤلاء وأمثالَهم حتى وهم منتصرون، حيث أثقلهم الباطل.

---

(١) نبذة العصر، ٤٢. نهاية الأندلس، ٢٥٨، ٢٦٢، ٢٦٣ .

ويوم كان المسلمون في قوة من الدين أَظهر، كانت الأَمداد والعُدَّة أصغر، ومع ذلك كان النصر لهم بقوة الإيمان المتأصل. وهذا هو النصر الحق الذي يحمل الخير والنور والسماحة. وكانت هذه السلطة النصرانية ـ بكل دعائمها الكنسية والرسمية وقواتها وتوحشاتها ـ تخاف أَيّةَ إشارة أو أثارة أو أَمارة من هذا اللون من القوة الحقة وترتعب من همسها، متمثلة في فرد أو جماعة، أو حتى من كتاب، بل ومن بناء أو رمز أو مظهر، كان الخوفُ لباسَها، وتخاف نفسَها. كما كانوا جميعاً يرهبون نخوة المسلم، لِمَا يعرفون من نوعيتها المتدفقة المقبلة المُقْدِمة. وهم قد عرفوا ذلك خلال تاريخ المواجهات مع المسلمين وخبروها وشاهدوها وعانوا منها، حتى في أيام غَرْناطة، والأخيرة منها. وما أخبار الفرسان والأنجاد والقادة عنهم ببعيد، من أمثال موسى بن أبي الغسان، وأمثالُه كثير. بل وحتى من عموم المسلمين الذين ما زالت تُحَرِّكُهم الروحُ الإسلامية وترفعهم وتشحنهم، وعلى وجه الخصوص العلماء. ومن هنا فهم قد استعملوا الترغيب والترهيب معهم. وهنالك بعض الإشارات في هذا الموضوع الذي ما يزال وراء المتوفر من مصادره أحداثٌ وقضايا وتفاصيلُ، نعرف عنها القليل أو أنها تُعَدُّ ضمن المجاهيل. حيث يُفهم من بعضها أن السلطات الإسبانية والكنسية، بعد السقوط والاستسلام والاستيلاء على غرناطة، عندما حاولتْ إقناع بعضَ العلماء وغيرهم من أهل غرناطة بالتنصر ـ الذي رفضوه ـ وأظهروا في ذلك جرأةً وقوةً وإصراراً، انتهى الأمر بقتلهم. ثم لا نذهب بعيداً، فلقد مر بنا أن السلطات الإسبانية أَحرقت قرى بأكملها بمن فيها من الذين رفضوا التنصر، ثم كانت محاكم التفتيش وحفلات الإيمان! لحرق بني الإنسان. هكذا إذاً كانوا يخشون الإيمان الحي في النفوس والذين تتحرك هممهم به ويواجهون بقوته أحداثَه. إذا كان ذلك مع عموم الناس، فكيف مع علمائهم؟ ألا ترى إذاً أن هجرة العلماء الأندلسيين إلى خارج عُدْوتهم أو جزيرتهم مطلباً حثيثاً لأولئك المتسلطين من حكام إسبانيا الصليبيين وكنيستها الموتورة، يسوؤهم ويرعبُهم ويخيبُهم بقاء من يبقى ـ وهو دوماً كذلك ـ لا سيما العلماء الذين لا يخشون في الله لومة لائم ولا تغريهم الدنيا، وقد باعوا أنفسهم

خالصة لله سبحانه وتعالى.

وإن بعض العلماء الذين بقوا في الأندلس ولم يهاجروا، يَجلبون بذلك وحده الرعب للكنيسة والدولة، ويتمنون رحيلَهم ويبذلون لذلك. وهؤلاء العلماء الذين وقفوا أدَّوْا دوراً عظيماً. وحتى بعد السقوط والاستسلام والاستيلاء وبداية عمليات التنصير كانت السلطات الكنسية والرسمية تخاف هؤلاء العلماء الذي بقوا ولم يهاجروا، لحماية المجتمع والأمة والملة، مثل الإمام المَوّاق والفَخّار والصقري وغيرهم. وعَرضت عليهم السلطاتُ الماكرة الناكرة الفاجرة الدنيا مقابل تقديم الرضوخ، بالتنصر أو بالتناصر، وهم قد اختاروا موقفهم فأبوه. قضوا عليهم وغدروا بهم وقتلوهم، وهؤلاء يَعرفون مقدماً وبوضوح كامل هذا المصير!! وهكذا دوماً يكون الباطل وهكذا دوماً يكون الحق وأهلُه، تلك سُنَّة مُتَّبَعة لا بد منها، والحياة الإسلامية مترعة بها، وهي في غاية الثراء والبهاء والولاء.

وحق لهؤلاء العلماء، الذين رفضوا الهجرة ورفضوا الدنيا وإغراءاتها، وكان موقفهم باهراً وفاضلاً وباسلاً، أن يتفرد بهم بحث، يتابع أحوالَهم ويُظهر مواقفَهم ويتحرى حقائقَ الأمور التي دعتهم لذلك، وارتبطوا بها وثبتوا من أجلها، ولو ذاقوا مُرَّ المعاملة وقسوة المواجهة وثِقْلَ الموقف.

أما العلماء الذين هاجروا فكان موقفهم مفضولاً، أَعْتَبِرُهم اجتهدوا، فما أصابوا. تبين لهم أن ذلك أسلم لدينهم ولم يَظهر لهم - تخميناً وقياساً واستقراءً - ما كان مغيباً عنهم، والذي كان في ضمير الزمن المغيب مستقبلاً والله أعلم به قبل حدوثه غيباً. ونحن الآن ننظر إليه بعد حدوثه. فهم قد تصرفوا في تلك الظروف المرتبكة ومجاهيل الدروب الملتوية وشدائد الأهوال والأحوال التي فاجأتهم. تصرفوا بذلك ظنًّا منهم بالأفضلية، من نواحيهم الشخصية، في الحفاظ على دينهم وحمايةً لقيمهم وبحثاً عن مستقر، بعيدين عن الاضطهاد، على اعتبار أن ذلك متروك للاجتهاد، فيما يتبين لهم، وبعد ذَهاب السلطة،

وهو باتجاه كان له ثِقَلُه وحججه ومبرراته. ولعلهم قد ظنوا أنهم يستطيعون أن يُقَدِّموا عوناً للأندلس، وهم خارجه، أو أنهم في النهاية لا بد أن يغادروا، وإلا يُغْدَروا. لكن بقاءهم كان في كل الأحوال والحجج أفضل. فإذا كان لا بد من خروجهم كان عليهم أن يكونوا جميعاً ويبذلوا جهداً ويقدموا شيئاً ولو فرديًّا، بل أن يُكَوِّنوا رابطة تقوم بوضوح بدورها، أشبه بحكومة في المنفى. فهل كان تفكيرهم فردياً، نظروا فيه أنفسهم وأهملوا معه بلدهم وأهلهم وأندلسهم.

ومثلما كان الإخوة في العُدْوة المغربية دوماً عوناً جاهزاً عابراً للنجدة لإخوانهم في العُدْوة الأندلسية. ومثلما كانوا مَدَداً وسَنَداً في كل ما يتعلق بالأندلس. ومنذ الفتح الإسلامي للأندلس الذي أتى من خلال أرضهم وبالكثرة من جندهم ـ مع إخوانهم المسلمين القادمين من المشرق ـ كانوا كذلك موئلاً وملجأً للمهاجرين من الأندلس بعد السقوط، علماء وجماهير وأمراء، ذهبوا إليهم أفراداً وأرسالاً وجماعات، استقبلوهم ومهدوا لهم وآووهم. فكانت بلدانهم لهم موطناً وأرضهم لهم مستقرًّا ومدنهم لهم نُزُلاً، حَفُّوهم وحَفَلوا واحتَفَوْا بهم، في أي جزء من العُدْوة المغربية. ودعني أُوسع مدلول هذه العُدْوة ليشمل كل الشَّمال الإفريقي ـ تونس والجزائر والمغرب ـ وكما يبدو استعملها المَقَّري. ذهبوا حيثما قد ذهبوا وأيةَ وُجهة قصدوا منه وأية مدينة حلوا بها فيه. فوجدوا ـ حيثما ذهبوا ـ أهلاً ونزلوا فيها سهلاً، بل أقاموا فيها مُدُناً لهم، مُنِحوا كل ما يحتاجونه.

ومنهم من ذهب إلى بلدان أُخرى من العالم الإسلامي. وهذا دليل آخر على الأُخُوّة الإيمانية بهذا الدين، وأن التقسيمات الإدارية لم تؤثر في ذلك، بل العكس لأنها (الأُخُوَّة) هي الأساس ولها الولاء وبها الاهتداء.

ولكن للأسف فإننا اليوم نشاهد من يريد ملجأً من بلداننا، الإسلامية، ومنها العربية ـ محقاً أو مبطلاً ـ نادراً أن يجده في أحدها، بل يذهب إلى البلدان غير الإسلامية والمعادية

أحياناً، يجد فيها الأمن والأمان، كما يجد فيها الرعاية المتنوعة والحماية والضمان!!! وهذا العالم أمامك يقدم لك الشواهد والأمثلة.

لكن العلماء المهاجرين الذين دُرِسوا في هذا البحث ـ وعددهم ثلاثة عشر ـ ذهبوا إلى مدن معلومة، أكثرهم كانت إقامتهم فيها لِمُدَد، في أكثر من مدينة، وإن كانت وفاتهم في غيرها.

ولكن نصيب فاس وتلمسان وتونس كان أكثر من غيرها في ذلك. ومدن أخرى استقبلتهم زائرين أو مقيمين لوقت أو إلى نهاية العمر، في البلاد الإسلامية الأخرى كافة، وغيرها. ولكن نصيب الشّمال الإفريقي في كل ذلك كان أكثر وعونهم لهم أوفر، وهيأوا مجالاً أكبر. والكل كان لهم أخاً مِعْواناً ومُرَحِّباً سُلواناً، لكن بعضهم تَفَوَّق ألواناً.

* * *

وبعد فأشكر الله تعالى وأحمده كثيراً على إتمام الكتاب وحسن الكلام وأسأله جزيل الثواب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين.



المصادر والمراجع

﴿ القرآن الكريم ﴾

* صحيح البخاري (الجامع الصحيح)، الإمام أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري الجَعْفي، (سمرقند، ٢٥٦هـ)، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، دمشق، ١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م.

* صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القُشَيْري النيسابوري (نيسابور، ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م.

* مسند الإمام أحمد، الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (بغداد، ٢٤١هـ)، بيروت، ١٣٨٩هـ= ١٩٦٩م.

* سنن أبي داود، الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (البصرة، ٢٧٥هـ)، تحقيق عزت عبيد دعاس، حمص، ١٣٨٨هـ= ١٩٦٩م.

* * *

* الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله عِنان، القاهرة، ١٣٧٥هـ= ١٩٥٦م.

* الإحاطة في أخبار غَرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السَّلْماني (فاس، ٧٧٦هـ)، تحقيق محمد عبد الله عِنان، القاهرة، ١٣٩٣هـ=١٩٧٣م.

* أزهار الرياض في أخبار عِياض، شهاب الدين أبو العباس احمد بن محمد المَقَّرِي التِلِمْساني (القاهرة، ١٠٤١هـ)، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، القاهرة، ١٩٣٩-١٩٤٢، طبعة مصورة برعاية المعهد الخليفي للابحاث المغربية (بيت المغرب)، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

* أسنى المتاجر في بيان أحكام مَن غَلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، الفتوى التي كتبها (يوم الأحد التاسع عشر لذي القعدة الحرام من عام ستة وتسعين وثمان مئة) أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريسي (فاس، ٩١٤هـ) حول وجوب الهجرة من الأندلس، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، بحث : صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الخامس، العدد ١ - ٢، ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م. وهي الفتوى الواردة ضمن كتاب الونشريسي الشهير: المِعْيار المُعْرِب والجامع المُغرِب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمَغْرِب(انظره)، ٢ / ١١٩ (١٣٦) - ر١٤١

* إظهار الحق، محمد يوسف الكاندهلوي.

* الأعلام، خير الدين الزِّركلي، بيروت، ١٩٨٤م.

* الأندلس الذاهبة، ألفه بالتركية ضيا باشا، عرّبه عبد الرحمن أرشيدات، عمان، ١٩٨٩م.

* الأندلسيون المواركة، عادل سعيد بشتاوي، القاهرة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

* الأنوار النبوية في آباء خير البرية، محمد بن عبد الرفيع الأندلسي الموركسي(تونس، ١٠٥٢هـ)، مخطوط الخِزانة العامة بالرباط، رقم ك ر١٢٣٨ وقد قام بنشر منقولات من القسم المتعلق بالموركسيين من هذا الكتاب شكيب أرسلان في " حاضر العالم الإسلامي"، ١ / ٢ / ٢٤ وبعدها. ثم نشر هذا القسم كاملا الدكتور عبد المجيد التركي ضمن وثائق عن الهجرة الأندلسية في"حوليات الجامعة التونسية، العدد الرابع، ١٩٦٧، ٢٥ وبعدها.

* بدائع السلك في طبائع الملك، أبوعبد الله محمد بن الأزرق الأَصْبَحي الأندلسي(بيت المقدس، ٨٩٦هـ = ١٤٩١م)، تحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم، ليبيا - تونس، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.

* برنامج المُجَاري، أبو عبد الله محمد المُجَاري الأندلسي (٨٦٢هـ)، تحقيق محمد أبو الأجفان، بيروت، ١٩٨٢م.

* البَسْطي آخر شعراء الأندلس، الدكتور محمد ابن شريفة، بيروت، ١٩٨٥م.

* البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب، ابن عِذاري: الشيخ أبو عبد الله محمد الأندلسي المراكُشِي (بعد ٧١٢هـ)، الجزء الثاني، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، باريس، ١٩٤٨م.

* التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة*، دمشق، ١٤١٨هـ= ١٩٩٧م. وهذه النجمة (*) تشير إلى أن الكتاب للمؤلف الحالي.

* تاريخ افتتاح الأندلس، أبو بكر محمد بن القُوطِيّة(قرطبة، ٣٦٧هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله أنيس الطباع، بيروت، ١٩٥٧ .

* تاريخ الدولة العلية العثمانية: محمد فريد بك المحامي، تحقيق الدكتور إحسان حقي، بيروت، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.

* تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل جنثالث بالنثيا، عرَّبه عن الإسبانية الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥، والأصل الإسباني له (انظره):

Historia de la Literatura Arabigo - Española.

* تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، أبو محمد عبد الله بن عبد الله التُرْجُمان المَيُورْقي(تونس، ٨٣٢هـ)، واسمه النصراني قبل إسلامه Fray Anselmo Turmeda، تحقيق عمر وفيق الداعوق، بيروت، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م.

* تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب: مخطوط المكتبة الملكية بالرباط، رقم: د ٣٢٢٣. وهو الكتاب السابق نفسه، والظاهر أن محقق الكتاب لم يطلع على هذه المخطوطة التي لديّ صورتها وتصويرها.

* تراث الإسلام، معرب عن الإنكليزية، لجنة الجامعيين لنشر العلم، القاهرة، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م. والأصل الإنكليزي (انظره): The Legacy of Iislam.

* تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٣٩٠هـ= ١٩٧٠م.

* التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، الدكتور محمد عبده حتاملة، عمان، ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م.

* التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فيليب الثاني، الدكتور محمد عبده حتاملة، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٢م.

* الثَّبَت (ثَبَت البَلَوي)، ثبت أبي جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن داود البلوي الوادي آشي الغرناطي الأندلسي (بعد سنة ٩٠٨هـ= ١٥٠٢م)، تحقيق الدكتور عبد الله العمراني، بيروت، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م.

* جذوة الاقتباس، في ذكر مَن حلَّ من الأعلام مدينة فاس، أحمد بن القاضي المكناسي، الرباط، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤م.

* جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (قرطبة، ٤٥٦هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٧٧م.

* جنة الرضا في التسليم لما قدر اللّه وقضى، أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي (غرناطة، ٨٥٧هـ)، تحقيق الدكتور صلاح جرار، عمان، ١٤١٠هـ= ١٩٨٩م. ولديَّ ميكروفيلم لمخطوطته.

* جواهر الكمال في تراجم الرجال، أبو عبد الله محمد بن أحمد العبدي الكانوني، الدار البيضاء، ١٣٥٦هـ.

* حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد وتعريب عجاج نويهض، وتعليق شكيب

أرسلان، ١٣٩٤هـ= ١٩٧٣م.

* الحلل الأندلسية: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، القاهرة (١٣٥٥هـ= ١٩٣٦م).

* الحلل التونسية: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، محمد بن محمد الأندلسي، الوزير السراج (محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن مصطفى الوزير لقباً الأندلسي نسباً المالكي مذهباً)، تونس (١١٤٩هـ)، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس، ١٩٧٠م.

* حياة الوزان وآثاره، محمد المهدي الحجوي.

* درة الحجال في أسماء الرجال، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي (١٠٢٥هـ)، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة - تونس، ١٣٩٠هـ= ١٩٧٠م.

* الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشَّنْتَريني (قرطبة، ٥٤٢هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥م. (العلمية) = طبعة دار الكتب العلمية، تحقيق سالم مصطفى البدري، بيروت، ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م.

* ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، حسين خوجة (١١٤٥هـ)، تحقيق الطاهر المعموري، ليبيا - تونس، ١٣٩٥هـ= ١٩٧٥م.

* رحلة القَلْصادي، أبو الحسن علي القَلْصادي الأندلسي (باجة تونس، ٨٩١هـ)، تحقيق محمد أبو الأجفان، تونس، ١٩٧٨م.

* روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر مَن لقيتُه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المَقَّري التلمساني (القاهرة، ١٠٤١هـ)، تحقيق

عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ١٣٨٣هـ= ١٩٦٤م.

* ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب، ابن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، ١٤٠١هـ= ١٩٨١م.

* زهر البستان في نسب أخوال سيدنا المولى زيدان (بن إسماعيل)، ابن العَيّاشي: أبو عبد الله محمد بن العياشي (١١٣٩هـ= ١٧٢٦م)، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، رقم: د ٢١٥٢ (ولدي صورتها).

* السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها*، دمشق - بيروت، ١٩٩٩م.

* السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي،

* السيف الممدود في الرد على أحبار اليهود، أبو محمد عبد الحق الاسلامي (نهاية القرن ٤)، مدريد

* الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٩٠٢هـ)، بيروت.

* "ظاهرة تعريبية في المغرب أيام السعديين"، محمد المنوني، بحث: صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد ١١-١٢، ١٩٦٣-١٩٦٤م.

* العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل اللّه بالمدافع، الربَّاش: الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي المورسكي، عرَّبه عن الإسبانية وأتمه في العاشر من ربيع الثاني (١٠٤٨هـ) الشهاب الحَجَري: أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحَجَري(الحَجْري) الأندلسي المورسكي (آفوقاي)، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم: ج ٨٧ (المكتبة الجلاوية) ولديّ صورة مخطوطته، وكان الاعتماد عليها. وتوجد نسختان من هذه المخطوطة في دار الكتب المصرية (القاهرة): (١) مخطوطة

رقم ٩٧ فروسية،(٢) والتيمورية المصورة برقم ٨٦ فروسية. كما توجد نسخة مخطوطة أخرى بدار الكتب الوطنية (تونس)، مخطوطة جامع الزيتونة. انظر: بحث: من تراث الأدب الأندلسي الموركسي، ١٤ وبعدها.

* فهرسة ابن غازي (محمد بن أحمد: مكناس، ٨٤١ (٨٥٨) - فاس، ٩١٩هـ): التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد، تحقيق محمد الزاهي، الدار البيضاء (المغرب)، ١٣٩٩هـ= ١٩٧٩م.

* القاموس المحيط، الفيروزآبادي (٨١٧هـ)، بيروت، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.

* قصة العرب في إسبانيا، استانلي لين بول، عرَّبه عن الانكليزيةعلي الجارم، القاهرة، ١٩٦٩م. والأصل الإنكليزي (انظره): The Moors in Spain.

* قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار. دمشق - بيروت.

* محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها*، الكويت، ١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م.

* محمد في الكتاب المقدس، البروفسور عبد الأحد داود، ترجمة فهمي شَمّا مراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق، قطر، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م. والكتاب معرب من الأصل الانجليزي: Muhammad in the Bible. (انظره).

* مختار الصحاح، الرازي، بيروت، ١٩٨٦م.

* المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب: محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي (٦٤٧هـ)، تحقيق محمد سيعد العريان، القاهرة، ١٣٨٣هـ= ١٩٦٣م.

* المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٩٢هـ= ١٩٧٢م، الطبعة الجديدة.

* المِعيار المُعْرِب والجامع المُغْرِب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، الفقيه المالكي أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي(فاس، ٩١٤هـ)، خرجه جماعة من الفقهاء

بإشراف الدكتور محمد حجى، بيروت، ١٤٠١هـ= ١٩٨١م، دار الغرب الإسلامي.

* ملامح من تطور المغرب العربي في بدايات العصور الحديثة، محمد المنوني، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، ١٩٧٩ .

* من تراث الأدب الأندلسي الموريسكي «كتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»، محمد عبد الله عِنان، بحث: مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد ١٦، ١٩٧١م.

* «مناقشة أصول الديانات في المغرب الأوسط والحديث»، محمد المنوني، مجلة «البحث العلمي» (الرباط ـ المغرب)، السنة الخامسة (١٩٦٨)، العدد ١٣، ٣٣٢٢٣٠ .

* مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، محمد عبد الله عِنان، القاهرة، ١٣٨٢هـ= ١٩٦٢ .

* الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، الدكتور لوي كارديا‌ك، عرَّبه عن الفرنسية الدكتور عبد الجليل التميمي، تونس، ١٩٨٣م.

* «موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية والسياسية في عهد الملك فيليب الثالث»، الدكتور محمد عبده حتاملة، بحث: مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، المجلد ١٤، العدد ١٠، ١٩٨٧م.

* ناصر الدين على القوم الكافرين (فيه مختصر من رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب)، الشهاب الحَجَري: أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي المورسكي (آفوقاي)، تحقيق الدكتور محمد زروق، الدار البيضاء، ١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م. وتحقيق جديد مع ترجمة ومقدمة بالإنجليزية، تحقيق وتقديم وترجمة الدكاترة (جامعة ليدن ـ هولندا): شورد فان كوننكزفلد وقاسم السامرائي وخيرارد فيخرز. P.S. Van Koningsveld, Q. AL-Samarrai And G.A Wiegers، مدريد، ١٩٩٧.

وكان أول (أو من أوائل) من اعتنى بهذا الكتاب وعَرَّف به المستشرقة الإيطالية (كليليا سارنيلي C. Sarnelli أستاذة بالمعهد الشرقي بجامعة نابولي - إيطاليا) ونشرت صوراً لصفحات منه في مجلة هذا المعهد . ولما طلبتُ منها ذلك أرسلت إليَّ بالبريد مشكورة عددين من المجلة التي فيها تلك الصفحات. كما أنّها قدمت ونشرت عدة بحوث عن هذا المخطوط وعن مؤلفه. ولهذا الكتاب عنوان آخر: السيف الأشهر على كل من كفر.

* نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، مجهول المؤلف (مؤلفه غرناطي عاش أحداث السقوط وبعدها وشارك فيها مجاهداً)، تحقيق الفريد البستاني، العرائش (المغرب)، ١٩٤٠م.

* النبوغ المغربي في الأدب العربي: عبد الله كنون، بيروت، ١٩٦١م.

* نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، محمد الصغير ابن الحاج بن عبد الله الأفراني النِّجَار (الأصل) المراكشي الوِجَار (الموطن)، (بعد ١١٥٥هـ = بعد ١٧٤٢م)، الرباط، ١٩٨٠م.

* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المَقَّري التلِمْساني(القاهرة، ١٠٤١هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، ١٣٨٨هـ= ١٩٦٨م.

* نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، محمد عبد الله عِنان، القاهرة، ١٣٨٦هـ= ١٩٦٦م.

* نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التُّنْبُكْتي (تُنْبُكْت، ١٠٣٦هـ= ١٦٢٧م)، القاهرة، ١٣٢٩هـ، (بهامش الديباج المُذْهَب في معرفة أعيان علماء المَذْهَب).

* ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، محمد المنوني، الرباط (المغرب)،

١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م (؟).

* وصف إفريقيا، الحسن بن محمد الوَزّان الزياتي (تونس، ألفه بالإيطالية في روما ١٥٢٦م)، عرّبه عن الفرنسية الدكتور عبد الرحمن حميدة.



المراجع الفرِنجية

- Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe during the Umayyad period*, Beirut, 1970.
- Encyclopaedia of Dates and Events.
- Historia de la España Musulmana A. Gonzalez Palencia. Barcelona - Buenos Aires, 1932.
- Historia de la Literatura Arabigo - Española, A. Gonzalez Palencia. Barcelona, 1945.
- The Legacy of Islam.
- Longmans English Larousse.

المورد (قاموس عربي - إنجليزي) – AL- Mawrid

منير البعلبكي، بيروت، ١٩٨٨م.

المورد (قاموس إنجليزي - عربي) – AL- Mawrid

الدكتور روحي البعلبكي، بيروت، ١٩٨٩م.

- LES MANUSCRITS ARABES DE L'ESCURIAL ,H. DEREN BOURG, TOME PREMIER, PARIS, 1884.
- The Moors in Spain (the story of the nations), Stanley Lane - Poole, London, 1897.
- The Moriscos of Spain: Their Conversion and Expulsion, Henry Charles Lea, New - York, 1968.
- Muhammad in the Bible, Prof. ' Abdul- Ahad Dawud, Doha - Qatar, 1980.

وترجمته العربية: محمد في الكتاب المقدس (انظره).

- Nuevo Diccionario Español Arabe ,F. Corriente, Madrid, 1988.

(قاموس إسباني - عربي)

- A Political History of Muslim Spain. S.M. Imamuddin, Pakistan, 1961.
- Webster New Geographical Dictionary, A Merriam- Webster, U.S.A., 1984.

* * *

للمؤلف

١– تحقيق ودراسة لسِفْر من كتاب: المُقْتَبِس في أخبار بلد الأندلس، للمؤرخ الكبير ابن حَيّان القُرطبي (٣٧٧ ـ ٤٦٩هـ)، بيروت (١٩٦٥م). يتحدث هذا الجزء من المُقْتَبِس عن خمس سنوات (٣٦٠ ـ ٣٦٤هـ = ٩٧٠ ـ ٩٧٤م) من أيام الحكم الثاني، المستنصر بالله (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ = 961 ـ ٩٧٦م).

Critical edition of "AL-MUQTABIS FI AKHBAR BALAD AL-ANDALUS", by Ibn Hayyan (469 = 1076), Beirut, 1965.

This volume, of "AL-MUQTABIS", discusses almost five years (360 - 4 = 970 - 4) of the Reign of Al-Hakam II (350 - 66 = 961-76).

٢– تحقيق ودراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس وأوروبا من كتاب: المسالك والممالك، للجغرافي الأندلسي الكبير أبو عُبَيْد البَكري (عبدالله بن عبدالعزيز، ٤٠٦ ـ ٤٨٧هـ). ظهر هذا النص تحت عنوان جغرافية الأندلس وأوروبا، بيروت، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٨م.

Critical edition of "THE GEOGRAPHY OF AL-ANDALUS AND EUROPE", from the Book "AL-MASALIK WAL-MAMALIK" by Abu Ubayd Al-Bakri (487 = 1094), Beirut, 1387 A. H = 1968 A. D.

٣– أندلسيات، المجموعة الأولى، بيروت (١٣٨٨هـ = ١٩٦٩م). المجموعة الثانية، بيروت(١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م). وتضم بحوثاً ومقالات غالبيتها في التاريخ الأندلسي. وسيظهر هذا العنوان ـ إن شاء الله ـ كتاباً في جزء واحد كبير مع بحوث أخرى جديدة عديدة. ليكون كتاباً أكبر من ضعف الأصل.

٤– نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت (١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م). الطبعة الثانية، دمشق (١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م). الطبعة الثالثة، دمشق (١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م). وهي طبعة مزيدة ومنقحة. الطبعة الرابعة، القاهرة (١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م). الطبعة الخامسة، الكويت (١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م)، وهي تصوير الطبعة الثالثة. والطبعة المنقحة، وقد تمّ طبعها: دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩ . وقد

صدرت والحمد لله رب العالمين.

٥- الحضارة الإسلامية في الأندلس، بيروت (١٣٨٩هـ= ١٩٦٩م).

٦- تاريخ الموسيقى الأندلسية، بيروت (١٣٨٩هـ= ١٩٦٩م).

٧- الدكتوراه (كتاباً بالانجليزية) عن : " العَلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية حتى نهاية الخلافة " :

ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE DURING THE UMAYYAD PERIOD, BEIRUT, 1390 (1970).

وقد تمّ تعريبها وإعدادها ـ والحمد والشكر لله ـ لتنشر عما قَريب، إن شاء الله. وهناك خطوات لترجمتها إلى لغات أوربية أخرى.

٨- التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة(٩٢ ـ ٨٩٧هـ=٧١١ ـ ١٤٩٢م)، الطبعة الاولى، دمشق (١٣٩٦هـ= ١٩٧٦م). الطبعة الثانية، دمشق (١٩٨٤). الطبعة الثالثة، دمشق (١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م). الطبعة الرابعة، القاهرة(١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م). الطبعة الرابعة (الخامسة) بيروت ١٩٩٤م. الطبعة الخامسة (السادسة) بيروت، ١٩٩٧م. جدة، دار البشير، هاتف (تلفاكس) ٠٠٩٦٦٢٦٦٠٨٩٠٤ وتعدّ حالياً طبعته الجديدة، منقحة موسعة ومزيدة، إن شاء الله تعالى.

٩- جوانب من الحضارة الإسلامية، الطبعة الاولى، بيروت (١٩٧٩م). الطبعة الثانية ، الكويت (١٩٨٧م) (تصوير).

١٠- مع الأندلس لقاء ودعاء، بيروت (١٩٨٠م).

١١- محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها ، الكويت (١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م).

١٢– ابن زيدون السفير الوسيط، الكويت (١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م).

١٣– أضواء على الحضارة والتراث، الكويت (١٤٠٨هـ= ١٩٨٧م).

١٤– تاريخنا من يكتبه، دار الفضيلة، القاهرة (١٤١٨هـ= ١٩٩٧م).

١٥– العَلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري، الإمارات - أبو ظبي (المجمع الثقافي)، ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م. وأصله البحث المذكور هنا: رقم ٢٣ .

١٦– السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ١٤٢٠ = ١٩٩٩ .

١٧– هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة، ظروفها وآثارها. وهو الكتاب الحالي. ويقوم بطبعه المجمع الثقافي في أبوظبي (الإمارات).

١٨– بحث بالانجليزية:

"Intermarriage between Andalusia and Northern Spain in the Umayyad period " THE ISLAMIC QUARTERLY", London, Vol. XI, Nos. 1 - 2, 1387 = 1966.

نشر بالعربية ضمن المجموعة الأولى من أندلسيات.

١٩ - نقد (Review) بالإنجليزية، لكتاب:

A History Of Islamic Spain, W. Montgomery Watt (Islamic Survey 4), EUP., 1965, in "THE ISLAMIC QUARTERLY", Vol. X, Nos. 3 - 4, 1386 (1966).

نشر (النقد) باللغة العربية ضمن المجموعة الاولى من أندلسيات.

٢٠ - بحث بالإنجليزية يتناول جانباً من شخصية الرحالة الأندلسي (إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطُّرطوشي):

"At-Turtushi the Andalusian traveller, and his meeting with Pope John XII", "THE ISLAMIC QUARTERLY", Vol. XI, Nos. 3 - 4, 1387 (1967).

ونشر كذلك باللغة الإيطالية (مع بحث آخر عن هذا الرحالة الطرطوشي) في مجلة:

Rivista Storica Italiana, NAPOLI, ANNO LXXIX, FASC. 1, 1967, PP. 164-173.

٢١- بحث : "القضاء ودراسته في الأندلس" ، نشر في العدد الأول (١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م) من مجلة كلية الامام الأعظم (بغداد) .

وسينشر - بعون الله تعالى - مع عدة بحوث أخرى في الموضوع نفسه ليكون كتابا

٢٢- بحث : "الكتبُ والمكتبات في الأندلس" ، نشر في العدد الرابع (١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م) من مجلة كلية الدراسات الاسلامية (بغداد) .

وقد تمّ - ولله الحمد والمنة - توسيعه ليكون كتابا بالعنوان نفسه .

٢٣- بحث : "العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري" ، نشر في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني والعشرون (١٩٨٣ - ١٩٨٤م) . وقد أصبح كتاباً (رقم ١٥) والحمد والشكر لله تعالى ، ويقوم بطبعه المَجْمع الثقافي ، أبو ظبي ، دولة الإمارات العربية المتحدة .

٢٤- بحث : " الموريسكيون في المصادر والمخطوطات الأندلسية" ، قريباً تحت الطبع ، بالعربية وكذلك بالإنجليزية بعنوان : The Moriscos In The Andalusian References And Manuscripts. (في العدد التجريبي من مجلة البُذُور التي تصدر قريباً إن شاء الله تعالى كيمبرج (بريطانيا) .

٢٥- كتاب : دراسة الظاهرة العلمية في المجتمع الأندلسي ، من خلال : الكتاب الأندلسي والمكتبات فيه ، يجهز قريباً للطباعة .

وبحوث أخرى عديدة بالعربية والإنجليزية عن التاريخ الإسلامي والأندلسي وحضارته ، وكذلك عشرات البحوث والمقالات في الصحف والمجلات في البلاد الأوربية والإسلامية ، ومنها العربية ، و لا سيما الخليجية .



الكشاف العام

الأحاديث الشريفة



المحتويات

